على أبو المكارم

العاشق ينتظر

رواية

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

على أبو المكارم

العاشق ينتظر

رواية

الطبعة الأولى
١٩٩٢

توزيع دار الثقافة العربية
٣ شارع المبتديان
السيدة زينب - القاهرة

دار الهانى للطباعه ـ شبرا الخيمه
ت ٢٢١٢٠٥٥

تقع أحداث هذه الرواية في شهر أغسطس
سنة ١٩٨٠ م

-١-

تلقى ماهر الجندي رئيس القسم الثقافي بالمؤسسة الصحفية الكبرى بارتياح حقيقي نبأ فوز الدكتور كمال البرغوتي بجائزة الدولة التقديرية في الآداب ، وأوشك أن يعقب وهو يتلقى النبأ تليفونيا من أحد المحررين الشبان الذين كانوا في انتظار إعلان النتيجة في وزارة الثقافة : « *أخيرا* » وقفزت إلى ذهنه تلقائيا صورة قديمة اختزنتها الذاكرة أكثر من عشر سنوات ، حين التقى بالبرغوتي لأول مرة في المقهى الذي يضم طائفة من المثقفين الذين يجيدون الثرثرة في كل شئ دون أن يعجبهم أي شئ . وكان قد لفت نظره إليه وجهه وصمته ... كان وجهه المسطح يترهل خداه فيرسمان بصورة تدعو إلى الدهشة شكل بولدوج أليف لكنه يعطيك الانطباع بأنه جائع ، تتوسل إليك نظراته الحيري الصادرة عن عينين غائرتين بالغتي الضيق يزيدهما ضيقاً الهالة المنتفخة الداكنة حولهما ، وتمتد بينهما منطقة عازلة يفترض أن فيها أنفا لا ترى منه إلا فتحتين سوداوين تطلان مباشرة على فم غليظ الشفتين تنفرجان قليلا لتكشفا عن أسنان غير منتظمة أحال التدخين المستمر لونها المصفر إلى لون غير معروف الصفة وإن كانت درجته تقع بين الأسود والبني . وكان طول اللقاءات الأولى التي رآه فيها في المقهى صامتا مذعورا كتلميذ استبد به الخوف من العقاب ، حتى همّ ماهر الجندي في تلك الأيام أن يصنفه بأنه أحد عيون السلطة التي تحرص على بثها في التجمعات المختلفة

لولا أن صحح له معلوماته قطب حلقة الثرثرة فاروق السيد ، حين ذكر له عرضا باستخفاف ظاهر :

- إنه واحد من الأكاديميين الذي يتعاطون الكتابة .

ثم أضاف بلهجة ساخرة :

- وهو لا يخلو من موهبة على أي حال .

وحين اقترب منه ماهر الجندي في تلك الأيام راعه فيه ما عده غباء ، فقد كان البرغوتي يحلم بأمرين يستبدان به : أن يكتب شيئا يعتد به النقاد والأدباء ، وأن يحقق انتشارا يلفت إليه الأنظار . وعجب الجندي كثيراً لهذا الحلم المركّب ، إذ كيف لمثقف يُفترض أنه يعرف الواقع الفكري والاجتماعي أن يتصور إمكان الجمع بين نقيضين . تصاعدت إلى ذهن ماهر وهو يستعد لكتابة خبر فوز البرغوتي بالجائزة أصداء مناقشات طويلة جرت بينهما كان فيها الجندي أمينا حين نصح البرغوتي بأن يختار أحد الحلمين لاستحالة الجمع بينهما معا ، فالكاتب الحقيقي راهب يعيش متأملا كل شئ ليحيله إلى ابداع صادق ، وليس لديه الوقت ولا الطاقة ليقوم بتعريف الناس بما ينتج ، وعليه أن يتوقع أن يظل مجهولا في انتظار اكتشاف قد لا يتم قط إلا بعد وفاته ، بل قد لا يتم على الإطلاق . أما الانتشار فأمره ميسور ، لأنه عمل اجتماعي في المقام الأول ، فهو لا يحتاج إلا إلى خلق علاقات متنوعة مع أجهزة الإعلام المختلفة ، وتوطيد الصلات مع المسئولين عنها ، وليس مهما في هذه الحالة ما تكتب ، بل ليس مهما حتى أن تكتب ، المهم أن تكون قادراً على أن تظهر دائما ككاتب لا مع تتابع نشاطه وأخباره الأجهزة المختلفة ، وتجلو صورته الأقلام المجاملة ، بحيث تضعه دائما في موضع بارز يشد إليه الاهتمام .

« لقد أحسن الاختيار » .

قالها الجندي لنفسه وهو يصوغ بعناية خبر فوز البرغوتي بالجائزة ليلحق بالطبعة الثانية من الصحيفة ، وازدادت سعادته وهو يستشعر ما له من فضل في توجيه

البرغوتي إلى الطريق الذي انتهى به إلى ما صار إليه ، لقد نفّذ ما نصحه به في تلك الأيام تنفيذا رائعا ، حتى ان فوزه بالجائزة كان لدى العالمين ببواطن الأمور أمرا متوقعا منذ فترة ، ولعل الاشارة العلوية بمنحه الجائزة قد تأخرت عن وقتها بعض الشيئ . بعد أن تمكن البرغوتي بذكاء من أن يفسح له في أجهزة الاعلام الرسمية مكانا بارزا ثابتاً يطل منه بآرائه المختلفة على الناس ، حتى أصبح وجهه البولدوچي معروفا وصوته المتحشرج مألوفا . وصار في المرحلة الأخيرة ضيفا على كل البرامج في الصحافة والاذاعة والتليفزيون ، ابتداء من برامج المرأة والطفل وتنظيم الأسرة إلى البرامج المتخصصة في كل شيئ حتى في السياسة والاقتصاد والرياضة . وكان هذا كله مؤشرا واضحا لمن يفهم ويحلل بأن إشارة منحة الجائزة قد صدرت وأن ساعة إعلانها تقترب .

* * *

ما كاد يعلن عن فوز البرغوتي بالجائزة حتى أخذت أقلام كثيرة تعزف في إيقاع منتظم أناشيد التحية للكاتب الكبير ، وتشرح جوانب عبقريته الفذة . وتطرقت بعض الأقلام إلى البحث عن أساليب التكريم الواجبة لتتناسب مع مكانة الكاتب الرفيعة حتى يكون الفوز بالجائزة مجرد بداية وليس نهاية ، وهكذا تداولت أجهزة الاعلام الرسمية كثيرا من الاقتراحات التي أخذت تنهال عليها ، اقتراحات قدمها كتاب ونقاد ، وكتبها قراء عاديون ، أرادوا جميعا أن يشاركوا في المناسبة الجليلة ، ودار البحث في كل اتجاه ، بدءا من الامتيازات الشخصية التي يجب أن تمنح له حتى يستمتع بحياته ما تبقى من عمره ، وانتهاء بالاجراءات الضرورية لتعريف الأجيال الجديدة والعالم كله به . وفي غمرة النشوة الكبرى تقرر تدريس بعض كتاباته المختارة بعناية للطلاب في المدارس ، ونشر عدد من الدراسات المتخصصة عن أعماله ، وتأليف كتاب تعريفي به باللغات الأجنبية الأساسية كالإنجليزية والفرنسية والإسبانية ، وأصر عدد من

المتخصصين في اللغات الأخرى على أن تتضمن الخطة ترجمة هذا الكتاب إلى اللغات الأقل انتشارا كالإيطالية والصينية واليابانية ، وكونت اللجان بالفعل لبدء العمل ، سواء لوضع خطة الكتاب أو لترجمته أو للضغط على المسئولين من أجل نشره بأكبر عدد ممكن من اللغات . وتطرقت الاقتراحات أيضاً إلى ضرورة إقامة التماثيل المختلفة الأحجام له في المناطق ذات الصلة به ، في محلة الأتباع مسقط رأسه ، وفي كفر الشيخ عاصمة الإقليم الذي ولد فيه ، وفي شبين عاصمة الإقليم الذي ينتمي إليه جده الأعلى ، وفي ميدان الدقاق الذي يتفرع منه الشارع الذي يقيم فيه بالجيزة ، وفي القاعة التي شهدته وهو يلقى محاضراته في الجامعة . لقد كان فوز البرغوتي بالجائزة عرسا حقيقيا صدحت فيه أناشيد التقدير ، وعزفت اللغة من خلاله أجمل كلماتها .

* * *

في غمرة البهجة التي خلقتها المناسبة تسللت - كيف ؟ لا يدري أحد - كلمات حرصت على أن تبدو في ظاهرها كما لو كانت تشارك في الفرحة الكبرى ، لكنها سرعان ما أخذت تتضمن - على استحياء أولا - بعض العبارات التي أخذت تتشكك في جدوى الجائزة بعد أن توقف الرجل عن الكتابة الابداعية منذ أكثر من عشرين عاما ، فليس له أعمال ذات وزن لدى النقاد منذ ذلك الوقت ، وما كتبه قبل ذلك مجرد محاولات بدائية فجة يخجل صاحبها منها ، بل إن كمال البرغوتي - برغم كل ما يتسم به من جلد - لم يستطع أن يعيد نشرها ، لقد كانت هذه المقالات تعزف نغمة جديدة إذ تتساءل عن قيمة الرجل حتى يمنح الجائزة ، وكانت هذه النغمة صدمة للمشاركين في الفرحة الكبرى ، خصوصا أن عازفيها كانوا مجموعة من النكرات الذين لم يسمع بهم من قبل أحد ، ولكن ماهر الجندي - بحاسته التي عودته ألا تخطئ - لم يستبعد أن يكونوا من رواد حلقة الثرثرة التي تلتف حول فاروق السيد ، فإنهم دون غيرهم الذين لا يرضون بشئ ، ولا يعجبهم شئ « *إنهم من الشاغبين الذين يجيدون رفع الشعارات ، وهؤلاء لا يطيقون أن يروا عرسا مملوا بالسعادة دون أن*

يعكروا صفوه » ولكنه كان واثقا من أن التيار الكاسح المناصر للبرغوتي سيحقق انتصارا ساحقا في فترة قصيرة « *إن وراءه ثقل الرأي العام الذي تم شحنه بانتظام فترة طويلة ، وليس في وسع أحد أن يتصدى له ، ولا حتى أن يتجاهله . لقد مضى إلى غير رجعة الزمن الذي كان في مقدور فرد واحد أو بضعة أفراد أن يواجهوا مجتمعا كاملا ، وأن يحملوه بإصرارهم على تغيير سلوكه أو معتقداته ، لقد انتهى عصر المعجزات* » .

ولكن المعركة لم تنته سريعا كما توقع ماهر الجندي ، بل على العكس من ذلك ازداد ضرامها ، لقد استطاع هؤلاء النكرات بدأبهم وإصرارهم أن يحملوا أجهزة الإعلام الرسمية على أن تتخذ موقف الدفاع ، وما لبث أن تحولت المعركة شيئاً فشيئاً ، فلم يعد الرجل الذي فاز بالجائزة محور الخلاف وحده وإنما شاركه موضوع آخر لا يقل عنه أهمية وهو قرار الدولة بمنح الجائزة وواجب المثقفين تجاه هذا القرار . وهكذا لم يعد كافيا لتحذير هؤلاء أن يتحدث كتاب الأعمدة عن الجهلة الحاقدين ، ولا أن يهاجم رؤساء التحرير في مقالاتهم الافتتاحية الفئة الضالة ، ولم تردعهم المؤشرات السياسية البالغة الأهمية ، بل على العكس ازدادوا لغوا حين أخذت الصحف تنشر بانتظام الأخبار المتنوعة الدالة على إعجاب القيادة السياسية بالبرغوتي ، ولم يردعهم ما قررته القيادة من إقامة حفل تاريخي ضخم لتسليمه الجائزة ، بل أمعنوا في غيهم حتى ان بعضهم علق على ذلك ساخرا :

– أقترح أن يكون الحفل في ستاد القاهرة .

ولم يفهم كثير من الناس الاقتراح ، ولكن ماهر الجندي غمره الفزع فور سماعه له ، فقد أيقن أن المسألة قد تجاوزت كل مدى معقول ، فإن الاقتراح تعريض وقح بثقافة قائد يتميز بقدرته الفذة على أن ينفق معظم وقته في اللعب دون أن يفهم شيئاً من أساسيات الألعاب التي يراها أو يمارسها ، ولذلك حين تلقى دعوة السيدة / أميمة سعد

السكرتير الخاص ومدير مكتب الوزير للاتصالات السياسية لحضور اجتماع في الوزارة كان مهيأ نفسياً للمشاركة بإيجابية فيه ، بالرغم من أنه لم يرد في بطاقة الدعوة الرقيقة ما يشير إلى موضوعه . لقد كانت كل القرائن تشير إلى أن موضوعه الأساسي - إن لم يكن الوحيد - ما كشف عنه منح الجائزة للبرغوتي من وجود قطاع غير مستأنس بين المثقفين .

✍ ✍ ✍

-٢-

تلقى الدكتور شوقي فخري الأنباء الأولية التي شاعت في الجامعة باحتمال فوز الدكتور البرغوتي بجائزة الدولة التقديرية بإحساس متبلد ، أقرب إلى اللامبالاة منه إلى الاهتمام ، ولعله كان أدنى إلى السخرية منه إلى التصديق ، فقد كان يعرف البرغوتي بدقة ، ويعلم بحكم خبرته المباشرة به ومعايشته الطويلة له في قسم واحد قدراته الحقيقية ، وكان ميالا إلى أن البرغوتي يمارس اللعبة التي يلجأ إليها منذ أعوام ، حين يقترب موعد اختيار الفائز بجائزة الدولة ، إذ يشيع أصدقاؤه في الأجهزة التي يتعامل معها مثل هذه الأخبار عملا على رفع أسهمه وتذكيرا للمسئولين به ، وقد أثبتت السنوات السابقة فشل هذا الأسلوب . وهكذا كان الدكتور شوقي أقرب إلى اليقين بأن اللعبة لن تسفر هذا العام عن جديد ، وأن البرغوتي سيتلقى عاجلا هزيمة جديدة ليعود عقبها إلى مواصلة محاولاته لدى كل الجهات لترشيحه للجائزة ، ثم لاختياره لها ، متبعا أسلوبه الخاص في التزلف إلى كل من بيدهم الأمور في الترشيح وفي الاختيار بدءا من زملائه في القسم والكلية وانتهاء بالموظفين الكبار في الأجهزة المعنية في الثقافة والإعلام والداخلية ، جاهلا أو متجاهلا أن معظم هؤلاء ليسوا أكثر من أدوات تصدع بما تؤمر . وهكذا لم يتابع الدكتور شوقي الأخبار ، ولم يُعْنَ حتى بمعرفة موعد إعلان النتيجة . وساعد على ذلك أنه كان مشغولا بصورة غير عادية بصحة زوجته النفسية التي أصابها

الاكتئاب بعد هجرة ابنهما إلى إستراليا ، لقد كانت شريكة العمر ورفيقة النضال القديم تجتاز مرحلة شديدة الحساسية ، فقد استسلمت للاحساس بالاغتراب ، وأسلمها ذلك إلى شعور بالخوف ، ففقدت قدرتها على التوازن ، وأخذت تقضي ساعات طويلة في صمت مطبق ، فسره الدكتور شوقي أول الأمر على أنه صمت الرفض ، ولكنه لاحظ بعد تأمل أنه نوع من الذهول اليائس ، وحين عرضها على الطبيب كانت قد وصلت إلى مرحلة حرجة أوقعتها في مخاطر حقيقية ، بدأت بنسيان الطعام على النار حتى يحترق وحضور الجيران لإنقاذ الموقف ونسيان إغلاق الشقة مرات وانتهت بنسيان أسماء الجيران والأصدقاء ، وهكذا وجدت الزوجة نفسها تقرر تلقائياً عدم مغادرة المنزل ، ثم أخذت تلازم غرفتها شيئاً فشيئاً لاتغادرها إلا للضرورة ، وقد تحمل الدكتور شوقي من أجلها عبئا نفسيا ثقيلا ، زاده قسوة أول الأمر قلقه على « بشرى » الزهرة الجميلة الوحيدة الباقية لهما وخوفه من أن تجرفها مشاعر أمها فتسبح في تيارها ، ولذلك كان حريصا على تشجيعها على الانعزال عن المشكلات بالاندماج في حياتها الجامعية بعد أن عينت معيدة في قسم التاريخ ، فلما أحس بصمودها إزاء هذه المشكلات باستغراقها في عملها وعلاقاتها لم يتوقف قلقه ، بل لعله زاد ، وأخذ يتساءل بينه وبين نفسه : كيف لها وهي الحساسة كطفل ، الشفافة كالنسيم ، أن تنفصل عما يحدث في البيت ؟ هل موقفها يصدر عن الجهل به أو الرفض له أو الاستعلاء عليه ؟ .

انفتح باب الصومعة – كما يحلو لبشرى أن تسمى البلكونة الصغيرة التي تم عزلها عن الخارج بسياج من الألومنيوم والزجاج لتصبح مكتبا لوالدها – وأطلت العينان الجميلتان الباسمتان وقالت بشرى بصوتها الرقيق كزقزقة عصفور بعد أن القت تحية المساء ، في دهشة حقيقية :

– عرفت ؟ .

نظر إليها مستفسرا فأضافت بعجلة :

– الدكتور البرغوتي أخذ الجائزة ! .

ارتدت نظرته مسحة إشفاق : « *ها هي ذي تشغل نفسها برغم الظروف بشائعات كاذبة ، اطمئني يا فتاتي ، صحيح أن الثقافة قد سقطت في وحل الخيانة والتبعية ، ولكنها لم تغرق بعد في مستنقع الخنا* » .

تمتم بهدوء الواثق :

- إنه حكم العادة ، لا جديد في الأمر .

هل أحست أنه لم يفهم الموقف حين أضافت مؤكدة :

- لقد أعلنوا الخبر منذ قليل .

نظر إليها واجما : « *يا بنيتي لا تصدقي كل ما تسمعين ، لم يجرؤ أحد بعد على أن يجعل العهر شعارا رسميا* » تساءل بقلق :

- من الذي أعلن الخبر .

فردت بعجلة :

- لم يقل لي أحمد .

« *إنه أحمد* » داهمه غيظ مركب وإن خالطه قدر من الرضا ، « *لابد أن يكون الخبر كاذبا* » .

فعقب باستخفاف :

- إنه يكذب .

مسها شيء كالغضب فجاهدت نفسها حتى لا ينعكس في صوتها وهي ترد :

- إنني أعرفه جيدا ، وهو لا يكذب أبدا .

وأغلقت الباب ، تفجر في القلب نبع سخط فتمتم بصوت غير مسموع :

- هكذا إذن .

« لا تنفعل وحاول أن تهدأ لتعرف ، إنك لست غرا حتى تصدّق هذا السخف ، لا توجد قوة في الدنيا قادرة على أن تجعل من هذا المسخ المشوه عقلا وقلبا وسلوكا أدبيا فضلا عن أن تجعله قمة أدباء العصر » .

ظل طوال المساء يتابع على كره نشرات الاخبار في الراديو الصغير عسى أن يتأكد ، ولكن الخبر المعنى لم يذع ، كان ينتظر الموجز بقلب واجف ، فإذا انتهى وشرع المذيع في التفاصيل أحس ببعض الراحة ، لكنه – مع ذلك – يظل يصبر حتى نهاية النشرات آملا ألا يساق الخبر ضمن الأخبار التافهة المحشوة في ثناياها ، وكم أدركه السأم وهو يستمع إلى النشرات المختلفة في المحطات المتعددة بذات العبارات الفضفاضة متبعة ذات الترتيب الغبي الذي يسوقها حسب أهمية المشاركين فيها مهملا تماما قيمتها في ذاتها ، ومع مضي الوقت وتتابع النشرات أيقن أن الخبر مكذوب ، وأن أحمد إن لم يكن قد كذب بالفعل فإنه وقع ضحية لسوء الفهم ، وهمّ أن ينادي بشرى ليلومها ، وليصب في أذنيها من جديد آراءه القاسية في مصدر معلوماتها ، أليس مسئولا عن الذي حدث ؟ لولا أن دق جرس التليفون ورفع السماعة ليجد صوت د. شكري توفيق أقرب تلاميذه إليه يؤكد له – بصوت النَّعِيّ – الخبر .

« الظروف تلعب لعبتها من جديد وتحكم طوقها القاسي على عنقك ، ليس البرغوتي مجرد زميل آفاق ولكنه النقيض السلوكي لك ، إنك واضح التفكيرَ متسق المواقف سوى العلاقات ، فضلا عن ثقافتك التي يشهد بها لك أعداؤك قبل أصدقائك ، أما هو فليس فقط التجسيد الحي للجهل والادعاء ، ولكنه تكوين هلامي لا يستطيع أحد

أن يفهم له موقفا أو يعرف له رأيا أو يحدد له مبدأ ... القذارة لا تلد إلا العفن ، صار العهر علما مرفوعا ونشيدا مسموعا وهتافا تردده الحناجر ، ما كنت تتخيل حتى في أسوأ كوابيسك أن يحدث ذلك ، ربما لأنك كنت تحسن الظن ببقايا إنسانية في عهد وُئدت فيه كل قيمة إنسانية ، أيها العالم أفق ، لم يعد ثمة بشر يحسون بدنس ما هم فيه » بزغت في الذاكرة فجأة ذكريات كان قد حفر في أعمق أعماقه قبورها ، وأحكم عليها رتاجها ، ها هي ذي في لحظات تزيح عنها ترابها وتتجسد ماثلة كأنها اللحظة : ليالي الكلاب في معتقل الواحات ، وجبات الجلد الكهربية اليومية في معتقل القلعة ، تجارب البسترة البشرية في بدروم الجهاز الخاص . « إنها خطيئتك ، صمدت ولكنك صمت ، وها أنت ذا تحصد الريح ، فمن صمت من أجلهم ينكرونك ، يهاجر الولد قاطعا كل صلة بك ، وتقع البنت أسيرة إعجاب بمسلم متعصب ، آه لو أنك تكلمت ، آه لو أنك تستطيع أن تتكلم » .

✍ ✍ ✍

-٣-

تلقت بشرى كلمات أبيها بوجوم ساخط ، وعادت إلى حجرتها شديدة الغضب ، لقد استفزتها العبارات التي سمعتها عن أحمد ، وألمها أكثر من أي شئ ما وراء الكلمات من مشاعر معادية « *إنه ما زال عند موقفه منه* » إن مشاعره هذه غير مفهومة وغير مبررة ، فأبوها رجل عقلاني ، على يديه تعلمت منطق التفكير العلمي ، ومن خلاله تدربت على أن يكون رأيها وليد تحليل علمي صارم ، وليس موقفا أهوج يصدر عن قصور ذهني ، أو رد فعل انطباعي ، أو مجرد محاكاة زائفة لموجة أو لتيار ، لقد غرس فيها إيمانا لا يتزعزع بالشجاعة في الفكر والسلوك ، تقول وتفعل ما تقتنع به دون خشية من أحد ، أو رعاية لتقاليد سخيفة لا تفرضها إلا علاقات طبقية زائلة بالضرورة « *الإنسان يا بنيتي بطبيعته متغير ، والطبيعة بدورها متغيرة ، فكيف يخضع الإنسان أسيرا لما يناقض وجوده كله* » إنها تحترم أباها ، وتقدر تاريخه الطويل ، وتفهم ما وراء مواقفه من مؤثرات في أمور كثيرة ، ولكنها تعجز تماما عن فهم موقفه من أحمد ، إذ لا تكاد تمر مناسبة يرد فيها ذكره حتى يبادر إلى تنقيصه والحط من قدراته . لماذا ؟ ألأن أحمد مسلم ، لقد كان أبوها هو الذي علمها أن الدين مسألة ثانوية الأهمية وأن عليها أن تضع في الاعتبار النمط الفكري والسلوكي وليس القيم الغيبية ، وهاهي ذي تفعل ، إنها تعادي أنماطا من السلوك ليس فيه شئ منها ،

وتحترم أشكالا من العلاقات الواضحة والصريحة وأحمد يتسم بها ويحرص عليها ، فكيف لأبيها أن يتخذ هذا الموقف المناقض لكل ما يدعو إليه ويضحي من أجله .

بقدر ما أحست من ضيق بقدر ما اشتعلت رغبتها في أن تتأكد ، انتابتها لحظات الرغبة في أن يكون الخبر صحيحا برغم كراهيتها للبرغوتي ، لقد كانت صحة الخبر دليلا جديدا على صدق فهمها لأحمد ودقة حكمها عليه ، وفي لحظات أخر تمنت أن يكون الخبر غير صحيح ، فقد كان فوز البرغوتي بالجائزة يمس قيما كثيرة عندها ، وعند كثيرين من أساتذتها وزملائها ، إن معناه الواضح أن النجاح في هذا الوطن ليس له إلا طريق واحد هو السقوط ، طريق عنوانه الفساد والانحلال ، بكل ما يعبران عنه من نفاق وكذب وتزييف وقسوة ، صحيح أنها جميعا أعراض مرض السقوط في براثن التطلع الطبقي لكن البرغوتي تجاوز حتى هذه المرحلة إلى مدى غير إنساني . استحضرت عشرات الأحداث والوقائع التي تعرفها ، والتي تواترت على تأكيدها كافة العناصر من جميع الاتجاهات ، وتخللتها رعدة القشعريرة أكثر من مرة وهي تتذكر ما روته عنه بعض زميلاتها ، صحيح أن الجائزة أدبية لا أخلاقية ، لكن أحدا ممن تعرف من المتخصصين في الأدب والنقد لا يذكر له عملا أدبيا واحدا ، ربما كان قد كتب شيئا ما في مرحلة مبكرة من حياته ، لكنه الآن ليس سوى محاور ذكي ، ومحدّث فكه ، يذكر أساتذتها في التاريخ أنه النموذج المعاصر للنديم القديم ، الذي كان يغشي بلاط السلاطين في العصور السالفة ليروّح عنهم ، ومقياس نجاحه في رؤية البهجة تغمر أسارير أسياده وسماع ضحكاتهم الصاخبة تجلجل في الآذان وتردد صداها الجدران ، « *بفوز البرغوتي بالجائزة يصبح النديم رمزا للعصر ، يغوص الوطن من جديد في مستنقع الماضي بكل فساده واستبداده ويثبت المناضلون من أجل التقدم مرة أخرى فشلهم في المواجهة ، لا .... لابد أن يكون الخبر غير صحيح* » .

أمسكت بالتليفون وطلبت أحمد ، سألته بمجرد سماع صوته :

- أنت متأكد من الخبر .

فرد بصوت تعرف الثقة في نبراته :

– بالطبع .

بادرت وقد ضايقها التأكيد .

– لكن الخبر لم يذع حتى الآن .

أجاب مفسرا :

– سيذاع قطعا ، المسألة أن الثقافة عندهم لا أهمية لها .

تمتمت في أسى :

– أمر مؤسف .

فعقب بغضب :

– بل هو كارثة . إنه أمر خارج نطاق العقل ، وبالرغم من ذلك وجدوا الشجاعة ليجعلوه واقعا .

صمتت وصمت ، وران الصمت لحظات حتى خيل إليها أنها تسمع زفرة سخطه ، ظنت أن الموضوع قد انتهى في اللحظة التي قال فيها :

– ما حدث يجب ألا يمر دون مقاومة ، إن منحه الجائزة ليس صدفة . لقد أرادوا أن يجعلوه رمزا ، فليكن ... سيكون رمزا لكل ما هو سيئ في حياتنا ، ويجب أن تقاومه كل القوى المخلصة المؤمنة بقيم الحق في بلدنا .

عقبت والحيرة تملؤها :

– كيف ؟ ماذا تملك أن نفعل ؟ .

رد بتلقائية :

– هذا هو السؤال ، وعلينا أن نفكر فيه .

« هكذا أنت يا أحمد ، تلقي بأسئلتك الصعبة لتحيل ليلى كله إلى عناء ، لو سألتك الآن مرة أخرى لقلت كلماتك المأثورة : (ليس لدي إجابة جاهزة ولكن دعينا نفكر) ما أنا ذا أفكر ومع ذلك لا أجد في

الرأس إلا طنين الغضب . الغضب مما يحدث والغضب من العجز تجاه ما يحدث . الغضب من سطوة السلطة الداعرة إذ تسفر عن وجهها القبيح والغضب من فقدان القدرة على مواجهتها . ماذا يملك مثلنا أن يفعل ؟ » .

- نلتقي غدا .

- إن شاء الله .

* * *

حين التقت عيناها بعيني أبيها في الصباح وهي تقدم لأمها صندوتش الجبن المعتاد إلى جوار كوب الشاي لم تكن في حاجة إلى أن تقول له شيئا . فقد كان واضحا أنه أمضى ليلته مسهدا . فالهالات السوداء تحيط بعينيه اللتين ازدادت جفونهما انتفاخا . واختلاجات واضحة تنتاب فكه الأسفل فيضغط بقوة على أسنانه حتى يحدث لاصطكاكها صوت مسموع . وأصابعه المرتعشة تعالج ربط الكرافت أكثر من مرة . وفي المرة الأخيرة يطوح بها بعيدا مقرراً عدم ارتدائها . وأخيرا ها هو ذا يفاجئها :

- يمكنك أن تأخذي السيارة . لن أذهب إلى الكلية اليوم .

غادرت المنزل ممزقة النفس . فقد كانت صورة أبيها تلح عليها بكل ما تعكسه من أسى وانكسار . فاض قلبها حزنا وشرقت بدموع لم تسكبها العين . تذكرت أخاها الذي هاجر فأمضّها الحنين . وخايلها وجهه وحركاته وحدّته وسخطه . وامتلأت أذنها بصوته وكلماته التي كانت تسلقه من أجلها بألسنة حداد « *هل صحيح أنه لا فائدة ؟ هل من الممكن أن يكون هناك أمل في وطن يصبح السقوط فيه هو الطريق الوحيد إلى النجاح* » ؟ . لعنت الأيام التي تغرس في النفس نصل الهزيمة . وامتلأ فمها بالمرارة حتى أوشكت أن تقيئ . ولكنها ما كادت تغادر سيارتها على باب الكلية حتى تسلل إليها شيئ من الراحة . إنها على يقين من أن ثمة من يشاركها أفكارها . وهي معه على موعد .

ما كادت تقابل أحمد على السلم ، في طريقه إلى المكتبة حيث مكانهما المفضل حتى قالت بعجلة :

- السؤال سهل ، لكن الإجابة عنه صعبة : ماذا نستطيع أن نفعل ؟ .

رد بهدوء وهو يسير إلى جوارها :

- هناك سؤال تمهيدي لابد منه .

توقفت ونظرت إليه فأضاف :

- هل لدينا الإرادة على المقاومة أم فقدناها ؟ .

قالت مؤكدة :

- الإرادة موجودة بالقطع ، المشكلة في الوسائل .

قال بثقة :

- إذا كانت لدينا الإرادة ، فيجب أن نبتكر الوسائل اللازمة لتنفيذها .

- مثل ؟ .

- لا تتعجلي الأمور ، فلنبدأ البحث بسؤال : ما الهدف الذي أرادوه بمنح الجائزة للبرغوتي ؟ .

- هل لديك إجابة ؟ .

- لدي احتمالات نناقشها معا . أولا أن يكون منحه الجائزة تقديرا لإنتاجه الأدبي .

ردت مستنكرة :

- أنت تعلم أنه ليس له إنتاج أدبي معروف .

- ثانيا أن يكون منحه الجائزة تقديرا لسلوكه الأخلاقي .

ابتسمت وكأنما سمعت نكتة فظة ، وقالت :

- هذا تهريج طبعا ، فأنت تعرف الكثير مما أعرف .

أضاف مستدركا وهو يبتسم :

- وأعرف الكثير مما لا تعرفين .

أكملت ضاحكة :

- إذن ؟

فاستمر وقد عاد الجد إلى ملامحه :

- لم يبق إلا أن تكون الجائزة تقديرا لموقفه تجاه السلطة .

أضافت مفسرة :

- أي أن الجائزة هي البدرة الذهبية في بلاط السلطان .

أكمل وهو يضغط على الكلمات :

- إنها مكافأة ، هذا صحيح ، ولكنها تتجاوز التقدير الشخصي لتلعب دوراً مخزيا أشد فسادا من دور البدرة الذهبية للنديم .

قاطعته بقلق :

- لست أفهم ..

استمر وكأنه لم يسمع اعتراضها :

- إنها محاولة لإغراء كل الكتاب والجامعيين ، فمنح الجائزة لشخصية صغيرة على هذا النحو يعني أنها قد أصبحت قريبة المنال ، وأنه ليس أحد الآن بعيدا عنها ، كل من أمسك بالقلم مهما كانت قدراته محدودة يمكنه أن يتطلع إليها ، لم تعد قمة شامخة بل صارت دانية في متناول أي يد ، إنهم يقولون لكل الكتاب والجامعيين : كل منكم أهل الجائزة وعليه فقط أن يدفع الثمن ليحصل عليها .

- والصمت طبعا هو الثمن المطلوب .

- كلا ... لقد تجاوزوا هذه المرحلة ، لم يعد الصمت وحده يكفي .
- ماذا يريدون إذن ؟ .
- المنافسة في السقوط ، في التبعية الكاملة لأعداء الشعب والأمة .
- كيف تكون المقاومة ؟ ما زال السؤال بلا إجابة .
- بداية الإجابة واضحة ما دامت الأهداف قد تحددت ، الخطوة الأولى أن تكون الجائزة فضيحة ، وأن يكون الحصول عليها عارا ، أن تصبح رمزا للخيانة وعلما على السقوط .
- كيف ؟ .
- بكتابة المقالات والدراسات عن أديب هذا العام ، بعقد الندوات والمناظرات وإلقاء المحاضرات ، بالتفتيش في كل صغيرة وكبيرة في حياته وفكره ومؤلفاته ، بإعادة عرض مواقفه المخجلة وتاريخه القذر ، بأن يوضع في موقف يخجل فيه من اسمه ويتمنى فيه أن لو كانت أمه لم تلده .
- فلنبدأ إذن .
- سأعرفك أولا على بعض الأصدقاء لنحدد معا خطوات العمل .

- ٤ -

حين استيقظت أميمة في الصباح أحست بشيئ من الإجهاد غير العادي ، حتى أنها لما شرعت في أداء تمريناتها الرياضية بحكم العادة وحدها نسيت عدد مرات الضغط التي لعبتها ، فتوقفت لحظات ثم قررت العدول عنها . وأخذت في إعداد فطورها اليومي ولكنها لم تتناول منه إلا عصير الجريب فورت ، تاركة شريحة التوست بعد أن غطتها بالزبد والمربى . لقد كانت الأفكار التي ألحت عليها قبل أن تنام تباشر من جديد تأثيرها ، وكان التوتر الذي صحبها يزداد ، فاليوم هو الموعد المحدد للقاء الافتتاحي في العملية الجديدة ، وأميمة بحكم رغبتها في تحقيق أفضل النتائج لعملها مع الجهاز الخاص تحس مع بدء كل عملية جديدة بتوتر ، ولكن توترها هذه المرة يتصاعد حتى يصبح نوعا من القلق ، إن العملية هذه المرة ليست مع خبراء أجانب كما اعتادت في عملياتها السابقة مع الجهاز الخاص ، ولكنها تضم في الأساس صحفيا بارزا ، تقرأ اسمه في الملحق الأسبوعي للصحيفة اليومية الكبرى ، وتعرف من حجم الحروف المكتوب بها ومكانه على رأس الصفحة أنه لابد أن يكون شخصا مهما ، تنهدت وهي تفكر في الثوب الذي يحسن أن ترتديه اليوم ، وتمتمت بضيق وقد أحست بالحيرة : « *التعامل*

مع الأجانب أفضل ، إنه على الأقل يعفيها من حرج كثير حيث تتجاوز تصرفاتها ما هو معروف في المرأة الشرقية ، إذ كانت تستطيع أن تتجاهل تفسير ما تقول أو تفعل ، كما كانت تملك أن تفسره حينا بالتقاليد الشرقية التي يفترض أن أحداً ممن تتعامل معهم لا يعرفها ، وحينا آخر بتربيتها المتحضرة في الساكركير أو في الجامعة الأمريكية حسب الظروف ، وحينا ثالثا بالصراع الطبيعي بين التقاليد الموروثة والمعاصرة . وما كان في وسع أحد أن يلمح أي لمحة ادعاء ، أو يرى ظلا لأيام العذاب في مساكن الإيواء ، أو يحس بلمسة واحدة من فترات الاحتراف المتقطع غير المنتظم قبل أن يلتقطها ويوجهها الجهاز الخاص . لكن التعامل مع صحفي مصري أمر مختلف ، إنه – مهما كانت جذوره ونشأته وابتعاده عن الطبقات الشعبية – قادر بحكم خبرته على أن يفهم ويحس ويدرك ، فكيف تتصرف ، هل تتحفظ أم تكون على طبيعتها ؟ هل تنتظر خطوته أم تبادر باتخاذ الخطوة الأولى ؟ ماذا لو لم يفعل والأوامر عندها واضحة ؟ يجب أن تكون على علم كامل بكل شيئ عنه . جلست على حافة الفراش وتناولت الورقة الصغيرة المطوية بعناية التي دونت بها بعض المعلومات الشخصية عنه ، وأعادت قراءتها ربما للمرة العاشرة ، كانت تتضمن نقاطا عديدة عن آرائه وميوله وعاداته لم تحس بأنها أفادت منها شيئاً فتوقفت وتمتمت بغيظ :

– كلام فارغ .

ثم عادت مرة أخرى لتأمل السطور الأخيرة التي وضع تحتها خط أحمر لتأكيد أهميتها :

« يساري قديم ، متعاون لكنه ما زال معاديا لأمريكا ، لا يحب الأوامر المباشرة ، متحرر جنسيا » .

زفرت زفرة حرّى ، فالعبارة الأخيرة التي تصف سلوكه الجنسي غامضة لا

تستطيع أن تفهم منها شيئا . إذ كان يجب أن تتضمن إشارات واضحة تساعدها في التعرف إلى ميوله وذوقه الخاص ، من يفضل : المرأة المتحررة أو المحافظة ؟ الشقراء أو السمراء ؟ المتحدثة أو التي تجيد الاستماع ؟ ماذا يؤثر : العيون الزرق أو السود ؟ كيف يستجيب : بالصوت أو بالحركة ؟ وبعد ذلك وأهم منه : ما عناصر الصورة الشخصية التي يجب أن ترسمها لنفسها حتى لا تكون متناقضة ، أهي زوجة أو مطلقة أو أرملة ، هل هو من النوع الذي تغريه الزوجات أو يخاف عواقب العلاقة معهن ؟ أين زوجها إذن ؟ أهي مهجورة أو هاجر زوجها من أجلها ؟ أهي أمّ أم أنها لن تكون أبدا بعد أن حرمتها الطبيعة ؟ أين أهلها ؟ أين ولدت ؟ أين نشأت ؟ أين تعلمت ؟ كيف توصلت إلى موقعها المتميز في الوزارة ؟ من أين لها ما هي فيه ؟ جلست أمام المرآة تضع بأناة مكياجها وقد استبدت بها الحيرة ، حتى انها وضعت كريم الأساس المسائي بدلا من الصباحي . إنها كلما أمعنت في التفكير لم تصل إلى شيئ محدد ، فالأسئلة لا تلد في رأسها إلا أسئلة حتى ضاقت بكل ما فكرت فيه ، وقالت باستسلام وهي تنظر إلى صورتها في المرآة بعد أن انتهت من زينتها :

– لا تقلقي فلن يكون سوى رجل .

- ٥ -

شاركت العينان المظللتان بألوان الطيف الشفتين الرقيقتين القرمزيتين المحددتين بدقة باهرة في رسم ابتسامة ساحرة أصابت ماهر الجندي بالدهشة ، فتلجلج صوته وألقى - مرتبكا - تحية لم تتضح حروفها . دغدغ أنفه رائحة عطر ناعم في اللحظة التي تسللت فيها إلى أذنيه غمغمة ترحيب حفي بدت برغم كونها أقرب إلى وسوسة الهمس صاخبة . هل لاحظ في غمرة انفعاله اتساق الإيقاعات الصوتية وتناغمها مع هزة خصلة الشعر الراقصة ورقة الصدر النافر ؟ هل أصابته مفاجأة أخرى وهو يمد يده ليسلم على السيدة التي يطلق عليها في ديوان الوزارة باعتزاز حينا وبسخرية خفية أحيانا وبغيظ دائما لقب « *السيدة الأولى* » فظل قابضا دون أن يشعر على يدها ؟ ربما ليتأكد من أنها يد حقيقية من لحم ودم ، إذ كيف يمكن أن تكون يد امرأة على هذا القدر من الجمال ؟ كيف تصل أصابع بشرية إلى هذه الدرجة من الدقة والرقة والليونة والنعومة والرهافة ؟ أي جهد تحتاجه رعاية مثل هذه الأصابع حتى تصبح على ما هي عليه من فتنة الشكل والحجم واللون والملمس ؟ أي وقت تستنفده العناية بهذه الأظافر حتى تصير هكذا تحفة فنية في أطوالها وانحناءاتها واتساقها تكوينا ولونا ؟ كيف يمكن ليد بشرية حقيقية أن تبز في روعتها سحر ساعد الجيوكندا وبورتريهات جوجان وفان جوخ ورينوار ومنمنمات الحسين فوزي واستكشات يوسف فرنسيس ؟ هل آلمها من غير

أن يحس فاضطرت أن تسحب يدها برفق وإن شفعت حركتها بلفتة آسرة إذ ضمت شفتيها معا لتنوب فوقهما غمغمة بلبل صداح وهي تشير برأسها إلى مقعد مجاور للمكتب الفاخر :

- دقائق ويستقبلكم معالي الباشا .

هل أرادت أن تخفف من توتره أو من توترها بعد أن لمست في نظرته دهشة وأحست في برودة أصابعه بانفعال أم أرادت أن تتأمله وأن تتيح له الفرصة ليتأملها حين أضافت مستفسرة وهي تمد يدها لتدق الجرس ؟ .

- ليمونا ؟ .

هز ماهر الجندي رأسه شاكرا وهو يجلس مسندا كوعه إلى مقعد الأوبيسون الكحلي الذي يحمل رسم مشهد من مشاهد أسطورة روميو وجولييت ، واضعا ساقا على ساق ، مسندا قبضته إلى ذقنه شأنه حين يشرع في التفكير ، محاولا أن يستوعب بدقة ما يرى : الستائر المخملية الفاخرة التي تضافر على تقديمها بصورتها الباهرة أيد فرنسية وإيطالية وصينية ومصرية ، النسخ الأصلية لأعمال فنية جنبا إلى جنب مع نسخ مقلدة بدقة بالحجم الطبيعي لأعمال أخرى بحيث لا يستطيع الناظر العادي غير المتمرس أن يفرق بين الأصيل والزائف منها ، المنضدة الأرابيسك المطعمة بالصدف التي توسطت الحجرة حاملة تمثال العاج الأفريقي وقد بدت متنافرة مع كل ما حولها ، وأخيرا السيدة التي يراها عن قرب المرة الأولى : « *هذه إذن هي السيدة الأولى التي يتنافس الجميع هنا على نيل رضاها ويجاهد لاكتساب ثقتها . هذه إذن هي المفتاح الحقيقي لكل الأقفال الظاهرة والخفية بما في ذلك القفل الكبير الرابض في المكتب المجاور ، لقد أحسن الاختيار برغم كل ما يشاع عنه* » .

ألقت عليه نظرة عجلى وهو يهم بالجلوس ، ثم عاودت النظر إليه متأملة وهي تتظاهر بالاستغراق في ملف أمامها ، كانت المرة الأولى التي تشاهده فيها قريبا على

هذا النحو ، في المرات السابقة التي رأته فيها كانت في الحفلات الرسمية التي تقيمها الوزارة في المناسبات المختلفة ، ولم تكن الظروف تسمح لها بالاقتراب منه ، لاحظت بإعجاب العينين العسليتين الواسعتين اللتين تصدران وميضا تمتزج فيه الدهشة بالثقة ، تمسحت نظراتها بالأنف الأقني الدقيق الذي تتجمع فيه محاسن الوجه كله ومنه تمتد ، خداه اللذان يسطع فيهما ضوء خفي وقد أشربا بحمرة خفيفة ، شفتيه الداكنتين يحدهما شاربه الأصفر المنمق ولحيته الصغيرة وقد نسقا معا بحيث يلتقيان في استدارة تصنع إطارا آسرا ، واسترخي بصرها مبهورا فوق قبضة فولاذية يعلوها ساعد فذ ، كأنها قبضة تمثال موسى ركبت على ساعد تمثال رمسيس ، جال بخاطرها وهي تقلب - دون وعي - صفحات ملف أمامها : « *هذا هو جمال الرجولة حقا* » ، ولكن سرعان ما أدركها خاطر أزعجها فأضافت دون أن تتحرك شفتاها :

« *ليتك لا تحلو في عينيه* » .

أضاء نور متقطع أمامها فتحركت بسلاسة طائر يستعرض رشاقته قائلة :

- تفضل ماهر بك .

وسبقته بخطوتين رشيقتين كراقصة باليه تعرض رقصتها الافتتاحية لتفتح له الباب الجانبي ثم لتتنحى جانبا ، مر بها وهو يعبر الباب المفضي إلى المكتب وقد أوشك عضده - لضيق المسافة - أن يمس صدرها ، فداهمها لحظة خاطفة طيف خيال غامض لم تتحدد له ملامح ، وأدركه في نفس اللحظة شعور بالتوتر أسلمه إلى دهشه المفاجأة وهو يجد نفسه في مواجهة الجالس متكئا خلف المكتب وقد أتاه صوته المتميز مرحبًا قبل أن ينهض غير متثاقل :

- أهلا كاتبنا الكبير .

فغمغم وما زالت تغمره الدهشة مصحوبة بقلق ، فلم يكن يتوقع لقاء منفردا :

- أهلا معالي الباشا .

فرد بسماحة :

- ناديني باسمي ، فلكم أحب أن نكون أصدقاء .

بدت الكلمات مجاملة غير متوقعة ، وقبل أن يترك له معاليه فرصة للرد أضاف مبتسما :

- إنني أحد قرائك الدائمين ، فضلا عن أنك مصدر مهم من مصادر ثقافتي .

وغادر مكتبه ليقود ضيفه إلى كرسي مجاور .

جلسا كضلعي مثلث لا يفصل بينهما غير منضدة صغيرة تحمل إناء من الزهور الفاتنة الشكل لكنها تخلو من الرائحة . كانت ركبتاهما متجاورتين إلى درجة لو أن أحدهما تحرك حركة غير محسوبة لاحتك بالآخر . ولم تكن المرة الأولى التي يفعل الوزير فيها ذلك . لقد كان حريصا في حالات بعينها على أن يبدو لضيوفه من الشباب بخاصة متواضعا ، وكان كثيرا ما يتلطف معهم ، هل يعود ذلك إلى رغبته في تبديد الصورة التي رسمها له بعض اليساريين الحاقدين من أنه بورجوازي متعال ، أم يعود إلى محاولته الرد علي بعض الكتاب التراثيين الذين اتهموه بالجهل الفكري والسطحية اللذين يخفيهما تحت رداء من الغطرسة الفجة .

بدأ الحديث الودود وماهر لم يخترق حاجز التوتر ، ولذلك شابت تفكيره سحابة انتظار قلق ، فلم يكن في درجة الصفاء الذهني الذي يتمتع به عادة ، والذي يستطيع فيه أن يلتقط الإشارات البعيدة ، وأن يحسن الرد عليها بعبارات مفعمة بالاحتمالات إلى أن تتحدد أمامه اتجاهات الريح . ولكن كلمات الباشا الرقيقة ولسانه المجاملة قادتاه بأمان خلال رحلة الانتظار فإذا هما في ختام اللقاء صديقان . وحين دخلت السكرتيرة الخاصة استجابة لطلب الباشا لإحضار ملف الجائزة ووجدتهما يغرقان في الضحك ووزيرها يربت بموده من غير تكلف على فخذ ماهر الجندي أحست بضيق جهدت ألا يتجلى في قسمات وجهها وإن مس نظراتها ، فلقد كان واضحا أمامها أن اللقاء مجرد بداية على طريق تعرفه ، وتلقت أذناها وهي تنصرف صوت وزيرها الذي لا تخطئ في لمس نغمة البهجة فيه :

- أترك لك الملف كاملا للدراسة ، وأنتظر اتصالا منك في أقرب وقت .

وحين شرعت لغلق الباب أنتها ضحكته المتميزة حين قال والبهجة تغلف كلماته :

- لـك أن تتصل بي في أي وقت ، حتى في المنزل . فأنا كما تعلم متفرغ للعمل العام .

- إنه ليشرفني ذلك معالي الباشا .

- سأكون في غاية السعادة حين نتعامل كأصدقاء حقيقيين .

وخرج ماهر من الباب الرئيسي للمكتب مختلط المشاعر ، ومضى في البهو الفسيح خطوات ثم توقف لحظات ، وعاد أدراجه متجها إلى مكتبها ، ووقف بالباب نصف المفتوح صامتا متأملاً ، كانت تمسك بجهاز التليفون بيسراها وأصابع يمناها تداعب الخصلة الذهبية على الجبين الوضاء . بدت له في هذه اللحظة - برغم ما هي عليه - فواحة بالرقة كهمس عاشق ، مفعمة بسحر غامض كضباب ما بعد الفجر ، وحين انتهت مكالمتها وفوجئت بوجوده وإمعانه النظر إليها همت أن تشهق لكنها استدعت قدرتها على التماسك وألقت إليه ببسمة حافلة وهي تقول دون أن تحاول - مجرد محاولة - أن تنهض من مكانها :

- شرفتنا ماهر بك .

فأجابها بسعادة الواثق من تأثيره :

- أحببت أن أشكرك .

ردت بدفء :

- نأمل أن تتكرر زياراتك .

فأجاب مداعبا وابتسامته تغمر وجهه :

- سأزوركم حتى تملوا .

هل تجاوزت الحد الدقيق الذي يفصل بين الإشارة والعبارة حين تهلل وجهها أم أن ذلك ما تخيله حين قالت بدبلوماسية من لم تتعود فقدان أمل :

- لن نمل زيارة الكاتب الكبير أبدا .

- ٦ -

قالت بشرى لأحمد وهما يغادران منطقة الملاعب الجامعية بعد أن انتهى اللقاء الذي شاركا فيه متسترين بالتظاهر بتشجيع فريق كليتهما للكرة :

- اجتماع ممتاز .

فرد أحمد بتلقائية :

- مازال ينقصنا الكثير .

تابعت وكأنها لم تسمع ملحوظته :

- لم أشهد مثل هذا الحماس من قبل .

واستدركت وقد فطنت إلى عبارته :

- ما الذي ينقصه ؟ .

أجاب بثقة ؟ .

- الحماس وحده لا يكفي .

قالت باقتناع :

- البداية جيدة للغاية .

قال بهدوء :

- ربما ، ولكن الاقتصار على الحماس قصور .

- أختلف معك ، الحماس يدفع إلى العمل ، نحن في حاجة إلى الحماس قبل كل شئ وأكثر من أي شئ .

- حتى يتحول الحماس إلى عمل لابد من تنظيم دقيق ، فالحماس طاقة ، ولا ينبغي السماح بتسريبها في مسارب فرعية تستهلكها ، كما لا يجوز تبديدها في مواقف خطابية ، ولا كلمات رنانة ، مهما كانت حادة فإنها لا تتقدم بالنضال الوطني خطوة واحدة .

نظرت إليه بامعان وكانا قد خرجا من باب المدينة الجامعية وأخذا يجتازان الطريق إلى الطوار المقابل ، ولكن سيارة أمريكية ضخمة كادت تدهم بشرى فأخذها الروع حتى عجزت عن الصراخ ، لكن أحمد في قفزة واحدة تمكن من أن يجنبها بعيدا ، ثم أمسك بقبضتها حتى وصلا إلى الرصيف المقصود .

نظرت إليه بعيون تفيض عرفانا ، ونظر إليها بعيون مفعمة بالحنان ، هل أراد أن يخفف عنها حين داعبها :

- إنها بعض آثار الرأسمالية .

وهل كانت تشاركه المداعبة حين ردت وهي ما زالت تلهث مما حدث :

- إنها الطبقة الجديدة ، لكن اطمئن ، لن تتمكن منا .

وأغرقا في الضحك حتى فاضت من عيونهما الدموع .

ثم أسلمهما الضحك إلى الصمت .

كان صمتها تعبيرا عن الامتلاء ، فإنها إحدى المرات القليلة التي تحس فيها بفيضان مشاعرها ووضوح أفكارها على هذا النحو ، صحيح أن كثيرا من مشاعرها ما

زال في حاجة إلى وضوح وأن كثيرا من أفكارها ما زال في حاجة إلى استقرار ، لكن الشئ الرائع الذي امتلأت به أن اتساقا بين مشاعرها وأفكارها قد تحقق ، إنها إحدى اللحظات النادرة التي تمر بها ، لقد أحست برغبة عارمة في مشاركة هذه المجموعة عملها والنضال معها وأن كل ما ظهر من خلاف يمكن صهره في بوتقة العمل المشترك .

وكان صمته ناتجا عن الحيرة ، فهل الوقت مناسب ليخطو بها خطوة جديدة أم ما زال غير مناسب ؟ إنها منذ فترة ليست قصيرة تظهر استعدادا متزايدا لمشاركته النضال ضد قوى التسلط الباغية في الكلية والجامعة ، وخارج الكلية والجامعة ، ومنذ كانت طالبة في الكلية وهو يلحظ شجاعتها في التصدي للانحراف ، ولم يمنعها حبها الشديد لأسرتها من نقد أخيها حين هاجر حتى انها أطلقت عليه ساخرة لفظ « *الهارب* » ، كما لم يمنعها هذا الحب من أن تعيد النظر في بعض مواقف أبيها وتخالفه فيها ، إن حركة فكرها ليست راكدة بالرغم من أنها تدور في حلقة شبه مغلقة ، ولو أمكن كسر هذه الحلقة لحققت تقدما هائلا ، فهل هناك فرصة حقيقية الآن ؟ .

قالت تقطع الصمت :

- ذهبت بعيدا .

فرد بابتسامة من غير أن يلفظ بحرف ، فأضافت :

- يا أستاذ ، نحن هنا .

انتبه فأجاب برقة معتذر :

- وأنا معك .

تابعت وكأنها تلومه :

- من قواعد الايتكيت ألا يهمل رجل سيدة .

قال يشاكسها :

- إنك لست سوى آنسة .

قالت متصنعة الغضب :

- وهل تبيح قواعدكم إهمال الآنسات ؟ .

قال يسترضيها :

- بل توجب قواعدنا أن نجعل أجسادنا لهن دروعا وأرواحنا لهن فداء .

قاطعته بتهريج محاكية الهتافات الرسمية :

- بالروح ، بالدم ، نفديك يا بشرى .

ثم غمرها الحياء فاكتسى وجهها وهجا وردت بغبطة من أسعدته الكلمات :

- أحمد ، لا تبالغ .

فتابع بمودة :

- المفروض أنك متخصصة في التاريخ وتعرفين هذه الحقيقة .

تساءلت بدهشة :

- أي حقيقة ؟ .

فرد بصوت دافئ يرسل إشاراته إلى القلب مباشرة :

- الحقيقة المقررة فقهيا ، والتي توجب على الرجل أن يدافع عن عرضه كما يدافع عن نفسه وعقله ، وتجعل من يقتل دفاعا عن عرضه كمن يقتل دفاعا عن عقله أو نفسه شهيدا .

ازدادت دهشتها فتوقفت عن المسير ، وأمعنت النظر إليه قبل أن تسأله ثانية :

- هل هناك شئ من هذا بالفعل في الفقه ؟ .

فأجاب بهدوء :

- بالطبع .

وأضاف وكأنه يفتح أمامها بابا جديدا :

- أظن أنه آن الأوان لتقرئي شيئا من سيرة النبي وأحاديثه .

قاطعته متحفظة :

- أنت تعرف موقفي .

فقاطعها قبل أن تكمل :

- أعرف أنك عقل متحرر وقلب مفتوح ، ولا يمكن أن تتخذي موقفا معاديا للمعرفة .

عقبت وقد مست كلماته مشاعرها :

- لا أستطيع أن أعدك بشئ ، لكنني لا يمكن أن أعادي المعرفة بحال .

قال برضا :

- أنا واثق من ذلك .

وأدركهما الصمت مرة أخرى .

كان يفكر في الكتب المناسبة التي يحسن أن تبدأ بقراءتها ، إن المكتبة الاسلامية تضم آلافا من الكتب ، وتحتوي على ملايين الصفحات التي كتبت عن النبي ، لكن من المهم أن يختار من بينها ما يتلاءم مع نقطة البداية عندها ، وإلا ضلت طريقها إلى المعرفة الحقة التي يريدها ، إنها في حاجة إلى أن تقف على النمط السلوكي الانساني الرائع للنبي ، علاقاته بأهل بيته وجيرانه ، بأصدقائه وأعدائه ، بالكبار والصغار ، بالانسان والحيوان والنبات ، سلوكه في حياته اليومية ، في يسره وعسره ، في سلمه وحربه ، في جوعه وشبعه ، في جده ومرحه ، في عمله وراحته ، إن السلوك اليومي هو الذي يقرب الإنسان من الإنسان أو ينفره منه ، فأي شئ في ضوء ذلك يختار ؟ .

وكانت تفكر في العرض الذي قدمه أحمد لها . إنها تحترمه وتقدر فيه شجاعته في الحق وحرصه عليه ، واحترامه للعقل واتساقه مع المنطق ، ولكن عرضه بدا - للحظات - غير متسق مع طابع سلوكه معها ، فإنه يعلم عنها إيمانها المطلق بالعلم ، وكان من قبل

حريصا على ألا يصادم هذا الايمان ، لكن ها هو ذا يحاول هذه المرة توجيهها ثقافيا فهل تقبل من في مثل عقلها ويقينها أن تقرأ أعمالا لا تخاطب بطبيعتها العقل حين تنطلق من مسلمات غيبية لا سبيل إلى قبولها ، كلا ... إنه لا يصح أن تؤلم عقلها وتهدر وقتها بالاطلاع على مثل هذه الأساطير ... ولكن ... من ناحية أخرى فإن الظروف الموضوعية للنضال قد ربطت بينهما وهما وإن اختلفا عقيدة ومنهجا فإنهما متفقان أهدافا وسلوكا ، إنهما مناضلان تحت لواء واحد هو لواء العدل . أليس من الواجب عليها أن تفهم الظروف التي يعمل في ظلها شركاؤها في النضال وأن تدرك العوامل التي توجه مواقفهم . إن النبي يمثل عندهم قيمة كبيرة تشع في حياتهم أعمق الأثر ، ولديها من حصانة الفكر ومقدرة العقل ما يحميها ، إن القراءة بالنسبة إليها لن تكون خطرا من أي نوع ، بل على العكس تماما ، فإنها بالإضافة إلى ما ستعرفه على المستوى الشخصي فإنها ستكون أقدر على التأثير في شركائها ، ومن يدري : ربما استطاعت أن تجعل ذلك مدخلا لكسب عنصر جديد بالاحترام – كأحمد – إلى فكرها ومنهجها .

قالت :

– ماذا تقترح للقراءة ؟ .

رد مداعبا :

– أراك متعجلة .

هل أحست بغضب فقالت :

– لا تفهمني خطأ . فأنا واثقة من النتيجة .

وهل كان يلومها أم يغريها حين قال :

– وأنا واثق من أنك لن تتخذي باسم العلم موقفا غير علمي .

وهل أرادت أن تترضاه حين قالت وقد اقتربا من مبنى الكلية الملحق حيث تركت السيارة :

- أستطيع أن أوصلك .

وهل كانت رغبة في المشاكسة حين قال مبتسما :

- صرت إذن منهم .

وهل كانت ترد على المشاكسة بمثلها حين قالت ضاحكة :

- سأظل من الكادحين حتى لو ركبت طائرة خاصة .

قهقه وهو يعقب :

- اكشفي عن تطلعاتك الخفية .

ضحكت سعيدة واستدركت وهي تفتح باب السيارة :

- إنها كما ترى ليست إلا خنفسة قديمة صنعها الخواجة واجن بيديه قبل عصر الثورة الصناعية .

استمر ضاحكا وهو يشير إلى بعض السيارات الفارهة المجاورة :

- لكنها تغنيك عن سؤال اللئيم .

وأضاف وهو يغلق وراءها الباب :

- أرجو أن تبلغي تحياتي للوالدة الكريمة .

قالت وهي تمد يدها لتفتح الباب المجاور لها :

- هل هناك ما نع من أن أوصلك ؟ .

فرد مبتسما :

- لا مانع على الإطلاق ، لكني ذاهب إلى مستشفى لزيارة شماس من البلد .

تساءلت في دهشة :

- أهو صديق ؟ .

فرد بتلقائية :

- إنه أحد أصهارنا .

ثم أضاف وهو يلوح لها مبتسما :

- ألا تعلمين أن كل أبناء بلدنا أقارب ؟ .

✍ ✍ ✍

-٧-

على عادة ماهر في الاستعداد للقراءة لم يشرب سوى كأسين مخلوطتين خفيفتين قبل أن يأخذ في تصفح الملف الثقيل الذي حمله إلى المنزل وهو مضطجع على الشيزلونج في الأنتريه نصف يقظ ، والكاسيت يصدر إيقاعات موسيقى شبابية غير محددة الهوية ، وقد أمسك بالقلم الرصاص ليحدد الأجزاء التي يجب أن يدرسها بعناية ، لكنه ما كاد يمر ببصره على الأوراق الأولى في الملف حتى حلت به يقظة حادة غير معهودة في هذا الوقت المتأخر من الليل . لقد كانت الأوراق صورا من تقارير كثيرة كتبها البرغوتي وكتبت عنه . « *هل هذا معقول ؟ ! حتى البرغوتي يكتب تقارير أمنية ؟ ! »* .

بدت له الحقيقة شديدة الغرابة ، فلم يكن البرغوتي من بين المعروفين بالتعاون مع أجهزة الأمن . ولم يتعرض لا تهام أبدا بالعمالة للجهاز الخاص ، لقد تعرض لاتهامات كثيرة تناولت قدراته وأفكاره وقيمته ، وأحيانا سلوكه الشخصي ، ولكن لم يكن من بينها هذا الاتهام أبدا . لقد كانت لديه القدرة على أن يجعلك تحس بأنه إنسان بوسعك أن تختلف معه في كل شيء وأنت آمن من أن يحول خلافك معه في الرأى إلى خلاف مع اتجاه فكرى ، لأنه لم يمثل قط أي اتجاه فكري . لقد كان نموذجا لغير المنتمي الذي لا ينتمي إلا إلى مصالحه الذاتية وحدها ، وهكذا لم يكن في مقدور أحد - حتى أولئك

الذين لا يحظى عندهم بالثقة – أن يتهمه مباحثيا ، فظل بعيدا عن دائرة الشبهة التي تضم كثيرين تكتظ بهم الساحة الثقافية من أدباء وفنانين ومفكرين وإعلاميين ، ممن يضعون أنفسهم بإرادتهم في بؤرة الاتهام بما تتسم به مواقفهم من التطابق مع اتجاهات السلطة ، حتى لو أسلمهم ذلك إلى الوقوع في التناقض ، وكأنهم أفراد أوركسترا سيمفوني يحرصون على وحدة الإيقاع استجابة لعصا قائد مسيطر .

استبدت به رغبة طاغية في أن يقف على ما كتبه البرغوتي في تقاريره ، فلم يستمر في تصفح باقي أوراق الملف وعاد إلى التقارير يقرأ بإمعان كلمة كلمة ، أحس بالصدمة مع تتابع القراءة لتنوعها وشمولها ونوع المعلومات الواردة فيها ، إنه لم يترك شخصية فكرية أو فنية ولاحدثا ثقافيا داخليا أو خارجيا إلا تناوله في تقاريره . إنها تعطي صورة كاملة لكل ما شارك فيه الرجل أو وقف عليه أو حتى سمع به مما دار في المؤتمرات والحلقات والمهرجانات والحفلات والمحاضرات والندوات والاجتماعات من مناقشات وإقامات وتعليقات ومواقف ونكات ، حتى الوقائع الشخصية والكلمات العابرة لم يفلت منها شيئا ، وكأنه أشبه بجهاز تسجيل شديد الحساسية يلتقط كل لفظة وهمسة وحركة ، بل يتجاوز التسجيل إلى تحليل ما وراء الألفاظ والحركات حتى يعطيها دلالتها التي يريدها في ضوء المواقف التي قيلت فيها والظروف المصاحبة لها . بلغ به العجب أشده أن يتمكن هذا الرجل الضئيل الحجم من أن يحيط بكل هذه المعلومات وأن يسجلها كتابة على نحو يفوق في دقته خبرة جاسوس محترف السي أي إيه . ما لبث أن تجاوز الاحساس بالدهشة إلى الشعور بالغضب ، لقد كانت التقارير تلوث كل شئ : الرجال والمواقف والآراء والاتجاهات ، فئة واحدة هي التي نجت من المساس بها بشكل مباشر ، وهي التي يشاع عن أصحابها أنهم من أهل الحظوة لدى القيادة السياسية .

– *« إذن كانت هذه القذارة هي الطريق إلى الجائزة ! إنه لأمر مقزز ، فهل كان من الضروري أن يمارس كل هذه العفونة ؟ ! إن العمالة في ذاتها شئ بغيض فلماذا يستغرق فيها حتى النخاع وكأنها تمنحه متعة دونها كل المتع ؟ إننا جميعا نتعرض لضغوط*

شديدة القسوة ، ولكننا ما زلنا نحتفظ بتوازننا .

- لا تظلمه ، هل تعرف طبيعة الضغوط التي تعرض لها ؟ هـــل يتمرغ إنسان سوى بإرادته في الوحل ؟ .

- أما كان في استطاعته ألا يرتكب من الخطايا إلا ما كـــان ضروريا ؟ .

- وهل في استطاعتك أن تحدد الضروري وغير الضـــروري ؟ ألا تمارس الآن دورا شبيها به على نحو ما ؟ أليس مطلوبا منك أن تضع خطة تكفل سحق معارضيه وتجميل صورته بحيث يصبح كما يراد الترويج له الكاتب النموذج ؟ ألا ترتكب بدورك جريمة لا تقل قذارة حين تسهم في تشويه معارضيه وتجميل صورته وتسويق هذا المثل المنحط ؟ .

- بوسعك أن تتراجع ، تستطيع أن ترفض ، يمكن أن تأبـــى أن تشارك .

- ولم كل هذا ، إن دورك في الحقيقة ليس منصبا عليه وإن كان هو – بالصدفة – بعض أدواته . إن دورك يتمثل في دعم سلطة الدولة بتأكيد قراراتها . وإنك لو تراجعت ستفرض الغوغاء إرهابها وتعزز القوى المعادية مواقعها ، أيهما أفضل أن تظل السلطة قائمة مهما كان فسادها أو أن تغرق الحياة كلها في بحر من الفوضى ؟ .

- دعك من محاولات التبرير ، إنك بما تفعله بعد كل ما عرفت تقـوم بعمل قذر لا يقل حقارة عما فعل البرغوتي » .

ألقى بالملف جانبا وقد بلغ به التوتر حدا لم يستطع معه أن يتابع القراءة ، أحس بحاجته إلى دافع قوى يحسم ما داخله من تردد مشوب بالسخط ، صحيح أنه في مرات

كثيرة سابقة قام بأعمال ليس مقتنعا بها ولكن الأمر في هذه المرة يختلف ، إن حجم القذارة في الرجل من الضخامة بحيث يتطلب قوة دفع غير عادية .

طافت برأسه فكرة الاعتذار وأخذت تنمو بإلحاح مثير للضجر فهمّ أن يمسك التليفون ليطلب الوزير لكن يده توقفت وأصابعه توشك أن تضغط أزراره ، فقد خطر له أن اتصالا في مثل هذا الوقت ليس مناسبا ، فضلا عن أنه يحسن به أن يتابع بقية أوراق الملف لعل فيها ما يوضح الصورة ويجلو جوانبها الخفية ، فربما تتضمن الأوراق الباقية ما يستند إليه في موقفه عدولا أو استمرارا . فعادت يده تقلب الصفحات من جديد . ولكن جرس التليفون شرع يدق ، فتناوله بلهفة على غير عادته في تقبل الاتصال في مثل هذا الوقت بالاهمال . هل كانت تراود نفسه رغبة خفية في أن ينأي به الاتصال عما هو فيه ؟ .

رفع السماعة فجاءه الصوت الذي لما يغب صداه عن أذنيه بعد :

- كسبت الرهان .

تساءل وقد أدركته الدهشة :

- أي رهان معالي الباشا ؟ .

كان الصوت طافحا بالمرح حتى أنه أدرك كلماته بصعوبة وهو يقول :

- راهنت نفسي أنك يقظ . وهكذا ترى أن فراستي لا تخيب .

عقب ماهر مجاملا :

- إنك بعيد النظر دائما معالي الباشا .

استمر دون أن يعبأ بالتعقيب ، وكأنه لم يسمعه :

- بالرغم من أنني في نصف قواي ، نصف واع ، نصف نائم .

خطر في بال ماهر أن يسأله :

- لعلك أسرفت في الشرب الليلة معالي الباشا .

ولكنه اضطر إلى الصمت حين وجد صاحبه يستمر كأنما استهواه التعبير :

- شربت نصف شرب ، ولذلك أنا نصف عطشان ، نصف تعبان ، نصف جائع ، بل تستطيع أن تقول إني جائع فعلا .

ظن ماهر أن الرجل مخمور تماما ، وأن اللعب بالكلمات سيحمله على أن يضيف إلى حالته أنصافا أخر ، ولكنه لم يزد ، فهل كان ينتظر ردا ؟ .

قال ماهر وكأنه يجاريه :

- أنا أيضا نصف قرفان .

فسرسعت في السماعة ضحكة خليعة صكت أذنه حتى أنه أبعد عنها السماعة ، ولكن سؤالا باغته حين أعادها حذرا إلى موضعها :

- أنا لا أعرف ما يضايقني ، ربما لأني لا أريد أن أعرف ، فهل تعرف أنت ما يضايقك ؟ .

فأجاب ماهر بحنكة من تعود المراوغة :

- من الجائز أن يكون ما يضايقني هو نفسه الذي يضايقك .

وصمت برهة ، ولكن باغتته الدعوة التي جاءت أسرع مما توقع :

- فلنحاول معا إذن أن نستكشف ، ربما وجدنا شيئا مشتركا .

لم يعقب واستمر صامتا ، لقد اختزلت الدعوة مرحلة هو دائما في علاقاته الأولية حريص عليها ، مرحلة يمارس فيها هوايته في شحن الألفاظ بشتى الاحتمالات بحيث دائما يظل في موقع المسيطر حتى اللحظة الأخيرة . ها هو ذا المخمور بدعوته الصريحة لا يدع له فرصة لممارسة هذه المتعة ، وعليه أن يتخذ قرارا فوريا .

تابع الصوت وكأنه يتعجل رده :

- على الأقل سنعرف ما ينقص كلانا .

واستمر حتى لا يترك له فرصة لاعتذار :

- ما رأيك في أن تحضر الآن .

هتف ماهر وقد أصابه الاقتراح بالفزع :

- الآن ؟ .

ولكنه لم يسمع لصيحته ردا ، فقد كان صاحب الصوت يتحدث في جهاز آخر قبل أن يتابع معه :

- في انتظارك ، لقد أعطيت الأمر لكلاب الحراسة بالسماح لك بالمرور فلا تتأخر .

-٨-

أخذ الدكتور شوقي يستعيد في ذهنه كلمات ابنته التي تضمنت ما يشبه التقرير اليومي عن ردود الفعل في الجامعة واتجاهاتها بعد منح الجائزة للبرغوتي وقد انتابته دهشة حقيقية ، لقد كان ما تنقله إليه مخالفا لكل توقعاته ، كان تقديره أنه لن يرتفع صوت معارض واحد ، فإن السلبية ستغلب الذين يعرفون فيصمتون ، وأما الذين سترتفع أصواتهم فهم الذين ترتفع أصواتهم دائما ، الثرثارون الأدعياء المتحذلقون المتفيقهون المتزلفون الذين سيواصلون المديح ما داموا يجدون فيه إرضاء لشهوة الحديث وإمتاعا لهوى السلطة ، ولقد صدقت الأيام الأولى بعد منح الجائزة تحليله ، إذ احتشدت أجهزة الإعلام مقروءة ومسموعة ومرئية لتقديم معزوفة لم تمل تكرارها عن الأديب الكبير . كم ضحك سخرية وهو يرى بعض زملائه يتحدثون في التليفزيون عن الرجل باعتباره قيمة فكرية وهو يعلم آراءهم الحقيقية فيه ، وكم تملكه العجب وهو يشاهد النقاد المحترفين يملئون أفواههم بمصطلحات نقدية لا يجيدون النطق بها فضلا عن معرفة دلالاتها يختلفون في المدرسة الأدبية التي ينتمى إليها الكاتب الكبير ، أهي الوجودية أو الدادية أو السريالية أو العبثية ، إلى أن ينتهي أحدهم إلى أن البرغوتي يمثل وحده مدرسة متميزة في الآداب العالمية . كم ضحك حتى استلقى بعد ذلك وهو يتذكر هذه

العبارات ويفطن إلى أن لها وجها من صواب ربما لم يخطر على بال قائلها ، فليس في الآداب العالمية حقا من منح جائزة لأنه لم يكتب شيئا سوى البرغوتي .

« ماذا يحدث في الجامعة ؟ .

حتى لو كان الذي يحدث ثورة شباب فإن عليك أن تعترف بأن في الأمر مفاجأة ولابد لك من أن تستوعبها كاملة ، لأنه ليس في منطق التحليل العلمي ما يسمى بالمفاجأة ، المفاجأة تعبير ساذج وسطحي يدل على عدم الوعي بالظروف الموضوعية المؤثرة في الأحداث ، وإذا كنت قد فوجئت بما سمعت فليس لأن في الأمر معجزة ، وإنما لأنك قد انعزلت عن رؤية الواقع وتحليله ، فلم تفهم ما يدور ولم تستوعب دلالاته ولم تستشرف اتجاهاته . أكنت تتوقع أن تعرف وأنت هارب إلى الكأس في متاهاته القديم الذي صار بارا !؟ . إنك حتى لم تحاول - مجرد محاولة - معرفة ما صار إليه رفاق النضال القدامى الذين كانوا فخر جيلنا ورموز حركتنا ، أين فاروق السيد وأحمد الرفاعي وابراهيم عبد الحليم وشكري عبد الوهاب وسعد رحمي وفضل مبارك وفهمي رشوان وعطا ميلاد وعبد الستار حسين ، إنك لم تعد تتذكر إلا المحترفين والمنحرفين والمرتدين الذين آثروا أن يجعلوا فكرهم وعقولهم جسرا تعبر عليه ظلمات الحلف غير المقدس بين الخونة والعملاء والانتهازيين والطفيليين .

أيها العالم أفق . لقد آن لك أن تعرف وتفهم وتحلل » .

هل أنهكه التفكير حتى أحس بالجوع على غير عادته في هذا الوقت من الليل ، غادر صومعته ينشد شيئا يأكله وهو حذر من أن يحدث صوتا فقد كان على يقين من أن بشرى وأمها نائمتان ولم يشأ أن تستيقظا ، ولذلك فوجئ حين وجدهما جالستين في الأنتريه المضاء إضاءة خافتة ، لقد كانت إحدى المرات النادرة التي يرى فيها الاثنتين

معا خارج حجرة النوم التي صارت في الفترة الأخيرة بعد هجرة الابن وانتقال شوقي إليها حجرة الأم وحدها ، وبرغم الدهشة فإنه أحس بشئ من الراحة ينبت في أعماقه ويثمر – في لحظة – بعض الاسترخاء ، لقد كانتا ملتصقتين ، تحيط الأم حضن بشرى بذراعها وهي تسند رأسها إلى صدرها ، في حين تربت بشرى برفق على رأسها وتتخلل شعرها بأصابعها ، كانتا صامتتين ومع ذلك أحس شوقي للحظات أن بينهما نوعا من التواصل أعمق من أن تعبر عنه كلمات ، فعدل عن أن يطلب من ابنته أن تعد له شيئا من طعام ، وذهب بنفسه إلى المطبخ فأعد وجبة خفيفة وعاد على عجل لينضم إليهما . وحين عرض عليهما ضاحكا – وهو يجلس أمامهما – أن يشاركاه طعامه لم تنبس الأم بكلمة وردت بشرى بمودة :

– سبقناك .

ساد الصمت بينهم حتى وجد نفسه ينتقل رويدا رويدا إلى الموضوع الذي يشغله ، ولذلك لم يفطن إليهما إلا وهما تغادران الأنتريه متجهتين إلى حجرة نوم الأم ، وحين خرجت بشرى بعد قليل متوجهة إلى غرفتها توقفت لحظة وعرضت على أبيها أن تعد له شرابا فلما هز رأسه نفيا قالت وهي تستأنف سيرها إلى حجرتها :

– تصبح على خير .

فرد بحنان :

– وأنت من أهله .

ثم استدرك بسرعة كأنما تذكر شيئا :

– هل ستنامين ؟ .

فلما أجابته :

– بل سأقرأ قليلا .

قال بهدوء :

– هل لديك مانع من أن نجلس لنتناقش قليلا ؟ .

فردت ضاحكة :

– أعرف نقاشك ، سأصنع أولا كوبا من الشاي حتى أتمكن من السهر .

لقد كانت تعلم أن حوارا طويلا سيبدأ ، وفي مثل هذه الحالات تستطيع أن تحدس موضوع البداية ، لكن أحدا لا يستطيع أن يحدد كيف سيتشعب الموضوع وتتعدد جوانبه وتتداخل مسائله ، وكيف سيصبح في خضم المناقشة مجرد نقطة في محيط من العلاقات والظواهر والقضايا والقوانين الخاصة والعامة على السواء .

✍ ✍ ✍

- ٩ -

تعانق عقربا المنبه الصغير الموضوع على الكوموديتو عند منتصف الليل فضغطت أميمة زر الجهاز المتصل بالتليفون الذي يحول دون مراقبة مكالماته ، ثم طلبت رقما من الذاكرة وتركت الجرس يدق مرتين وقطعت الاتصال ، ثم أعادت طلب الرقم مرة أخرى ، وتركته يدق مرة واحدة وقطعت الاتصال ثانية ، ثم طلبت الرقم نفسه للمرة الثالثة وتركته يدق ثلاث مرات ثم وضعت السماعة مكانها . وبعد لحظات دق جرس تليفونها مرتين ، ثم صمت ، ثم مرة واحدة ثم صمت ، ثم ثلاث مرات رفعت على أثرها السماعة وسألت المتحدث عن الرقم المطلوب فذكر رقما كوديا ، فأجابت مصححة برقم كودي آخر ، أتاها عقبه الصوت المألوف الذي تعودت أن تملي عليه تقاريرها وأن يملي عليها التعليمات .

بدأت أولا بتقديم تقرير مفصل وشامل عن العمل في الديوان العام ، كل ما وصل إلى علمها عن الاجتماعات التي تمت والأشخاص الذين شاركوا فيها ، وأولئك الذين تغيبوا عنها ، والموضوعات التي نوقشت ، والآراء التي أبديت ، والتوصيات التي اقترحت ، والقرارات التي اتخذت ، والمكاتبات التي تبودلت .

ثم انتقلت بعد ذلك إلى تقرير المعلومات الشخصية ، فلم تترك شيئا مما عرفته من مصادرها المبثوثة في الإدارات المختلفة إلا ذكرته ، ومع ذلك لم تكن الحصيلة كبيرة

ولكنها تضمنت أسماء جديدة ترد في تقاريرها للمرة الأولى ، منها (منى) موظفة المكتبة التي تمر بلحظة ضعف مواتية بعد أن فسخت خطوبتها لعجز خطيبها عن تدبير مسكن الزوجية طوال سبع سنوات ، و (وهدان) مسئول فرقة الفنون الشعبية بأحد قصور الثقافة الذي بدأ ينشط لتجنيد فتيات الفرقة ضمن شبكة دعارته الخاصة للنشاط الخارجي ، و (هيام) مديرة مكتب أحد رؤساء القطاعات التي بدأت تدير شقتها المفروشة – التي يشاع أن رئيس القطاع هو الذي أجرها لها – للقمار ، و (قدري) مسئول الآثار الذي صرح في مكتب مسئول كبير في الوزارة أن قطع الآثار النادرة التي شارك شخصيا في اختيارها للعرض الخارجي لم تعد ، وأن القطع التي عادت كانت نسخا مقلدة منها .

ثم جاء دور الأسئلة ، فسألها :

– اقتراحاتك للسيطرة ؟ .

– بخصوص ؟ .

– منى وقدري .

– منى غلبانة ، تقريبا هي الآن تحت السيطرة .

– ألا تحتاج إلى تصوير ؟ .

ورد في خاطرها لأول وهلة أنها لا تحتاج ، فقد وصلت إلى مرحلة اليأس التي يتساوي فيها لدى المرأة كل الطرق . ولكنها عدلت عن إبداء رأيها في نفس اللحظة .

– التسجيل لن يضر على أي حال .

– وقدري .

– إنه مشكلة ، فهو لا يشرب ، ولا يحب النساء ، ولا يلعب القمار ، ولا يفهم في الكرة.

جاءها الصوت حازما عبر السماعة وكأنه يلومها :

- لابد من وجود نقطة ضعف ، فإن لم تكن موجودة يجب إيجادها .

سألت بانزعاج حقيقي وكأنها تنفي تقصيرها وتبدي في الوقت نفسه تفهمها :

- طبعا ، لكن كيف ؟ .

- فكري بسرعة واقترحي ، فإذا عجزت فإن لدينا وسائل أخرى .

هل يليق بمن في مثل خبرتها الطويلة أن تعجز ؟ لكن ما يشغلها الآن شئ مختلف :

- وماهر الجندي ؟ .

- إنه العملية العاجلة ، والمفروض أن تكوني قد أحرزت اليوم تقدما .

قالت باستكانة من يدرك أنه لم يحقق شيئا ذا بال :

- أظن أنني لفتّ نظره ، لكن الباشا ....

قال بحزم :

- دعك منه ، عليك أن تكوني نزوة الجندي القادمة ، لكن احذري أن يعرف عن طريقك إلا ما نريد .

✽ ✽ ✽

- ١٠ -

مد ماهر يده ليسوي وضع القميص الحريري المزركش في البنطلون الايطالي المنتفخ وهو واقف أمام المرآة الفيميه العسلية الضخمة ، التي تعكس - في غير وضوح - الحجرة كاملة ، فتتراءى الأشياء فيها مع بقايا الدخان الأزرق الذي تشبعت به الغرفة أشبه بظلال تتداخل فيها الألوان وتتقارب وتتماع وتتلاشى ، ولا يستطيع الضوء الخافت غير المنظور سوى أن يحدد حوافها ومواضعها دون أن يكشف معالمها أو يوضح أحجامها وسطوحها . وحين انحنى ليرتدي حذاءه الفرنسي المدبب الذي اشتراه له أمريكي عجوز تعرف عليه عقب انتهاء مؤتمر اليونسكو في باريس منذ نحو شهر وهو يتجول في بيجال قال - كأنما داهمته الفكرة فجأة :

- على فكرة ، البرغوتي لا يستحق الجائزة في رأيي .

عكست له المرآة صورة المسترخي في الفراش نصف عار يقول وهو يتثاءب :

- وكذلك في رأيي ؟ .

فالتفت ماهر مندهشا وهو يتساءل :

- إذن لماذا ؟ .

فرد صاحبه وهو يواصل تثاؤبه :

- أكمل قراءة الملف .

ثم وضع رأسه على الوسادة وتابع وعيناه مغمضتان :

- وإذا احتجت إلى معلومات أخرى فاطلبها من إيمي . سأعطيها تعليمات بألا تحجب عنك شيئا حتى تكون لقاءاتنا بعد ذلك للترفيه لا للعمل .

كتم ماهر ضحكة لم يظهر منها سوى همهمة خافتة « *إنه ترفيه بالنسبة لك أما بالنسبة لي فعمل شاق* » ، هل سمع صاحبه صوته حين تساءل وهو شبه نائم :

- هل قلت شيئا ؟ .

فقال ماهر بسرعة :

- كنت أقول رأيي في سكرتيرتك . إنها سكرتيرة رائعة .

فرد صاحبه وقد أوشك النوم أن يغلبه :

- إنها لزوم المظهر ، حتى لا يفطن أحد إلى اتجاهاتي الحقيقية .

قهقه ماهر وهو يخطو في اتجاه الباب قائلا :

- هذا ذكاء غير عادي .

فأدركته ولما يخط خارج باب الحجرة كلمات صاحبه غير واضحة الحروف :

- حذار أن تعاكسها فهي تقول لي كل شئ .

* * *

رمقته ببلادة عينا أحد أفراد طاقم الحراسة الخاصة وهو يخرج من باب الفيللا الأنيقة التي تشغل جزءا من الدورين العلويين من عمارة شركة التأمين بالزمالك ، والتي

حصل عليها الباشا بقرار شفوي من القيادة السياسية تقديرا لما قدم من خدمات شخصية بعد توليه منصبه ، وتابعته العينان تكادان لا تطرفان حتى استقل المصعد الذي هبط به ، وما كاد يغادره في الطابق الأرضي حتى تلقي تحية عسكرية أداها بصرامة الضابط الشاب الذي يقود الوردية ، فاكتفى ماهر بهزة خفيفة من رأسه دون أن يعني برفع يده ، وأخذ طريقه إلى سيارته التي كان يستند إليها جندي آخر من جنود الحراسة لم يكد يراه مقبلا حتى تنحي جانبا دون أن ينظر إليه .

أحس ماهر برطوبة الفجر الندية تغمر وجهه وهو واقف ليفتح باب السيارة فأخذ نفسا عميقا ، وداخله في اللحظة نفسها إحساس غير محدد ، مزيج من السخط والرضى ، ولكنه ما كاد يجلس إلى عجلة القيادة حتى تنحى الرضا ليسلمه للسخط وحده ، لقد داهمه خاطر لم يرتح له : « *لم يكن اللقاء ممتعا* » فتح نافذة سيارته التي أخذت تتحرك وألقى ببصقة اشمئزاز ملأت فمه في عرض الطريق ، أحس بجيشان مفاجئ فأخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة أخذ منها نفسا عميقا احتبسه في فمه لحظات قبل أن يبتلعه ، وحاول أن يتغلب على إحساسه بمحاولة اكتشاف جوانب إيجابية شأنه حين يكون مغيظا أو محبطا « *قد يكون الموقف مقرفا بالنسبة لك ، لكنه بالنسبة إليه مختلف بالتأكيد ، لقد رأى ما سيجعله طوع بنانك ما شئت ، وكلماته الأخيرة برهان واضح* » . لكن محاولته إقناع نفسه لم تنجح ، فقد داهمه إحساس فظ بأنه أعطى دون مقابل : « *إنك أسوأ من البغيّ ، فالبغيّ لا تمنح دون مقابل أبدا ، ماذا أخذت حتى الآن وأقلامك كلها تعطي دون مقابل* » أزعجته المقارنة فأوشك الاضطراب أن يعصف به ، فأخذت السيارة تمضي وكأنما فقد سائقها قدرته على التحكم فيها ، كأنما هو طاعن مخمور أو مراهق أرعن ، حتى كادت أكثر من مرة أن تصطدم بالإفريزيمنة ويسرة ، ولم يفطن ماهر إلى ما يحدث إذ كان مستغرقا في التفكير « *لا تنزعج ، ثمة نوع آخر من المتعة عليك أن تجربه ، إن صاحبك أكبر رأس تنحني أمامك حتى الآن وتقبل*

الأرض ضارعة بين يديك ، ألا يرضيك هذا ؟ » استمرت محاولته في التبرير الذاتي مدركا حاجته إلى تكأة يستند اليها في مواجهة رياح السخط التي بدأت تعصف به ، وبرق في الظلمات خاطر محتمل : « من يدري ماذا يجرى هنالك ، في القمة ، ربما كانت هناك رءوس أخر ، أليس استكشاف ذلك أمرا جديرا بالتضحية ؟ لا تتعجل ، فإن ما حدث ليس إلا مجرد بداية » .

✍ ✍ ✍

- ١١ -

أهلّت بشرى في مدخل المكتبة فتوقفت لحظة ألقت فيها التحية على الموظفة المختصة وهي تستطلع بلهفة الموقع المعهود ، « *إنه ما زال في الانتظار* » ، مَسّتها حين رأته نسمة من الراحة الندية فلوّنت نظرتها بلمحة رضا وبود ، وكأنما أرسلت إليه شعاعا استقبله في اللحظة المناسبة ، فقد نهض أحمد لاستقبالها وإن ظل واقفا في مكانه لا يبرحه ، وخاطبت عينيها عيناه قبل أن تصل إليه :

- قلقت عليك .

وردت عيناها ببسمة رقيقة قبل أن تضع في يده يدها :

- أعرف أني تأخرت ، فمعذرة .

طوّفت عيناه بوجهها وهي تجلس أمامه إلى المنضدة التي حملت بعض ما كان يقرأ ، فلاحظ مظاهر إجهاد واضح ، فأدركه تلقائيا إشفاق رفت له مشاعر خفية مستسرة في الأعماق ، وود أن لو استطاع أن يخفف عنها . ولكن ماذا يفعل وقد شاءت إرادة الله أن تتضافر كل الأمور المجهدة معا : سفر أخيها ، ومرض أمها ، وأعباء مرحلة العمل المشترك بعد فوز البرغوتي بالجائزة . فهل تكون الكتب التي أعطاها لها – بما

تتطلبه من وعي وتركيز وحوار داخلي – سببا آخر من أسباب إجهادها ؟ هل أسهم – دون أن يدري – في زيادة أعبائها ؟ .

قالت بتلقائية :

– كنت ألا أحضر لولا اللقاء المقرر .

فنظر إليها متسائلا ، فأضافت مفسرة :

– أنا مرهقة جدا ، سهرت طويلا ولم أنم جيدا .

سأل – ربما ليطمئن :

– كيف حال الوالدة ؟ .

ردت بعجلة :

– إنها بخير ، اطمئن من هذه الناحية ، على الأقل بدأت تتعامل معي .

صمت ، وكأنه مازال ينتظر تفسيرا ، فتابعت :

– قضيت وقتا طويلا في الحوار والكتابة ، ولم أستطع أن أنام إلا بعد أن أقرأ شيئا من الكتاب الذي أعطيته لي . ولعله كان السبب فيما عانيته من أرق بعد ذلك .

سألها بانزعاج حقيقي :

– معقول ؟ إنه كتاب ممتاز .

فردت باسمة :

– لقد اتفقت معك على ألا نتناقش إلا بعد أن أنتهي من قراءته . ولكني أحببت فقط أن تطمئن إلى أنه برغم كل المتاعب فإنني جادة فعلا في القراءة .

قال وابتسامة تغمر وجهه :

– لست في حاجة إلى أن تطمئنيني ، فأنا أعرفك جيدا .

تفجر في أعماقها نبع من الثقة في نفسها وفيه ، هل كان ذلك هو السبب الذي دفعها لكي تعرض عليه القضايا التي أثيرت في حوار المساء مع أبيها ؟ وهل كان وراء مسلكها أن تتمثل وجهة نظر أبيها وهي تحاوره حتى تكشف مدى اتفاق وجهة نظر أحمد مع آرائها التي قالتها في المساء ، وبرغم ما أدركته من وجود خلاف في عدد من الأمور بين ما قالته وما قاله أحمد فإن آراءهما معا كانت متقاربة إلى الحد الذي أمكن معها أن تقول في نفسها : « *إنه أقرب إليّ من أبي* » ، ومن عجب أن ذلك لم يكن مصدر انزعاج لها كما كان يحدث في أيام سلفت .

تبادلا حديثا طويلا عن الموضوع الذي كتبته عن « *الدلالة التاريخية لمنح البرغوثي الجائزة* » ، وعرضت عليه فقرات طويلة مما كتبته ، وعرض عليها بدوره فقرات مما كان قد كتبه من قبل ، واكتشفا من خلال تحليلهما المشترك أن كلا من الموضوعين على حدة يتضمن عناصر قوة متفاوتة ، ولا يخلو من ضعف ، وفكرا – ربما في وقت واحد – : ألا يكون ما كتباه أكثر قوة وفاعلية لو أنهما أعادا صياغته في موضوع واحد يجمع عناصر القوة فيهما ويخلو من عناصر الضعف بهما ؟ وشرعا معا في كتابة الموضوع المشترك ، ونهض أحمد فيه بالعبء الأكبر ، فلقد كانت لغته الطيعة قادرة على أن تعبر عن الأفكار بأقصى قدر من الدقة والوضوح ، وهكذا حين أعادا قراءة الموضوع الجديد بعد نحو ساعة من الجهد المشترك وجداه عملا جديرا بإعجابهما .

نظرت إلى ساعتها وقالت بلهفة :

– ياه ، تأخرنا عن الاجتماع .

فنظر تلقائيا إلى ساعته وتمتم – ربما ليطمئنها :

– سنصل إن شاء الله في وقت مناسب .

فعقبت وهي تضم الأوراق المتناثرة على المنضدة :

- أمامنا مشوار طويل حتى نصل إلى ملاعب الطب .

فتساءل مبتسما :

- أليست السيارة معك ؟ .

فردت بعفوية :

- الحمد لله ، عدنا إلى قواعدنا .

وأضافت ربما لتشاكسه :

- طبعا خيبت أملك .

فرد ببهجة من يستمتع بالمشاكسة :

- مؤكد ، فقد ضيعت عليّ ثوابا كبيرا .

تساءلت في دهشة :

- أي ثواب ؟ .

فأجاب متصنعا الجد :

- ثواب الصبر على البلاء .

فعقبت متصنعة الغضب :

- نعم ؟ .

ثم انفجرا معا في الضحك وأخذا يمضيان إلى خارج الجامعة بخطي سريعة وقد عقدا العزم على أن يصلا بأسرع وسيلة متاحة حتى لا يتأخرا عن بدء الاجتماع . وحين وصلا إلى غايتهما مد أحمد يده وأخرج من جيبه الموضوع الذي كتباه وقال وهو يعطيه لها :

- موضوعك ، فربما يطلبون قراءة شئ منه .

ردت باقتناع وهي تمد يدها لتأخذه :

- لا مانع أن أقرأه ، لكنه موضوعك أنت ، فقد بذلت فيه جهدا كبيرا .

قالت بثقة :

- إن صلب الموضوع لك ، فأنت به أولى .

واختلفا اختلافا بعث في نفس كل منها متعة حقيقة ، إلى أن قالت بشرى بسعادة من عثر على الحل المناسب :

- وجدتها ، ليكن الموضوع باسمينا معاً : بشرى أحمد .

- ١٢ -

- الآن حان وقتك .

« *ماذا يمكن أن يتضمن الملف المتضخم غير التقارير المهووسة بالقذارة التي كتبها البرغوتي ؟* » . ضاعف ماهر الكمية في الكأس وتجرعها مرة واحدة قبل أن يعيد الكرّة ، ثم صب كمية مضاعفة أخرى رشف منها رشفة واحدة ووضع الكأس إلى جوار الزجاجة على حافة المنضدة الصغيرة التي تحمل التليفون ، ثم مد يده فأدار الكاسيت وشرع يقرأ .

كانت المجموعة الثانية من الأوراق في الملف تتضمن صور تقارير مكتوبة عن البرغوتي ، من كتّاب كبار وصغار ، وأفراد معروفين وغير معروفين ، وجهات أمنية وسياسية داخلية وخارجية ، وقد احتوت في مجموعها وقائع كثيرة ، لكنها برغم كثرتها متشابهة إن لم تكن متطابقة . فلم تتعرض لنشاطه الثقافي ولا لمواقفه الفكرية ، وكأنما ليس لهذا الرجل نشاط ثقافي ومواقف فكرية ، حتى قال ماهر في نفسه : « *قد يكون إغفال مواقفه أمرا مفهوما لأنه ليس له مواقف محددة ، لكن إغفال نشاطه الثقافي أمر غير مفهوم* » وقد ركزت التقارير جهدها في تسجيل سلوكه الشخصي ولقاءاته بعناصر ليست فوق مستوى الشبهات أخلاقيا وسياسيا ، أخذ يقرأ

صفحة بعد صفحة وقد انتابه الغيظ حتى أسلمه إلى الإحباط : « *أهؤلاء هم كتّابنا ؟ أهذه هي اهتماماتهم ؟ أكل ما يشغلهم البحث عن الروابط الخفية التي تربط البرغوتي بتلاميذه وتلميذاته ممن اشتغلوا في أجهزة الإعلام المختلفة ؟ هل مثل هذا الموضوع يستحق أن يكون الشاغل الذي تدور حوله تقارير صفوة المثقفين الذين يلونون الحركة الفكرية ويوجهون ثقافة الشعب ؟* » مسه شئ كالغضب نبت - من خلاله - بأناة إحساس رفيف بأن عالما على هذا النحو ليس البرغوتي أسوأ من فيه ، وأنهم ليسوا أفضل منه حالا حتى يروا لأنفسهم حقوقا ليست له ، وما لبث هذا الإحساس أن نما وتمكن ، فشرع يجيل في خاطره تلقائيا عناصر خطة تكفل دعم موقف البرغوتي في مواجهة الناقمين عليه ، لكنه بعد قليل توقف عن التفكير في الخطة بعد أن أوشكت أن تتضح لها معالم . فقد فاجأته فكرة أعادته من جديد إلى مرحلة البداية بما صاحبها من توتر وقلق ، فإن الذين كتبوا التقارير عن البرغوتي لم يكونوا هم الذين هاجموا منحه الجائزة ، بل على العكس ، لقد كان كتاب هذه التقارير ممن كتبوا المقالات تمجيدا له وثناء عليه بعد منحه الجائزة ، أما الذين حملوا على البرغوتي في صحف الحائط الجامعية وفي المجلات المطبوعة بالرونيو والمحدودة التوزيع فلم يشارك في كتابة التقارير السرية منهم أحد ... « *ترى ... من يكون هؤلاء المعارضون ؟ ، أهم واجهات لكتبة التقارير السرية ؟ !* » هزته الفكرة حتى النخاع حين خطر بباله هذا التصور ، ولكنه سرعان ما تلاشى ، فإن الذين هاجموا البرغوتي ليسوا مجرد معارضين له ، بل إنهم - كما يتضح من كتاباتهم - يتخذون من معارضة منح البرغوتي الجائزة وسيلة لرفض قرارات السلطة ، « *إنهم في حقيقتهم يرفضون النظام نفسه ، وليس معقولا أن يكون هؤلاء آخر الأمر عملاء يكتبون التقارير السرية للأجهزة المختلفة* » . ألح عليه إحساس حاد بأن نقطة البدء الأساسية يجب أن تكون معرفة هؤلاء المعارضين ، فإنه إذا استطاع أن يعرفهم تمكن من وضع الخطة اللازمة لدحرهم . فكيف السبيل إلى معرفتهم ؟ .

ألح عليه السؤال دون أن يهتدي إلى إجابة واضحة « آه لو كان في الوقت متسع ، إذن لأعاد نسج علاقاته من جديد بجماعات الثرثرة في مقاهي القاهرة ، ولتمكّن بهم من أن يغوص في أحشائها ويقف على خباياها . ولكن أين الوقت وقد تحدد موعد الحفل ، وآن أوان العمل !؟ » .

« لا مفر ... إنها خطوة لابد منها » .

لم يجد بدا من اللجوء إلى ما قد يكون لدى الأجهزة المختلفة من معلومات ، برغم شكه في قيمتها الحقيقية لما يعلمه عن مصادرها من تزيد وافتعال ، « إنها حيلة العاجز ، ومع ذلك ... هل لديك بديل ؟ » همّ أن يمد يده إلى جهاز التليفون ليطلب بعض من يعرف في الجهاز الخاص حين برق في خاطره بارق أمل « المفروض أن يكون في الوزارة معلومات الأجهزة المختلفة ، فلا داعي للطلب من الجهاز الخاص ، فانهم دائما يطلبون الثمن ، ولا ينبغي أن تسمح الظروف أن تجعلك من كتبة مثل هذه التقارير ، فليكن الطلب من أميمة » .

أتاه صوتها – فور طلب رقمها – مستطلعا حذرا :

– من يتكلم ؟ .

فرد بثقة من يظن أن له دالّة :

– حسبتك ستعرفين صوتي .

فأجابت بصرامة من تعود الحسم :

– لا أعرف صوتك ، فإما أن تقول من أنت وإما أن أغلق التليفون .

فعقب باستسلام مقهور :

– ماهر الجندي .

وأردف اسمه بالاعتذار عن الاتصال في وقت غير مناسب ، بدا في اعتذاه صادقا رقيقا إلى الحد الذي أحست معه بالإشفاق عليه ، وقادتها الشفقه إلى رقة مماثلة ، فقررت صادقة أن كل الأوقات بالنسبة له مناسبة . انزاح ستار الصرامة وحل محله أنس دافئ شع في النفس بهجة مثيرة ، وأخذا يثرثران دون أن يعبا أحيانا ما يقولان ، وأوشكت الثرثرة أن تفضي بهما إلى آفاق ظنها محظورة حين تنبه إلى أن عليه أن يوضح لها سبب الاتصال :

- طبعا لديك أشياء عن جبهة الرفض .

ردت مستفسرة .

- أي جبهة ؟ .

تساءل بقلق :

- أهم كثير .

فأجابت بحذر تلقائي .

- ربما .

أسلمه حذرها إلى توتر ، فداخلت النفس حيرة : « *هل ما لديها من أوامر تسمح لها بلقاء مباشر* » ، قال بحذر من يرتاد طريقا شائكا حافي القدمين :

- أظن أنه يحسن أن نلتقي .

فجاءه صوتها مرحا :

- لقاء عمل طبعا .

تابع وقد شجعته الكلمات :

- يحسن أن يكون عشاء عمل ، فإني لم أتناول طعاما طول النهار .

ردت مصطنعة اللوم :

- لا أتناول العشاء مع رجل غريب .

فعقب متصنعا الغضب :

- ظننت أني لم أعد غريبا .

فعقبت في سرها مستنكرة : « *ستظل غريبا حتى لو جمعنا فراش واحد* » . وقاطعته لائمة بدلال :

- أنت غريب حتى عن نفسك .

مست عبارتها وترا مشدودا « *هل تلمح إلى ما جرى الليلة الماضية ؟ لكن من أين لها أن تعلم ، ليس الباشا مجنونا بعد حتى يخبرها* » وهمّ أن يستسلم لعبارتها ، ولكنه وجد نفسه يتجاوز الدفاع ويؤثر الهجوم :

- حتى لو كنت غريبا حتى الآن فسيأتي ما يجمع بين الغرباء .

هل أزعجتها الثقة فاضطرت أن ترد بتحد :

- لست ممن تعرف .

هل أثاره التحدي فدفعه إلى الاستمرار :

- سنتعشى في فندق على النيل وليس في شاليه يؤجر بالساعة على هضبة الهرم .

هل صدمتها الكلمات العارية فأحست بغضب حقيقي أو أنها كانت تتصنع الغضب حين قالت :

- يمكنك أن تحضر إلى الوزارة إذا أردت الاطلاع على شئ .

لماذا أبقت السماعة في يدها بعد أن أوشكت أن تضعها في مكانها ؟ هل تتيح له فرصة للتراجع ؟ كيف وقد تفجّر في أعماقه بركان الغضب ! غابت الإرادة والوعي فهل يستطيع أن يتوقف :

- لن أحضر إلى الوزارة ، وستحضرين بنفسك ما أريد .

- بعينك .

انفجر الضحك عاصفة ، كأنما كانت الكلمة تعويذة سحرية فتحت الباب المرصود :

- يا جبانة ، اطمئنى ، أنا لا آكل لحوما بشرية .

- طبعا ، يكفيك لحم النعاج .

عجبا ، كيف تتحول الكلمات الحمقى إلى سلم يصعد بهما إلى النجوم ، يطوفان ملتحمين الكون ، يتجولان في دروبه الفناء ، تمس أقدامهما العارية الأشجار المورقة في السحب ، يهيمان في الآفاق العليا كلما شدتهما الرغبة الموجعة إلى أعماق الأرض .

- اتفقنا .

- اتفقنا ، سأجهز لك صورة من التقارير التي تريدها حتى تلتقي في المساء ، لكن لا أريد أن أتأخر لأني لا أحب السهر .

- اتركي ذلك للظروف .

- ١٣ -

تركت « بشرى » الكتاب الذي تقرأ فيه مفتوحا وأغمضت عينيها وألقت برأسها إلى الخلف ، لقد استغرقتها الكلمات :

- يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة .
- لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت ، وإذا حكمت عدلت .
- ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله مغلولا يوم القيامة يده إلى عنقه ، فكّه برُّه أو أوثقه إثمه .
- ما من إمام ولا وال بات ليلة سوداء غاشًا لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة .
- لا قدست أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من قويها وهو غير مضطهد .
- سيكون عليكم أئمة يملكون أرزاقكم ، يحدّثونكم فيكذبون ، ويعملون ويسيئون العمل ، لا يرضون منكم حتى تحسّنوا قبيحهم وتصدّقوا كذبهم . فأعطوهم الحق ما رضوا به ، فإذا تجاوزوا فمن قتل على ذلك فهو شهيد .

هزها حتى النخاع ما تكشف لها من ولع بالعدل ، وإحساس عميق بمسئولية السلطة ومسئولية الشعب معا عن إقامته ، والدعوة الواضحة إلى مقاومة الفساد في القمة إلى الدرجة التي تجعل من يقتل في هذه المقاومة شهيدا « كيف تنبت مثل

هذه الأفكار في تلك البيئة الصحراوية المتخلفة التي لم تحقق أدنى قسط من التطور الحضاري الإنساني في تلك المرحلة التاريخية . إن تلك البيئة في التحليل العلمي بيئة قبلية سابقة في تركيبها الاجتماعي على مرحلة الإحساس بالروابط الطبقية أو الوطنية ، وتفتقر بالضرورة إلى الوعي بالمقومات الأساسية للشعور المشترك الذي يجمع الشعب الواحد أو الطبقة الواحدة ، فهي أشبه بالأميبا ، في حاجة إلى مرحلة طويلة من التطور الحيوي حتى تصبح كيانا نشطا في سلم الوجود الاجتماعي » .

عادت من جديد إلى الكلمات تقرأها كلمة كلمة ، واستقطر عقلها ما تقرأ فإذا هو تجسيد لقانون الوجود ، لعبة شد الحبل التاريخية بين الحاكم والمحكوم ، ودعوة المحكوم إلى التصدي للحاكم مهما كانت النتائج ، لأن الحكم بطبيعته مفسدة : « كيف نبتت هذه الأفكار في تلك البيئة ؟ لو أنها وجدت في فارس أو الروم أو الصين أو الهند أو مصر القديمة لكانت منطقية ، بحكم ترقيها في سلم التطور الاجتماعي ، لكن أن توجد هذه الأفكار – على هذا النحو – في تلك البيئة ، في ذلك الزمان ، فأمر يند عن الفهم ، هل يمكن أن تكون مصادفة ؟ لكن قوانين العلم تنأى عن المصادفات ، هل يمكن أن تكون تعبيرا علويا عن حاجة الروح الإنسانية إلى المثال ؟ لكن أليس التطلع إلى مثال مرهونا موضوعيا بإدراك المثال ؟ وأليس إدراك المثال نتيجة حتمية للعلاقات الفكرية ؟ وأليست العلاقات الفكرية السطح العلوي للبنية الاجتماعية في بساطتها وتركيبها ، في اتساقها وتضاربها . إنه ليس في وسع عقل هو نتاج تلك البيئة بعينها وظروفها أن يستوعب أخطر ظواهر الفساد في المجتمع الإنساني كله وأن يضع مع ذلك أسس التصدي لها . إذ كيف يتصور أن يأخذ ضعيف حقه من القوى وهو آمن إلا إذا كان يستند إلى رأى عام حاسم التأثير يقدس العدل الاجتماعي ويقاتل دونه ؟ إن الكلمات

تتضمن في باطنها فضلا عن ظاهرها دعوة إلى وحدة الجماهير وتصديها للدفاع عن مصالحها . إنها كلمات تستقطر خلاصة التجربة الإنسانية والمجتمع الإنساني ، باتساع آفاقها وتعدد مستوياتها وتشابك علاقاتها وتناقض مصالحها ، إنها مازالت بالفعل كلمات مضيئة » .

أعادها من استغراقها دقات خفيفة على باب الحجرة وصريره وهو يفتح ، نظرت بشرى فالتقت عيناها بعيني أمها ، ألجمتها المفاجأة لحظات ، لقد كانت المرة الأولى التي تبادر فيها أمها بالحضور إلى حجرتها منذ نال منها مرضها ، قفزت بشرى مسرعة وقد أشرق وجهها فاحتضنت أمها التي استسلمت لها كرضيع يلوذ بحاضنته ، وتوجها ملتصقتين إلى الفراش فجلستا وبشرى لا تكف عن الحديث :

– مررت عليك منذ ساعة فوجدتك نائمة ولم أرد أن أوقظك ، قلت أقرا قليلا حتى تستيقظي فنتعشى معا ، أتعرفين ؟ أنا سعيدة جدا اليوم ، في غاية السعادة .

هل لمحت في عيني أمها تساؤلا فاستمرت :

– أولا لأنك نمت جيدا إلى الدرجة التي لم تحسي بي فيها وأنا أدخل عليك ، ثانيا لأنك حين استيقظت مررت علي (بيبي) حبيبتك كما كنت تفعلين في الأيام القديمة ، ثالثا لأننا في الكلية نقوم بنشاط هائل ، صحيح أنه نشاط متعب لكنه مثمر ، لقد غطينا الآن معظم كليات الجامعة ونخطط للانتشار خارجها ، لن تتصوري مدى السعادة وأنت تكسبين في كل لقاء عناصر جديدة تشاركك التفكير والعمل .

ضمتها أمها إلى صدرها برفق وربتت على شعرها ، فقبلتها بشرى في وجنتيها وأضافت كأنما تطمئنها :

– خوفك على شبيه بخوف أحمد ، يقول إن الحكم الإرهابي قد يسمح بالتنفيس ولكنه لا يسمح بحرية الرأي ، ويحذرني من حماسي ، لا أدري لماذا الخوف ، نحن لا نحمل بندقية ولا قنبلة ، نحن نتحاور ونتناقش ويجب أن يستمر ذلك حتى نوقظ

النائمين من سباتهم .

توقفت فجأة وقالت وهي تنهض :

- أنا جائعة وليتك تشاركينني الطعام ، دقيقة واحدة ويكون العشاء جاهزا .

ولم يستغرق إعداد العشاء فعلا إلا دقائق محدودة عادت بعدها بشرى لتضع الصينية الصغيرة بينها وبين أمها على الفراش ، ولتحثها على تناول الطعام معها ، واستأنفت حديثها دون أن تنتظر جوابا :

- أنا جائعة جدا يا مامي ، هل لديك تفسير علمي لهذا ؟ الشائع أن السعادة تسلم إلى الشبع وأن السعيد لا يحس بالجوع ، لكنني على العكس تماما أحس برغبة شديدة في الطعام .

هل لمحت على وجه أمها ابتسامة حملت إليها الأمل فتابعت ضاحكة :

- تصوري ! لقد اكتشفت اكتشافا خطيرا ، فقد فهمت الآن لماذا يحرص حكام العالم الثالث على إتعاس شعوبهم ، حتى تظل شعوبهم جائعة من غير أن تحس بمدى حاجتها إلى الطعام .

استبدت بها رغبة طاغية في أن تتكلم وتتكلم ، زادتها اشتعالا ما لمحته في عيون أمها المجهدة من رضا مستكن ، لقد كانت على يقين من أنها حتى لو كانت تهذي فإنها قادرة على أن تحقق لها الكثير .

- ١٤ -

أجال الدكتور شوقي في خاطره وهو يسير الهويني على شاطئ النيل في العجوزة كلمات ابنته وتحليلاتها ، وتمتم أسيان بصوت غير مسموع :

- إنك ما زلت صغيرة ومتسرعة في إصدار الأحكام . أين ذلك التصدي ؟ ! .

« بنيت قصورك شامخة

في أحلام وردية

من أطياف ذهبية

بأنغام العشق الأبدي

لكن صحابك ليسوا عشاقا

أيديهم تقصر عن حلمك

مسمعهم يخرس عن صوتك

أعينهم يغشيها النور

لأن صحابك ليسوا عشاقا » .

وتذكر ذهابه إلى الكلية ولقاءه بعدد من زملائه في القسم وفي بعض الأقسام

الأخرى ، لم يجد أي أشارة تدل على ما ادعته ابنته من تأجج يقظة فكرية تموج بها الكلية ، بل على العكس من ذلك ، لقد قابلته نظرات غير عادية تتراوح بين الإشفاق والسخرية وكأن أصحابها يقولون له : « *ها هو صديقك اللدود يحقق أحلامه القديمة وما زلت أنت حيث كنت لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام* » واستقبله بدلا من الحوار العاصف الذي توقعه صمت غير مألوف مما دل عنده على رغبتهم الكاملة في تجنب أي حديث قد يفضي بهم إلى حدث الساعة الملح ، « *أليس ذلك برهانا آخر على تمكن السلبية التي استبدت بعقولهم ومحت إرادتهم حتى استكانوا إليها* :

تلك كلاب ضالة

تنتظر فتاة من خبز الرحمة

يلقيه إليها إله العصر الأغبر

الذي تفرد بالملكوت

وإلهها يحتكر الخبز

لنفسه يحتكر الخبز

لتبقى تأكلها الرغبة

ستبقى تمضغها الذلة

تنتظر فُتاتا من خبز الرحمة .

ستبقى تمضغها الذلة ... تنتظر فُتاتا ... أبداً لا يأتي ... » .

أخذ يختلس النظر إلى السماء مرة بعد مرة وهو يسير متأملا ، فبدت له كئيبة سوداء ، شئ ما يبدد صفاءها ويلوث ضياءها ، توقف مرة بعد مرة محاولا أن يرى نجما واحدا ولكنه أحس بالأسى بعد أن انتهت محاولاته إلى الفشل ، لم يجد نجما واحدا من

تلك النجوم التي كانت تسعده في العهد القديم وتملؤه بهجة ممتعة حتى انه يطلق عليها أسماء بعض شخصيات روايات شكسبير وأعمال إبسن وموليير وروسو وزولا وهيجو وأوسكار وايلد ، منذ متى لم ير النجوم في السماء ؟ حاول أن يتذكر وإذا بتلك النكتة التي طالما استسخفها تعود إلى ذاكرته بحيويتها وتدفقها ، حين عرف المتعصبون الدينيون الذين كان معهم في معتقل الواحات هوايته فسألوه :

– لماذا لا تطلق على النجوم أسماء شيوعية ؟ .

فيرد أحدهم ساخرا :

– لأنه ليس للشيوعيين نجوم يهتدون بها .

فيقاطعه هو بأنفة :

– لأن الشيوعيين ليسوا في حاجة إلى النجوم ليهدوهم . إنهم يصنعون نجومهم بأيديهم وبأنفسهم وبنضالهم .

ويتساءل أحدهم بغلظة وكأنه مندهش :

– كما كان المشركون يفعلون ؟ .

فيعقب الأول ضاحكا :

– خسارة لأنهم لا يأكلونها بعد ذلك حين يجوعون .

فيقهقهون ، حتى تضج بصوت الضحكات صحراء المعتقل فتثير عواء الكلاب الحارسة دون أن يفهم لقهقهتهم السانجة سببا .

تعثر وقد استغرقته الذكريات حتى أوشك أن يسقط وهو يفقد توازنه أكثر من مرة إثر وقوعه في حفر الطريق وصدامه بالأحجار المتناثرة فوقه ، وفي مرة منها كان الحجر كبيرا إلى الدرجة التي أحس بعدها بألم في قدمه وساقه ، فلجأ إلى الإفريز المطل على النيل وأسند قدميه إليه وأخذ يدلك ساقه ، ولكنه أحس بعد لحظات بحاجة قدمه إلى

متابعة الدلك والراحة فجلس واضعا ساقه المتألمة على الساق الأخرى ، ثم خلع حذاءه ، وتحسس قدمه برفق وبدأ يدلكها بلطف .

أدركه شيء من خدر بدأت تلين معه قسمات وجهه المشدودة ، فألقى ببصره إلى النيل الذي كانت تنساب مياهه برفق حتى كأنها جامدة لا تتحرك ، تتراقص فوقها أضواء من الجانب الآخر ، إنه يستطيع من مكانه أن يحدد بعض معالم الجزيرة : *« هناك بعيدا نادي الصفوة العليا ، وهناك في الطرف الآخر كان مبنى طالما صنع التاريخ . وقد احتل موضعه فندق ذو نجوم خمسة ، يرتع فيه السادة الأجانب ، وعملاؤهم من الخونة والانتهازيين والطفيليين .*

أما أبناء الشعب المطحون

جند الثورة .

فقد صاروا السادة :

خدما ... يتلقون الصفعات ،

عبيدا .. تضرع الركلات ،

عاهرات .. تمتص الإفرازات ،

قفازات للأيدي القذرة » .

الضوء المحدود يتراقص بالظلمة فتتولد أشكال شتى في غير نظام . *« هل ما تراه وجوه مألوفة ؟ هل تستطيع التمييز بينها ؟ العيون الدامية لا ترى إلا مساحات لحمية لزجة خالية من الملامح ، ما هي ذي معالمها تتشكل أمامك ، كيف تتشكل وقد أغمضت عينيك فلا تريان ! لست في حاجة إلى عينين لترى ، إنك ترى ما لا يراه الآخرون ، ترى حتى*

النظرات الموحدة في الأحداق ، ترى حتى الخلجات في الأعماق ، ترى حتى الأطياف في الأحلام ، ترى حتى الأجنة في الأرحام ، ألم تر ما كان قبل أن يكون ، ألا ترى ما سيكون وكأنه كائن .

تومض في أعماق الليل
عشرات ، مئات ، آلاف عيون بشرية
تنهض وثبا
تتفجر في قاع النيل
شلالات دموية
تهدر صخبا
إذا هي طوفان من دم
طوفان يغرق كل فجاج الأرض
أيتها الأرض الدنسة بالصمت الواجف
بشراك بطوفان كاسح
لن ينجو منه أحد
حتى الموتى » .

✍ ✍ ✍

- ١٥ -

- « لم لا تشغل نفسك بالنظر إلى الماء يهدهد الزوارق الخشبية التي تحمل العشاق أزواجا لتنطلق بهم في أحلام وردية ؟ ! .

- هل يتصور الماء وهو قائم في عتوه وكبريائه أنه سيصبح في النهاية ذليلا يركب متنه طالب متعة ليلية ! .

- ما لك لا ترى الأضواء الملونة تتراقص حول النافورة التي تتوسط النهر وترتفع بمياهه محررة إياها من ربقة المكان ، ماضية بها في أفق الليل الساجي ؟ .

- مهما انطلقت هل تتحرر ؟ ستعود ثانية من حيث بدأت بعد أن زادتها الحركة تلوثا ! .

- أرأيت الى الشيخ الطاعن ممسكا بنايه العجوز يعزف تحية للذين يتجولون على المرسى النهري منتظرا أن يغري منهم من يحمله في الزورق ، حيث يشحذ في الظلمة سمعه ويمد يده حتى يملأ حين يثوب فم حبيبته الصغيرة التي تنتظره في أدفو ، بجوفها .

- من أدراك أنه ليس واهما ، وأن حبيبته مكتظة الحشا وستبقى حتى بعد عودته فاغرة الأفواه .

- أنت تملأ أفواها وأحشاء وليس لك من ينتظر .

- لا تنتظر ! الانتظار لعبة لا قبل لك بها ، فبها وفيها أنت عاجز إذ لا تملك غير الأحلام ، وليس لك أن تكتفي بأحلام . فالحلم يبدد أيامك ، يبعثر ساعاتك ، يمحو لحظاتك ، يدع حياتك ثكلى بالآمال الموءودة .

- لحظاتك أبدا لا تنفد ، نام الزمن داخلها ، تمدد ، كل واحدة منها تحمل في جوفها دهرا تلد كل لحظة منه دهورا ، والزمن الميت يعصف بالأمل الذاوي ولا يبقى غير اليأس يضرب في الأعماق جذورا .

- عليك اللعنة لِمَ تضع نفسك هذا الموضع ، لا شئ أبدا يستحق أن تنتظر ، فلا تنتظر » .

كان ماهر يهم بمغادرة موقعه في شرفة الكافتيريا المطلة على المرسى النهري للفندق الفاخر حين أتاه همسها الدافئ :

- مكان شاعري .

أوشك أن ينفجر بالكلمات لكنه عقلها وهي بين شفتيه ، حسبه أنها جاءت ، اكتفى بالنظر إليها بإمعان وهو يسحب المقعد ليجلسها في مواجهته وليس إلى جواره ، فردت على النظرة بأخرى ضاحكة ، هل ما لمحه في عينيها شئ من العبث ؟ وهل ما لمحته في عينيه طيف من غضب ؟ هل ينبغي أن يبدأ اللقاء عاصفا ؟ .

قال وهو يرنو إلى وجهها :

- ظننت أنك تجاوزت هذه المرحلة .

هزت رأسها لترفع خصلة الشعر الملونة النائمة على الجبين اللامع وهي تتساءل :

– أي مرحلة ؟ .

فعربدت نظرته فوق الشفاه وكأنها تستوثق : أهي يقظى أم نائمة ، وأضاف :

– المرحلة التي تحس فيها المرأة بأنها يجب أن تتأخر حتى تتركه يعاني من الانتظار .

في اللحظة التي مست العبارة فيها أذنيها بنبرة لوم كانت تتسلل إلى وجدانها لتعزف نغمة نشوة « *ها هوذا يعبر عن غضبه بطريقة ساذجة ، إنه ليس كما يبدوا من بعيد واثقا متمكنا مسيطرا ، ها هو ذا بين يديها يعاني من الحيرة ، إنها تستطيع أن تضعه حيث تشاء ، وأن تصنع به ما تشاء* » .

أشرقت الابتسامة في عينيها وشعت بها الشفاه وهي تقول :

– هل أفهم من هذا أنك عانيت في انتظاري ؟ .

همّ أن يقول :

– كثيرا .

ولكنه اكتفى بالصمت ، أحست بعنائه في التردد بين الرغبة في التصريح وخشيته منه ، فمدت له ببسمتها المتألقة جسرا يعبر عليه ، وحثته العينان الدعجاوان على المضي فيه ، استقبل دعوتها ببهجة موءودة : « *هل ما تعدين به تعبير عن إحساس صادق تذكيه الرغبة في الأعماق أو مجرد طلاء مرسوم طبقا لأمر معلوم ؟* » .

قالت عيناه لعينيها وهو يرفع كأس العصير إلى شفتيه :

– أمرك محير .

وردت عيناها دون أن تمد إلى كأسها يدا :

- الحيرة فيك أنت .

هل كان يحاول الاستجابة لدعوتها حين قال وهو يحدق في شفتيها :

- أحب أن نكون أصدقاء .

وهل كانت تحاول أن تحثه على الاقتراب حين تساءلت باسمة :

- وهل تؤمن بالصداقة بين رجل وامرأة ؟ .

وهل كان صادقا حين أجاب من غير تردد :

- كما أومن بالصداقة بين رجل ورجل .

ردت بابتسامة غامضة ، ثم أردفت :

- هل أنت سياسي ؟ .

فتساءل دون اهتمام :

- لماذا ؟ .

فقالت بتلقائية من يقرر مسلمات :

- لأن السياسة لا تعرف الصداقة .

بدت العبارة مفاجئة فتساءل بدهشة :

- لماذا ؟ .

فتابعت كأنما تحدث نفسها :

- لأن السياسيين الصغار عبيد لتطلعاتهم ، والكبار عبيد لنزواتهم ، والعبيد لا يصلحون أصدقاء .

فقاطعها بأنفة :

- أنا لست سياسيا ، أنا صحفي .

فعقبت بسرعة :

- يا لهوى ، ألعن .

أوشك أن ينفعل فلم تلق إلى انفعاله بالا واستمرت كأنها تستفزه عامدة :

- الصحفيون عبيد للسياسيين .

فنظر إليها بحدة مغيظ يحرص على ألا تفلت أعصابه ، وقال وهو يضغط على الكلمات:

- معلوماتك خاطئة تماما ، ولا بد أن تتعلمي الحقيقة .

هل كانت تحاول أن تسترضيه حين ردت بدلال :

- أنا مستعدة ولا خبرة لي ، علمني .

نظر إليها بإمعان صامتا ، كانت نظرتها - كصوتها - تشبه عبارتها في القدرة على أن تتنقل به في لحظات بين السخط والرضا ، بين اليقين والشك ، أهي تداعبه أو تعلن استعدادها للمضي معه إلى حيث يريد ؟ أهي تعبث به أو تستسلم له ؟ أسند ظهره إلى الكرسي ومد قدميه تحت المائدة وقال يهدد بإصبعه محذرا :

- ولكني أستاذ صعب .

فهمست بصوت مغرد كأنما تمنحه مختاره علم القيادة :

- ستجدني تلميذة طيعة .

حدق في عينها ريما ليتأكد ، ثم أشار مستدعيا المتر وهو يقول :

- إذن فلنتناول الطعام قبل أن نبدأ الدرس الأول .

✍ ✍ ✍

- ١٦ -

عادت بشرى إلى حجرتها بعد أن صحبت أمها إلى فراشها وتركتها فيه مسترخية تستعد للنوم ، لقد كانت بدورها تستعد للنوم بعد أن طال بها السهر . ولكنها ما كادت تضع نفسها في الفراش حتى أحست بأن نشاطها الذهني في قمته وأن لياقتها الجسدية في ذروتها ، فعاودتها الرغبة في أن تتابع قراءة ما بدأت من الكتاب الذي أعطاه لها أحمد . جلست في فراشها ومدت إلى الكومودينو يدها والتقطت الكتاب ، وكأنما تذكرت شيئا فأعادته إلى موضعه ونهضت إلى الحمام فغسلت وجهها ثم عادت لتمسك بالكتاب ثانية ، ثم فتحته حيث كانت قد توقفت في قراءتها ، ولكنها أغلقته مرة أخرى وإن ظلت ممسكة به بين راحتيها . لقد أحست بأن لمحة تعاطف تتسلل إلى وجدانها تجاهه . وقد تعلمت أن الدرس الأول في العمل العلمي الحياد المطلق ، وأن العلم لا يقبل الأحكام السابقة مهما كان شيوعها أو اتفاقها مع ميولنا وإنما يجب أن نخضعها للتحليل الذي يجب أن يبرأ من الأفكار السابقة ومن المشاعر والميول حبا وبغضا ، فإذا كان لها أن تتعاطف فمع حقائق العلم وحدها دون سواها ، وفي طليعة هذه الحقائق الطبقة المسحوقة وحدها والمثقفون الثوريون الذي يتبنون قضاياها ويعبرون عنها ، أبدا لن تتعاطف مع هذا الكتاب ، وعلى هذا الإحساس وحده يجب أن تتعامل معه .

وفتحت الكتاب لتقرأ :

- أفضل الكسب عمل الرجل بيده .
- أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه .
- احتكار الطعام إلحاد .
- المحتكر ملعون .
- بئس العبد المحتكر .
- أيما أهل بلدة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى .
- أكثر الناس شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة .

استمرت تقرأ صفحة بعد صفحة ، ولكن التفكير شرع يلح عليها كلما قرأت عبارة جديدة ، حتى انها اضطرت بعد أن شغلها التفكير أن تغلق الكتاب وسبابتها بين صفحاته : « *من الواضح تماما إلى أي جهة ينتمي النبي محمد ، ومع أي فريق يقف ، وعن أي شئ يدافع ، فهل يمكن اتخاذ موقف معاد من هذه الآراء ؟ ! الا يعد ذلك تناقضا مع الآراء التي تعلمتها وآمنت بها والقيم التي ربيت عليها وجعلتها حكما في علاقاتك بالآخرين سلبا وإيجابا ؟ هل يمكن عدم التعاطف مع هذه الأفكار ؟ ! الا يصبح ذلك تنكرا لكل ما ملأ حياتك بالمشاعر والأحاسيس والفخار* » .

استغرقت في التفكير حتى فاجأها صوت أبيها قادما من الأنتريه :

- ألم تنامي بعد ؟ .

تساءلت في داخلها : « *كيف لم أحس بعودته ؟* » وردت :

- أقرأ قليلا .

ثم أردفت بتلقائية :

- تأخرت الليلة .

فقال باستهانة وقد وقف بباب الحجرة :

- بل حضرت مبكرا ، لقد كان في نيتي أن أذهب إلى سوق الحميدية ولكنني عدلت .

تساءلت بعفوية :

- ما زالوا يلتقون هناك ؟ .

فرد بسخرية :

- لابد أن يكونوا هناك ، أين يذهبون ؟ .

هل فطن إلى الكتاب الذي في يدها حين سأل :

- ماذا تقرئين ؟ .

وهل أجابته بدقة حين لوحت بالكتاب وهي تقول :

- نصوص قديمة .

تساءل مبتسما – ربما للمرة الأولى هذا المساء :

- هل لديك مانع من الاستماع إلى نصوص حديثة ؟ .

فردت بثقة :

- لقد كتبتَ شعرا ؟ .

فلما هز رأسه إيجابا أردفت بسعادة :

- أقرأه ، أرجوك .

فأمسك بمعصمها ليقودها إلى الصومعة وهو يقول :

- بل ستسمعين ، فإن لي رغبة غير عادية في أن أقول ما أكتب ، بي شغف لأن أسمع إلقائي لشعري .

-١٧-

قالت « أميمة » لنفسها وهي تركن سيارتها الصغيرة في مكانها المعتاد حين تكون بسبيلها إلى قضاء سهرة غير عادية :

« آن الأوان لتجددي حياتك الراكدة التي تمضي على وتيرة واحدة ، إنك دائما تتعاملين مع أجانب كجسد مثير ، ألا تجربين أن تكوني طالبة لجسد لا يقل إثارة ، هل رأيت جسدا أجمل منه يملأ العين والقلب ؟؟ » .

ولكنها لم تكد تتم وضع سيارتها وتغادرها متجهة إلى سيارة ماهر على بعد خطوات حتى ألح عليها إحساس « وهل يرضى غرور مصري أن يحس أنه مطارد ؟ يجب أن تكوني لديك القدرة على أن توهميه أنه هو الذي يطاردك » .

صحبته في سيارته يجوبان شوارع القاهرة حتى انقضى شطر كبير من الليل ، ثم أخذا يتنقلان بين كافتيريات الفنادق الفاخرة التي تعود التردد عليها حين يريد أن يعلن عن بدء علاقة جديدة . كان وجودهما معا يشد إليهما الأنظار بما يمثلانه مجتمعين من تكوين جسدي رائع الانسجام للكيان المتناغم للذكر والأنثى ، وكان ذلك يثير فيه شيئا من

الزهو أقرب إلى العُجْب ، فيمضي مختالا وقد علقها بعضده حينا ، وأمسك كفها الصغيرة بقبضته حينا ، ولكن ظل رضاه الداخلي مجرد قشرة هشة يمور تحتها مزيج من القلق والتوتر والترقب ، إنها حتى الآن تستجيب لما يفعل سعيدة به ، فهل هو بذلك يفعل ما تريده أو أنها تملى له حتى يكشف عما يريد . إنه لا يستطيع برغم أحاديثهما الطويلة معا أن يحدد رد فعلها لو دعاها إلى منزله ، هل ستكون مثل الأخريات في حاجة إلى إلحاح ووعود ، أو ستعيده من حيث بدأ : يعانى من التخبط دون أن يستقر على حال ، هل يمضي إلى نهاية الشوط أم يتوقف .

قال لنفسه وهما يأخذان مكانهما في الكافتيريا العلوية المطلة على الصحراء الموحشة المظلمة من ناحية والمشرفة على الطريق السريع الغارق في الأضواء الموصل إلى المطار من ناحية أخرى : *« عليك أن تتخلص من عادتك في ابتسار التجارب معهن . حاول هذه المرة أن تبذل جهدا لنجاح التجربة . عليك بالصبر ، إنها يجب أن تعامل معاملة خاصة ، فهي ليست من الطراز الذي تبهره الشهرة أو تدغدغ حواسه الكلمات ، إنها ملأى ، وهذا واضح من طريقتها في التعامل معك فقد جعلتك أشبه بمن يسير على حبل مشدود ، ثم إن كونك فارسا يمتطي وزيرها يجب أن يعطيك الثقة ، ولكن لا يصح أن يدفعك إلى التهور » .*

تنهد بصوت مسموع وهو يمسح بعينيه الطريق الذي يتألق بالأضواء الثابتة والمتحركة الصادرة عن السيارات المتعاقبة التي لا يتوقف وميضها ، وقال :

– أحب السفر دائما .

فعقبت بأسى :

– لم أسافر كثيرا ، بل لم أركب طائرات على الإطلاق إلا مرات قليلة .

رد وكأنه يخفف عنها :

– يمكن للإنسان أن يسافر دون أن يغادر بيته :

فهمست بسخرية :

- ذاك سفر الأحلام الذي لا يرضى به إلا العاجزون .

فقاطعها وهو يربت على ساعدها :

- وأنت لست منهم طبعا .

فابتسمت وهي تقول :

- مجاملة لطيفة .

هل كانت تبتسم لكلماته حتى يستمر فيبعدها عن التفكير الذي فوجئت به على غير انتظار : « *من أدراك أني لست عاجزة ، أنت كغيرك لا ترى إلا التمثال الفاتن السيدة القوية الواثقة التي تفعل ما تريد دون أن تخشى شيئا ، لكنك لا تدري أن كل الذي يربط هذا التمثال بالواقع مجرد الشكل الخارجي ، أما الأعماق فتلك السيدة مملوءة رعبا ، إنها لا تستطيع أن تنسى - ولو لحظة واحدة - لأنها يجب أن تدفع في كل لحظة الثمن لتبقى صورتها كما هي ، دون أن تمتد إليها يد باطشة فتعيدها إلى الوراء من جديد* » .

ألحت عليها - برغم مشاركتها له الحديث والشراب - ذكريات أيام كئيبة ، حين كانت تشارك أسرتها التي بعثرت بعد ذلك في كشك الايواء الخشبي المتهرئ في زينهم حياة أقرب إلى حياة الحيوانات . تستيقظ في الليل لا تدري هل ما يوقظها همسات رغبة عطشى في كشك مجاور تحاول الارتواء متدثرة بوشاح الظلمة السابغ أو وسوسة يقظى تتصاعد من الصدر الهائم لتطرق الأذن الغافية ، تفترف عيناها مغمضتين إيقاعات أجساد مزججة بأصوات أزلية يرن صداها تحت جلدها قشعريرة مفعمة بالاشمئزاز . تتفتح العينان وتتوتر بلهيب قيظ يشوي الأجساد شبه العارية . هل تستطيع أن تنسى كيف كانت تنهض متحسسة ما حولها حتى لا تتعثر في الأجساد التي يتصاعد عزفها بغير انتظام ، سائرة على ست : كفيها وركبتيها وقدميها ، محاذرة

أن تصدر عنها نأمة واحدة تشد إليها أننا ربما كانت ما زالت على الصراط بين اليقظة والنوم ، تتسلل من تحت طرف البطانية العسكرية القديمة التي تغطى الفتحة التي يفترض أنها باب حتى تسبق إلى دورة المياة الخشبية المبطنة بالصفيح الصدئ ، ضارعة ألا يكون قد سبقها إليها أحد ، وحين تصل وتحاول زحزحة الباب الذي لا يغلق إلا بحجر من ورائه وتكتشف أن أحدا في الداخل تبكي في أعماقها مبتهلة أن ينفرج في كل لحظة حتى تتلخص مما هي فيه ، مما هو فيها ، لكن اللحظة لا تمضي وكأنها دهر لا ينقضي .

برغم المشاركة المتقطعة سرعان ما ران صمتها ، وخبت ضحكتها ، ظل يتحدث فترة إلى أن فطن إلى عدم مشاركتها له فنظر إليها مليا ، كانت عيناها تشيان بأثر الرحلة ، فبقي محدقا : « *هل تتذكرين رجلا آخر وأنا معك ، إنني قادر على أن أنسيك الدنيا بأسرها ، فقط أعطني الفرصة وسترين* » التفتت إليه فوجلت إذ رأته يرنو إليها ليصب في عينيها رغبة مشبوبة كانت قادرة في موقف آخر على أن تشعل ما خبا ، ولكنها في هذه المرة كبت دون غايتها فلم تستطع أن توقظ ما راح في سبات ، كانت تفضحها آهة حرّى تتردد في الصدر وهي ترد بصوت واهن داهمه إحساس غير مفهوم ، لعله مزيج من التمرد والاستكانة :

– ألم تتعب بعد ؟ .

سألها وفي صوته شئ من المباهاة الموشاة بإشفاق :

– أنا عادة لا أتعب ، فهل تعبت أنت ؟

هزت رأسها مؤكدة فقاطعها معترضا :

– نحن لم نبدأ جولتنا الحقيقة بعد .

ردت بجزع مصنوع وقد استردت إدراكها لما حولها :

– يا لهوى .

فعقب وهو يواصل النظر في عينيها :

- لقد وعدتني أن تتعرفي إلى عالمي .

هل شجّعه صمتها أم بريق عينيها الذي أحس معه في لحظة واحدة بأن الحذر المسرف قد يضيع الفرصة المواتية حين قال :

- على كل نستطيع أن نختزل جولتنا إذا وافقت .

فردت بابتسامة غامضة . هل كانت تتوقع ما سيحدث حين قالت :

- أنا موافقة على أي شئ تقترحه حتى أستريح من التعب .

قال وهو ينهض بسرعة من يخشى أن تعدل عن رأيها :

- إذن ... إلى العرين .

تمتمت مستسلمة:

- عرين عرين . المهم أن استريح فقد هدني التعب .

هل وعت ما قال ؟ هل وعت ما قالت ؟ نهضت صامتة وقد تعلقت بذراعه فأخذ يثرثر في بهجة من حقق نصرا :

- صحيح أنه لا يليق بالمقام ، وأنه ليس معدا لا ستقبال الأميرة ولكني أعتقد أن أميرتي متواضعة وأن ...

توقفت وقاطعته مستنكرة :

- أي أميرة .

فواصل بصخب من فقد توازنه :

- أنت بالطبع .

وتابع وهو يفتح لها باب السيارة :

- لقد منحتك هذا اللقب منذ رأيتك .

تمتمت لنفسها هامسة وهو يدور حول السيارة ليفتح لنفسه بابها :

- أرجوك ، لا تبالغ ، نحن لم نبدأ بعد ، أليس من الجائز ألا أعجبك .

✍ ✍ ✍

- ١٨ -

مد ماهر يده ليتناول علبه السجائر الملقاة فوق الكومودينو الملاصق للفراش من ناحيتها فلاحظ لأول مرة وجود الملف الأزرق ، ولم يكن قد فطن – في غمرة انفعالاته وهو يقودها إلى الحجرة – إلى أنها قد اصطحبته معها . أشعل سيجارة وهو مستند بجذعه إلى ظهر السرير المبطن بالساتان الوردي وأخذ نفسا عميقا احتبسه في فمه ، ثم أخرجه في شكل دفعات صغيرة متتابعة قبل أن يقول مستفسرا :

- هذا كل ما عندك ؟ .

أدركت أميمة ما يشير إليه فتمطت كهرة مكتظة ، ثم مدت يدها فالتقطت السيجارة من بين شفتيه لتضعها في فمها قبل أن تجيب :

- كلا بالطبع ، هناك أشياء أخرى كثيرة .

مد يده ليلتقط من العلبة سيجارة أخرى عوضا عن التي أخذتها ، فسارعت بانتزاع السيجارة من بين أصابعه قبل أن يشعلها ، ونقلت السيجارة المشتعلة من فمها إلى فمه . همّ بأن يأخذ منها نفسا ولكنه عدل ووضعها بين إصبعيه ، والتفت إليها مستغربا :

- ولم لم تحضر بها معك ؟

ردت وهي تحيط خصره بذراعها وتتمسح في شعر صدره بوجهها :

- لأنك لم تطلبها ، لقد أحضرت لك ما طلبت .

وهل كان في مقدورها أن تصرح ولو لنفسها بأنها احتفظت بها حتى تكون لديها فرص أخر للقاءات جديدة ؟ قال بضيق وهو يطفئ السيجارة :

- ظننتك أكثر ذكاء .

لم تغضب كما توقع ، بل همست في أذنه باستسلام وهي تداعبها بشفتيها :

- مر وعليّ التنفيذ .

ثم التفتت إليه بغتة لتقول - وكأنها تستأذنه :

- هل يمكن أن توصلني الآن ؟ .

فرد وهو يلتقط الملف قبل أن يضئ الثريا الملونة المعلقة في السقف وكأنه يطمئنها :

- سألقي نظرة سريعة إلى أن تخرجي من الحمام .

فاجأها الضوء فغاصت في الفراش وسارعت بسحب الغطاء فوقها كأنما خجلت من أن يراها شبه عارية قبل أن تهمس برجاء :

- ألا يمكن أن تقرأ في الأنتريه ؟ .

رد مستغربا :

- لماذا ؟ ! .

ثم أضاف بدهشة وكأنه يلمح إلى ما كان منها منذ وقت قصير :

- لا أصدق أنك تخجلين .

فأغمضت عينيها واستمرت ضارعة :

- أرجوك .

نهض متثاقلا وغادر الفراش ، ولكنه انحنى فجأة ونزع الغطاء من فوقها ولوح به في الهواء قبل أن يلقيه بعيدا ، فصرخت صرخة قصيرة وأنتها حتى لا يدوي صوتها في هدأة الليل الصامت ، وتداخلت تلقائيا فضمت فخذيها إلى صدرها وأغمضت عينيها فلم تره وهو يحدق مندهشا في الخطوط المنحنية والمستديرة التي تشكل بانسيابية أخاذة تضاريس الجسد العاري ، وكأنه لم يكن يحتويه منذ برهة قصيرة ، وفجأة جلجلت ضحكته مبتهجة وهو يغادر الغرفة عازفا بفمه نغما راقصا مقتبسا من الأغنية التي شاعت ترحيبا بمطلع الولاية الجديدة .

- ١٩ -

سأل أحمد بشرى وهما يعودان إلى الكلية بعد انتهاء مهرجان الشعر الذي عقد في نادي هيئة التدريس :

- لاحظت شيئا ؟ .

فردت بشرى بتلقائية متدفقة :

- أرجوك ، أنا سعيدة جدا فلا تفسد على سعادتي .

قاطعها أحمد لائما :

- لست أهرّج فلا تهرجي ، ألم تلاحظي شيئا ؟ .

كان يضغط على الكلمات ليؤكد أهميتها ، فتوقفت والتفتت إليه ودققت النظر فيه قبل أن تسأله :

- هناك شئ تريد أن تقوله ؟

فرد وهو ينطق الكلمات ببطء مبالغ فيه :

- لاحظت وجود عناصر تثير الشك .

ظلت صامتة تنتظر ، فأضاف موضحا :

- عناصر ليس لها اهتمام بالثقافة على الإطلاق .

فقاطعته :

- هذا أمر طبيعي ومطلوب ، ألسنا نعمل من أجل تحريك رأى عام . المفروض أن هذا يسعدنا .

رد بأناة ووجهه عابس :

- ليت ذلك حقيقة ، ولكن هذه العناصر ذات اتصال بأجهزة الأمن .

قالت بغير مبالاة :

- لا تكن سيئ الظن أكثر مما ينبغي .

وصمتت برهة قبل أن تضيف باسمة وكأنها تهون الأمر :

- ثم إننا لا نفعل شيئا مخالفا للقانون ، نحن نناقش قضايا أدبية وفكرية ومن حقنا كجامعيين أن يكون لنا موقف ، ألسنا دولة ديمقراطية ؟ .

هل أخطأت التقدير ليقاطعها بحدة غير معهودة :

- أرجوك ألا تحلمي ، إن نشاط عناصر الأمن معناه أنهم يرصدون حركاتنا ، وقد يرون في لحظة معينة خطورة هذه الحركات ، لا تفكري من وجهة نظرك وفكري كما يفكرون ، قد يرون من صالحهم - لمجرد أن يثبتوا نشاطهم - طبخ قضية لنا بصورة ما . علينا أن نفكر في هذا الاحتمال جيدا حتى لا نفاجأ بموقف غير محسوب .

تساءلت وقد انتقلت إليها عدوى القلق .

- بالرغم من أني لا أقر تحليلك لكني مع ذلك أعالجه كاحتمال فماذا تقترح .

رد بهدوء من عانى التفكير من قبل حتى استقر على رأي :

- نحن في الحقيقة أمام احتمالين ، إما أن نظل كما نحن مكشوفين تماما فنقدم أنفسنا دون مقابل ، وإما أن نحاول أن نتخذ وسائل مناسبة للتغطية الأمنية .

قالت بتلقائية :

- واضح أنك وصلت إلى رأى ، لأن الاحتمالين غير متساويين ، وليس هناك في الحقيقة إلا احتمال واحد .

قال وكأنه يوافقها :

- وصولي إلى تصور - أو حتى قرار - لا يعني إلزامك به ، لقد تعودنا أن نناقش معا جميع الاحتمالات ونحدد إيجابياتها وسلبياتها حتى يكون قرارنا في النهاية مبنيا على أساس صحيح وواضح لنا معا .

تمتمت مؤيدة وهي تقول :

- مازال أمامنا بعض الوقت ، هل تحب أن نذهب إلى المكتبة لمناقشة الموضوع .

فرد مبتسما ربما لأول مرة بعد خروجهما من مهرجان الشعر :

- أفضل أن نتناقش ونحن نتمشى على عادة عمكم سقراط .

نظرت إليه بدهشة فأضاف :

- لعله يحسن الآن أن نحدث بعض التعديل في عاداتنا اليومية .

عقّبت بتلقائية :

- لكننا بذلك نخالف تقاليد العم كانت .

فاستغرقا معا في ضحك هامس .

ثم عاد وجهه فاكتسى جدا صارما شأنه حين يشرع في عرض تحليلاته وهو يتابع :

- نبدأ أولا في تحديد الأخطار التي علينا أن نضعها في حسابنا ، طبيعتها ، ومستوياتها ، وأساليبها ، وبعد ذلك ندرس الوسائل المتاحة أمامنا لمواجهتها .

ومضيا في اتجاههما إلى شارع النيل يتحدثان .

- ٢٠ -

« ما هذا الهراء » .

أعاد ماهر مندهشا قراءة الملف – الذي تركته له أميمة – مرة بعد مرة ، لكنه كان دائما يخرج بنفس الانطباع الذي خرج به أول مرة ، فقد كان الملف يحتوي على صور من تقارير أمنية أعدها الجهاز الخاص عن العناصر التي اتخذت موقفا رافضا لمنح الجائزة للبرغوتي ، وهي العناصر المتهمة في ولائها للنظام . وكان الغريب في الأمر أن هذه العناصر تنتمي في مجموعها إلى اتجاهين متناقضين ، إذ تلتف مجموعة منها حول راشد محسن ، وهو مفكر يميني متهم بالتطرف الديني ، ذكرت التقارير أن له ملفا ضخما في قسم النشاط الارهابي ، وتتصل المجموعة الأخرى بصورة غير مباشرة بحلقة فاروق السيد ، الذي ذكرت التقارير عنه أنه مثقف يساري موسوم بالجمود الفكري ، إذ ظل ثابتا على أفكاره ومواقفه ولم يستطع مواءمة الظروف التي حولت الاتجاهات مائة وثمانين درجة ، وقد بدا لماهر أن ورود الاسمين في التقارير أمر عادي ، وإن كان اتفاقهما معا في المواقف بعد منح البرغوتي الجائزة أمرا غير مألوف ، لكن الذي أثاره أكثر من ذلك وجود مجموعة كبيرة من الأسماء المجهولة التي لم تحظ بقسط من الشهرة تسمح لها بأن تصل إلى أسماع ماهر الجندي ، فمن يكون فؤاد شاكر

ورشاد صابر ومنى صبحي ورمسيس صادق وبشرى أحمد ؟ من منهم يكتب الرواية ومن يقول الشعر ومن يؤلف المسرحيات ومن يمارس النقد الأدبي حتى يكون لهم موقف في منح جائزة الدولة التقديرية في الآداب ؟! . كانت الأسماء مستفزة تماما . وأحس بغيظ شديد إذ بدت وكأنها تتهمه بالجهل بالحركة الفكرية والثقافية ، وهو الذي لا يغيب عن حدث ثقافي في الداخل أو الخارج ، فضلا عن أنه يفرض على مساعديه من المحررين والمحررات متابعة كل ما يجدّ من أخبار في الساحة الأدبية والفنية والثقافية والفكرية بشكل عام ، هل كان يبرر موقفه داخليا حين استقر في وجدانه أنهم بالتأكيد ليسوا سوى مجموعات من الأقزام الذين يحاولون إثبات الذات فيمارسون نوعا من الهرطقة التي قد تنطلي على رجال الجهاز الخاص بحكم ثقافتهم المحدودة وجهلهم المطلق بطبيعة النشاط الفكري وعدم قدرتهم على التفرقة بين الأصيل والزائف فيه ، ولكنه قادر على أن يكشف زيفهم ويسحقهم ما داموا قد أطلوا برؤسهم . ألقى بالملف جانبا وضم قبضته بقوة وقال بصوت مفعم بالتحدي مترع بالثقة :

- يا أهلا بالمعارك ، لن أدع لكم فرصة واحدة للبقاء في الساحة الأدبية .

غمره نشاط حقيقي وهو يتصور الخطة التي يجب تنفيذها للمواجهة ، موقنا من النجاح بعد أن تحددت لديه القوى المعادية واتضحت اتجاهاتها ، وخطر بباله أن تشتمل الخطة على مقالات وتحقيقات صحفية وإذاعية وتليفزيونية ، ورأى أن من الضروري أن تشارك فيها قمم ثقافية ذات وزن جماهيري قد لا تكون راضية عن البرغوتي ولكنها يجب أن تتحالف من أجل نصرته ، إذ لم تعد القضية قضية شخص بل قضية موقف من النظام ، ولا يصح مطلقا أن يلتقي هؤلاء المفكرون في أي موقف مع اليمين أو اليسار مهما كانت درجة الصواب في موقفهما . وبدأ يحيل خواطره وأفكاره إلى كلمات مكتوبة .

أمسك بالأجندة الصغيرة التي لا تفارقه وسجل الإطار العام للحملة الإعلامية فكتب :

- الهدف مهاجمة اليمين واليسار معا ، وتحويل القضية إلى صراع بين الاستقلال الفكري والتبعية .

رفع عينيه فتعلقتا باللوحات المعلقة في الأنتريه من حوله ، إنها برغم كونها جميعا نسخا مقلدة من أعمال فنية إلا أنها تعطي - بصورة واضحة - دليلا رائعا على إعجاز التقليد . كانت ضربات الفرشاة الدقيقة الواثقة تصرخ في أعمال رينوار وجوجان ،. وكانت اللمسات الرقيقة تهمس في أعمال ديفنشي وبيكار ويوسف فرنسيس ، استغرق فيها لوحة إثر لوحة حتى انتهى إلى اللوحة الأخيرة التي كانت تتلقي جانبا من ظلال نموذج تمثال رأس نفرتيتي ، فانتقل إليه وظل يمعن فيه النظر وكأنه يراه لأول مرة ، ثم ما لبث أن انتقل إلى الزاوية الأخرى المقابلة حيث كان يقف تمثال فينوس المصبوب من الجص نموذجا مصغرا بالغ الدقة ، راحت عيناه تتنقلان بين التمثالين معجبا ، ثم وقع بصره على رقبة تمثال نفرتيتي فلم يستطع أن يسترده برهة ، لقد استلبته روعة التكوين حتى لكأن المثّال قد صنع التمثال وفق أحلامه بإرادة لا يحدها قيد وقدرة لا يعجزها شئ .

وجد نفسه يعود إلى مكانه ليكتب :

- اليمين الرجعي يحاول فرض التخلف على المجتمع والعودة به إلى عصور الظلام والانحطاط . إنه ضد حركة التاريخ وضد التطور الحتمي وضد نواميس الطبيعة . فضلا عن أنه عميل بالضرورة .

وترك الأجندة ليعد نفسه كأسا مزدوجا شربها دفعة واحدة ، ثم صب أخرى وضعها الى جواره على المنضدة الصغيرة ، والتقط الأجندة ثانية وكتب في وسط الصفحة :

- محور الحركة ضد اليمين .

ورسم سهما يربط العبارة بما قبلها ، ثم رسم سهما آخر كتب بعده :

- محور الحركة ضد اليسار .

ووضع نقطتين متعامدتين كتب بعدهما :

- اليسار متحجر وفاسد ومعاد لقيم الحركة الإنسانية ولكافة القيم الدينية التي تكفل الحفاظ على الكرامة البشرية ، وهو تابع فكريا لتيارات ثبت فشلها .

ومد يده فتناول كأسه ورشف منها رشفة صغيرة ثم وضعها حيث كانت ، ونزع ورقة من الأچندة ورسم فوقها ثلاثة خطوط قصار متوازية ، كتب أمام أولها : « *إطار الحملة* » وكتب أمام الثاني : « *أهداف الحملة* » ، وكتب أمام الثالث : « *وسائل الحملة* » . ووضع الورقة بحيث تسبق في ترتيبها الورقة التي يدون فيها . وعاد مرة أخرى إلى الورقة الأساسية وكتب :

- مقالات باسم كبار الكتاب ، برامج تليفزيونية وإذاعية ، تحقيقات صحفية ، مهرجانات فنية ، لقاءات تقنية وفكرية .

ثم أغلق الأچندة ووضعها إلى جوار الكأس التي شرب بقيتها قبل أن يتوجه إلى حجرة النوم . ألقى بنفسه في أحضان فراشه متعبا مكدودا ، لقد بذل جهدا ضخما في الأيام الأخيرة أرهقته جسديا ونفسيا وفكريا وعليه أن يحقق قدرا من الراحة استعدادا لبدء معركته الكبرى . غمره - وهو بين اليقظة والنوم - شعور عميق بالراحة ، فالقمم رموز الأمة ، وتلويثها تلويث لشرف الوطن ، والانتماء للوطن يفرض الدفاع ضد كل ما يمس شرفه ، إن ما فعله - وما سوف يفعله - عمل وطني جدير بالفخر والاعتزاز . لكن هذا الاحساس أخذ يتوارى شيئا فشيئا خلف إحساس - لا يدري مصدره - بالتوجس والقلق حين بدأ يتسلل إليه سؤال لم يعرف كيف نبت في رأسه :

- لماذا يتفق اليمين واليسار معا ؟ .

وأخذ السؤال يلد آخر ، والآخر يلد آخر ، وهكذا حتى صارت رأسه غابة من الأسئلة التي تموج وتضطرب وتتصادم وتتركه أشبه بمن دخل خلية نحل دون واق . « *ما الدوافع التي تحدو بالعلمانيين الملحدين المنكرين للدين إلى التحالف مع الرجعيين المتخلفين الجاحدين للعلم ؟ هل يمكن أن توجد أرضية*

مشتركة بينهما ؟ ما حدود هذه الأرضية وما المدى الذي تمتد إليه سلطة كل منهما فيها ؟ هل هناك خطة لتحالفهما ؟ ما طبيعة هذه الخطة وما أهدافها ؟ هل تقصد إلى السيطرة على الحياة الثقافية ؟ كيف يكون شكل الثقافة حين يسيطر عليها سدنة التعصب الفكري ؟ كيف يتم الاتساق بين المتناقضات ؟ هل تسمح الظروف لمثل هذه الخطة بالنجاح ؟ » .

كان ملقى في الفراش وقد أخذ التفكير يستبد به ويستنزف طاقته والوقت يمضي وهو يلاحق بعينين مغمضتين حوارا لا ينقطع لظاه . مد يده ليلتقط مفتاح الضوء في مكانه تحت الوسادة فإذا بيده تصطدم بحجر أدماها ، وإذا بالدم يتفجر حتى يصبح سيلا يغرقه ، يفتح عينيه ليرى فيعجز عن إدراك ما يرى ، إنه ملقى على طوار طريق وقد أخذ جسده يضمحل ويذوب ، تأمل الطريق فكأنه يعرفه فدقق فيه النظر فكأنه لا يعرفه ، ظل يحدق لعله يفهم وقد انغرست في الأعماق أحاسيس شتى تمتزج فيها ألفة من يعرف الأشياء معرفة حميمة ودهشة من يجهلها جهلا كاملا ورغبة من يريد المعرفة وخجل من يعجز عنها . جلس منهكا يستريح في ظل شجرة وارفة الظل رائعة الخضرة فإذا بها ترتدي قليلا قليلا ثيابا كابية من الصفرة المغبرة الداكنة حتى تتحول إلى شخوص منصوبة تقع فيما حولها لهبا يصهر كل شئ ، يفتح فاه دهشة مذعورا فتنطلق منه موجات متلاحقة تتلاطم من دخان أسود كثيف ينتشر وينتشر ويمتد ويتمدد ويتكاثف ويزداد قتامة وعمقا حتى يغطي سطح الطريق كله ، وإذا بكل شئ في محيط من الظلمة الموحشة الكثيبة التي تتردد فيها أصداء أصوات وحشية يشيب لهول سماعها الأجنة في بطون أمهاتهم ، يخيل إليه أنها أصوات وحوش كاسرة توشك أن تنقض على فرائسها وقد امتزجت بها صرخات الاستغاثة المحمومة الضارعة ، وتشتد الاصوات والظلمات فيدركه فزع فظ ويحاول أن يتحرك هربا فيشله العجز عن الحركة ، وتستبد به الرغبة في أن يصرخ فيشله العجز عن الصراخ ، وإذا هو يتحول إلى حصاة صماء تتدحرج في بطء مميت حتى تسقط في بئر موحشة بلا قرار وهي تحدث في سقوطها صوتا هائلا

وكأنها تخترق في رحلتها حاجز الصوت ، وتزداد سرعتها حتى تبلغ سرعة الضوء . وكلما ازدادت سرعتها كلما اضمحلت إلى أن ينتهي كل شئ إذ تتلاشى وتصير هباء .

دق جرس التليفون طويلا حتى أعاده مرة أخرى كائنا حيا يتلقى ويستجيب ، وحين رفع السماعة أتاه صوتها الغني وكأنه يلوم :

- تنام وتتركني يقظى .

غمغم ولم يفصح فاستدركت كأنما تعتذر :

- ماذا أعمل ، لم استطع أن أنام من غير أن أسمع صوتك .

انتظرت برهة قصيرة لعله يعبر ، فلما رأته متدثرا بالصمت أضافت وكأنها تبوح له بسر يحثه على الكلام :

- وحشتني .... وحشتني حقيقي .

رد بتلقائية :

- وأنت أيضاً .

أدركت بجهاز الاستشعار الداخلي أن عبارته مجرد رد عفوي يصدر عن المجاملة اللغوية أكثر مما يعبر عن حالة شعورية ، ورتبت على إدراكها آليا ضرورة زيادة الجرعة المنشطة ، فأضافت :

- ليس مثلي بالطبع ، أنا أكثر بكثير .

لم تزده الجرعة المنشطة إلا خمودا ، فأيقنت أن المكالمة في غير وقتها ، وأن أي حديث حول أي شئ سيكون سرابا ، فآثرت أن تتوقف ، راغبة إليه في أن يتصل بها فور يقظته ، مؤكدة :

- سأظل على نار في انتظار سماع صوتك .

- ٢١ -

هل كان ماهر في وعيه حين أنجز خطته وطلب أميمة متوقعا أن تكون نائمة ، داخله شيء من المتعة وهو يتخيل أنها ستستيقظ غاضبة تلعن التليفون إلى أن تعرف صوته ، وجال في خاطره « *لقد حققت قدرا كافيا من المتعة وعليها أن تجرب قسطا ضئيلا من الألم* » ولكنه فوجئ بردها الفوري فمسته خيبة أمل خفيفة وتمتم لنفسه : « *مقدرتها على التحمل غير عادية* » .

ما كادت تميز صوته حتى صاحت ببهجة :

- كنت متأكدة أنك ستتصل .

أصمتته المفاجأة فأضافت ضاحكة :

- أنت تحس بالوحشة نحوي ، اسألني أنا .

لم ترحه الثقة التي تصدر عنها الكلمات فاستمر صامتا ، فواصلت بصوتها المترع بالإيقاع :

- طبعا استرحت بما فيه الكفاية .

قال في سره : « *الليلة لم تشبع بعد* » ، تجاوز ملحوظتها قائلا بصوت بدا له خاليا من البهجة التي كان يتوقعها قبل أن يبدأ الاتصال :

- لديّ الآن تصور كامل الحملة .

فقاطعته بسعادة حقيقة :

- شئ رائع ، مقدرتك جبارة ولا نظير لها .

لماذا لم ترحه عباراتها مع أنها مجاملة رقيقة ؟ استمر كأنه لم يسمع تعليقها :

- لكن الحملة تقتضي التنسيق بين جهات متعددة .

قاطعته بثقة من يعرف ما سيحدث :

- سنلتقي إذن مرات كثيرة .

تابع متجاهلا عرضها :

- الإعلام والثقافة وجمعية الكتاب ونادي الأدباء وجماعات كتاب الدراما والشعر والنقد والجامعات وغيرها وغيرها .

واصلت كلامها من غير يأس :

- نستطيع أن نناقش ذلك في لقاءاتنا .

فواصل بدوره كلامه وكأنه يتجاهل مقاطعتها :

- يجب أن تبدأ الحملة فورا ، سأكلف بعض من أثق بهم من الكتاب والمحررين بكتابة مقالات تنزل متتابعة في الصحف اليومية باسم كبار الأدباء والنقاد . وسيشارك كتاب الأعمدة ورؤساء التحرير في الحملة في إطار الخطة الموضوعة . المهم الآن أن تتصل الوزارة بهم حتى لا يفاجئوا بالموضوعات التي ستنزل بأسمائهم فيفاجئونا بموقف غير محسوب .

توقف برهة وجيزة ليلتقط أنفاسه المتسارعة قبل أن يضيف :

- سأملي عليك الآن الأسماء لإجراء الاتصالات .

استغرق وهو يملي قائمته الطويلة فلم يفطن إلى صمتها ، ولكنه حين قارب الانتهاء توقف فجأة وكأنما رابه سكوتها ، متوقعا لتوقفه ردا من نوع ما ، ولكنها استمرت صامتة فلم تعقب على صمته كما لم تعقب من قبل على كلامه ، فشاركها الصمت لحظة قبل أن يتساءل لائما :

– نمت ؟ .

فأجابت باقتضاب :

– كلا .

وأضافت بعد لحظة صمت كأنما ضاقت بالسؤال :

– يمكنك أن تستمر .

لم يلق بالا إلى نغمة الضيق الواضحة في صوتها ، وتابع إملاء خطته ، وهل كان في وسعه أن يتوقف ليتلطف ، إن الأمر أخطر من ذلك بكثير « *إن معركة ثقافية كبرى على وشك أن يضطرم أوارها فوق ثرى هذا الوطن المنكوب ببعض أبنائه ، ولابد من تجهيز ساحة العمليات بما يتلاءم مع الغاية المرجوة ، وهي تدمير كل القوى المعادية مهما كان حجمها وأيا كانت اتجاهاتها* » .

حين فرغ وأوشك أن ينهي المكالمة سألته فجأة :

– واضح أنك عرفت كل شئ وأنك لم تعد في حاجة إلى ما عندي .

همّ أن يرد موافقا ولكن شيئا ما جعله يستدرك فأجاب :

– من قال ذلك ؟ ! إن من بدهيات عملنا أن المعلومات إن لم تنفع فلن تضر .

وصمت متوقعا أن تعلق بشئ ، وصمتت بدورها وكأنها تأمل إضافة شئ ، ولما طال الصمت بهما اضطر أن يضيف :

– طبعا أتوقع أن تحضريها معك في لقائنا القادم ، ربما يكون مساء غد ، وربما بعد غد ، سأتصل بك لتحديد الموعد .

أوشكت أن تصرخ فيه : «*أهذا أسلوبك في التعامل مع أميرتك المدللة*» ولكنها آثرت الصمت فتابع كأنما يفسر :

– أريد أولا أن أطمئن إلى أن عجلة العمل قد دارت بالفعل حتى يكون لقاؤنا خالصا للمتعة .

ودّت أن تصرخ فيه رافضة ، ولكنها دون سبب تمتمت موافقة .

وحين وضع السماعة أخذ نفسا عميقا وقد انتابه إحساس بأنه رفع عن كاهله عبئا كاد ينوء به ، وتفجّر فيه نشاط لا حدود له بالرغم من أنه في الوقت الذي يقضيه عادة في الراحة لا في العمل . وبدأ يسجل الإجراءات العملية للمعركة الكبرى التي يقودها ، بدءا من العناصر المشاركة فيها من شخصيات وبرامج وأجهزة ، والموضوعات التي تعالجها ، والمراحل التي تنقسم إليها ، والهدف المرحلي والنهائي لكل مرحلة على حدة ، ثم المراحل في مجموعها ، وانتهاء بالتوقيت المناسب لكل عنصر من عناصر الخطة وكل عمل من أعمالها ، وقد رأى أن يبدأ العمل خلال ساعات إلى أن يصل إلى ذروته بحفل تسليم الجائزة . وقد استمر في عمله طول الليل ، وكانت الشمس على وشك أن تشرق حين أجرى اتصالاته المتعاقبة بالشخصيات المختارة لبدء الحملة . وبعد أن انتهى من مكالمته الأخيرة ووضع السماعة فرك كفيه في سعادة حقيقية ، ففي خلال ساعات محدودة ستقوم العقول المؤمنة بالنظام ، المؤيدة لسلطة الدولة ، الرافضة للفوضوية وظلمات التخلف ، بتقديم عطائها العظيم في المعركة الحاسمة ، وستشهد الحياة الثقافية معزوفة حب للوطن تتناغم فيها الكلمة والصوت والصورة في عمل باهر لم يسبق له مثيل من قبل . وستتلقى القوى المعادية ضربات قاتلة تنقلها إلى متحف التاريخ .

- ٢٢ -

كيف لم تفطن بشرى إلى طول المسافة التي قطعتها في المسير ؟ من كان يظن - حتى في الأحلام - أن في استطاعتها - برقة تكوينها ، ودقة حجمها وما يوحيه من طاقة محدودة ، وصغر شكلها وما يغرى به من استخفاف - أن تسير ساعات متصلة من الكلية إلى المهندسين ، تقطع خلالها على قدميها شارع النيل جيئة وذهابا أكثر من مرة ، وتمضي بعده في العجوزة فتجتازها من جنوبها إلى شمالها حتى تصل إلى شارع شهاب في المهندسين ، كلّ ذلك دون أن تحس بتعب أو حتى برغبة خفية في شئ من الراحة إلى أن تكتشف فجأة أنها قد اقتربت من الشارع الذي يقع فيه منزلها فتوشك أن تصرخ دهشة من المفاجأة : *« هل صحيح أنها استطاعت أن تسير كل تلك المسافات ؟ هل تختزن من غير أن تدري مثل هذه الطاقة الضخمة القادرة أم أنها تحلم ؟ هل ما حدث حقيقة واقعة ما زالت تعيش فيها أم أنها مستغرقة في عالم من الأحلام التي يتحدث عنها أحمد فتداعب الوجدان وتثير العقل معا ؟ هل في وسعها أن تصدق ، أو حتى أن تتخيل ، أن هذه هي الحقيقة ؟ ! »* .

توقفا قريبا من شارع سوريا ليفترقا ، فوجد نفسه يقول لها برقة صادقة .

- أسف جدا ، لقد أرهقتك كثيرا ، كان ممكنا أن نكمل المناقشة غدا .

فردت بتلقائية ممزوجة برغبة حقيقية في التخفيف عنه :

- كان استكمالها ضروريا ، لو لم نستكملها لأصابني إرهاق فظيع ، أنت تعلم أنه لا شئ يضايقني مثل الانتظار ، وأنا لا أستطيع أن آخذ الأمور بشكل جزئي .

تمتم وهو يهز رأسه موافقا :

- أعرف ، ولذلك وافقتك .

فلوحت له وهي تمضي :

- سأتصل بك في المساء .

ثم أردفت باسمة :

- لكن لا تتوقع قرارا سريعا .

رد بابتسامة مضيئة وهو يقول :

- أنت تعرفينني ، لا أحب القرارات المتسرعة .

ما كادت تصل إلى المنزل وتطمئن على أن والدتها نائمة حتى استلقت على الفراش بملابسها دون أن تفكر - مجرد تفكير - في أن تتناول طعاما ، ألم تشعر بالجوع أم كانت في حاجة إلى من يشاركها طعامها ؟ هل ملأها عالم أحمد حتى اكتظت ؟ ألم يصبها الإجهاد إثر الجولة المشائية الطويلة ؟ هل أرهقتها المفاجآت التي توالت طيلة اليوم ؟ بدءا من مهرجان الشعر وما حققه من نجاح وما أثير فيه وعقبه من قضايا وموضوعات حول وظيفة الأدب في عصر الانحطاط وضرورة تجاوزه مرحلة التعبير الذاتي إلى ارتياد الطريق نحو بلورة حركة فكرية واعية تتبنى قضايا الجماهير الكادحة وتكون سلاحها للنضال ضد التخلف والتبعية ، وما كشفت عنه المناقشات من وجود رأى عام مستنير فاهم ولكنه صامت ، ووجود أدباء ونقاد متخلفين فكريا ولكنهم يحسنون

صنعة الكلام . ثم ما كشفت عنه المناقشة مع أحمد من التعرف المباشر على بعض الجوانب الخفية غير المنظورة لحركة النضال الوطني . إذا كان الإجهاد هو ما تعانيه فإنه لم يمس منها إلا جسدها ولم يتمكن من روحها ، فقد أخذت تتوارد في خاطرها دون اختيار صور مما حدث طوال اليوم : نكتة أحمد عن المركز الثقافي الروسي الذي سيتحول لعرض أفلام الكاوبوي وبيع الهامبورجر والكوكاكولا ، حركات الشاعر التقليدي الجهوري الصوت وهو يتمايل برأسه إعجابا بنفسه وبصوته ، الابتسامات اللزجة للناقد الأكاديمي وهو يحرّض الشاعرات على البوح بتجاربهن الخاصة حتى يحققن في أدبهن الصدق ، متجاهلا أن الصدق الأدبي هو الصدق الفني ، نظرات شاعر المقطوعات الشبقية التي تستجدي الحاضرين كلمة إعجاب أو بسمة رضا ، نظرة أحمد الودود حين استقبلها في الصباح ، لمحة الإشفاق في عينيه وهو يلوّح لها عند عودتها إلى المنزل بعد الجولة المشائية ، كلماته وهو يسخر من النقد الأكاديمي المتجاهل للواقع ، بصقة الاشمئزاز التي تمنت أن تصفع بها شاعرا جعل محور تجربته الشعرية الجنس باعتباره مفتاح الحقيقة الأزلية الأبدية ، تعود إليها نظرات أحمد وكلماته وهو يعلق ، وهو يناقش ، وهو يعترض ، وهو يثور ، وهو يمارس هوايته الفذة في التحليل وفرض الفروض ومناقشتها ، إن صورته وصوته هما القاسم المشترك بين الصور التي تتراءى لها والكلمات التي تتذكرها وهي مسترخية في فراشها ، وكأنها الجملة الأساسية التي تربط أجزاء الدانوب الأزرق أو شهر زاد تعزفهما أوبرا فيينا فتحس فيها براعة الاستهلال وعذوبة الإيقاع وتجد بها حسن الانتقال وسلاسة الربط وجمال التعبير وروعة الأداء

« لماذا تحسين إزاء نظراته وكلماته هذا الإحساس ؟ ماذا بينكما ؟ إنك لست من السذاجة بحيث تتجاهلين وجود علاقة خاصة تربطكما معا ، لكن ... ما هذه العلاقة ؟ ، أنت لست من الغباء بحيث تتوهمين أنها علاقة عاطفية ، فبينكما من جوانب الخلاف كثير ، لكن أليس من الغريب أن بعض صور الخلاف التي تنشأ بينكما سرعان ما تصبح هي ذاتها روابط تجمع بدلا من أن تفرق ، وتوحّد بدلا من أن تمزّق ، حتى

ما قاله عن الموقف الأمني برغم شكك فيه وحيرتك معه فانت على يقين من أنكما في النهاية ستتفقان ، إنه يتصور أن أجهزة الأمن معنية بمتابعة نشاطكما ، وأنها من الممكن في بعض الظروف أن تلاحقكما ، ويرى ضرورة أن تتخذا وسائل أمنية مضادة لحمايتكما ، ولقد أحسست في بعض اللحظات أنك ميالة إلى موافقته ، بل كنت تصرحين له بالفعل بموافقتك ، ولكنك في لحظات أخرى أحسست بأنك تخالفينه ، أليس من الطبيعي أن تحاول أجهزة الأمن أن تعرف ما يحدث ، وأن ترصد ما يجرى ، لكن أي صالح لها وللنظام في أن تقتحم حياة الناس وتحولهم من مواطنين يمارسون حقوقهم المشروعة إلى أعداء حاقدين يتربصون بالسلطة ورموزها ، أحمد ، إنك تسرف في سوء الظن » .

برغم إحساسها بتحول موقفها لم تكن قلقة ، كانت مؤمنة بأنها حتى لو غيرت موقفها مرات فإنهما سيظلان في سفينة واحدة ، فإنسان في مثل مودته لها ، وحرصه عليها ، واحترامه إياها ، وإخلاصه لمبادئه ، والتزامه بقيمه ، لا يمكن أن يعرضها لحظة لمخاطر العزلة في المواجهة .

- ٢٣ -

« لم يكن ينقص إلا هذا !! » .

استبد الغضب بالدكتور شوقي بالرغم من أنه حاول بجهد رهيب أن يبدو في الظاهر متماسكا وهو يتلقى من تلميذه الأثير الدكتور شكري توفيق مزيدا من التلميحات حول اندماج بشري في النشاط مع عدد من المدرسين المساعدين والمعيدين المسلمين الموسومين بالتعصب ، ومشاركتها لهم في لقاءاتهم الفكرية التي يعقدونها في كليات الجامعة المختلفة ، حتى أنه لم يستطع أن يبقى في الكلية كما كان يعتزم وآثر مغادرتها مبكرا بعد أن بلغ انفعاله درجة لم يستطع معها أن يقدر ردّ فعله لما يرى أو يُنْقَل إليه من أحداث وأقوال ، إذ أوشك أكثر من مرة أن يستخدم في تعليقاته عبارات فجة ، وهو الذي يعرف عنه الهدوء والدماثة وحساسية التعبير . لقد كان فريسة شعور حاد بالسخط على بشرى ظل ينمو حتى ولَّد شعورا عميقا بالذنب ، لأنه يتحمل قسطا من المسئولية عما يقع منها ، ألم يترك لها الحرية كاملة ولم يرقب في غمرة ما توالى عليه من أحداث أسلوب استخدامها لهذه الحرية .

- *« كيف سمحت لنفسها وهي المثقفة التقدمية أن تشارك طائفة من المتخلفين سلوكيا والمتقوقعين فكريا في عمل مشترك مهما كانت*

مواقعه فإن سلبياته عليها وعليه أيضا أكثر من إيجابياته ؟ ألا ترى أنها بذلك تلقي على موقفها شبهات لا حصر لها ؟ .

- *وكيف لم تفطن أنت إلى أن مثل هذا الاحتمال كان أمرا واردا وأنت ترى مقدماته واضحة ؟ ألم تكن تتكلم عن أحمد بإعجاب ؟ كيف لم تتخيل أن من الممكن أن يحملها الإعجاب إلى تناسي التناقضات الأساسية معه ومع ما يمثله من اتجاه ؟ ها هي ذي قد سقطت دون أن تدري في شَرَك العمل المشترك الذي يمكن أن يحملها على جناحي الهدف الواحد والخطر الواحد إلى الانزلاق في علاقات تختلط فيها الأمور وتتميع المواقف ولا تستطيع معها التمييز بين التناقضات الجوهرية والثانوية ، إنه خطؤك بالدرجة الأولى » .*

أخذ يمضي على غير هدى متنقلا من مكان إلى آخر ، زار أماكن لم يزرها من قبل ، وأماكن بَعُدَ عهدُه بها ، وأخرى كان فيها منذ وقت قريب وجرت عادته ألا يتردد عليها إلا نادرا ، في أيام سلفت كان يعود في مثل هذه الظروف إلى المنزل وينتظر زوجته حتى تعود من عملها في قصر الثقافة ويحدثها فيما يلح عليه من مشكلات ، وكانت قادرة في تلك الأيام على أن تناقش الأمور بصفاء ذهن غير عادي ، مهما كانت درجة انفعاله وغضبه ، ومهما بلغت حدة تأثرها ، لكن منذ تعرضا معا لمحنة الاعتقال صارت الأمور في ذهنها مشوشة تماما ، وأصبحت غير واعية بالتناقضات الجوهرية التي تقع فيها حين تسرف في الحديث عن الصحفية المسلمة التي ساندتها في محنة مرضها في المعتقل ، وكانت لا تفتأ تكرر كيف أنها كانت تمنحها معظم طعامها ، وكيف كانت تغطيها بردائها ، وكيف كانت تسهر عليها ، الآن لا يستطيع أن يتحاور معها ، لقد تجاوزت حتى مرحلة الخلط إلى مرحلة انعدام الوعي .

« إنها المأساة أن تفقدها في هذه الظروف » .

ظل هائما يتخبط متنقلا دون أن يحس بالوقت حتى أقبل المساء ، كانت طاقته قد استنزفت وحل به تعب شابه اكتئاب شارف اليأس وهو ما زال مضطرب التفكير : ماذا ينبغي أن يفعل ؟ ماذا يجب أن يقول ؟ هل يتجاهل الموقف كله منتظرا ما تتطور إليه الأمور ؟ إنه بذلك يهرب من تحمّل المسئولية ، لقد سبق أن تهرب في مرة سابقة كانت نتيجتّها فقدُ ولده نهائيا بهجرته ، ولما أراد أن يتدخل كان الوقت قد فات ، إنه ليس ممكنا أن يهرب في هذه المرة ، إنها ابنته الوحيدة ، درة حياته ، امتداد فكره ، واحة أمله الخصبة ، هل يناقشها كما تعودا أن يفعلا ؟ لكن بأي منطق ومن أي مدخل ؟ مستنكرا أو مستطلعا ؟ رافضا أو محايدا ؟ إن موقفه النهائي واضح ومحدد وبقدر ما فيه من وضوح وتحديد بقدر ما تتسم المقدمات التي يجب أن يسلكها للوصول إليه بغموض يدفعه إلى الحيرة .

« لو كنت دكتاتورا لهان الأمر ، ولاستطعت أن تأخذ قرارك بحسم لا تردّد فيه » .

قالها لنفسه وهو يفتح باب شقته عند عودته في المساء . فقالت له نفسه :

« حتى لو كنت دكتاتورا ما كانت المسألة هينة ، فإنها ليست من ذلك الطراز الذي يستسلم ، الدكتاتورية وحدها لا تكفي ، إنها حتى تحقق هدفها لابد من توافر العنصرين معا : الطاغية ، والطرف الآخر المستعد للخنوع ، وابنتك ليست من ذلك الطراز الذي يقبل طغيانا ، سترفض طغيانك حتى لو صمتت ، سيكون صمتها رفضا لك ، ولكل القيم التي دعوت إليها . المسألة تحتاج إلى حذر حقيقي حتى لا تفقد في موقف واحد كل ما بنيته في وجدانها من احترام لك وثقة فيك واقتناع بفكرك وتقدير لكفاحك ، إنه موقف له ما بعده » .

دخل الشقة محدثا على غير عادته ضجيجا ، أغلق الباب بعنف وألقى تحية المساء بصوت مرتفع وهو يغلق الباب حتى يصل إلى من في الحجرات المغلقة الأبواب ، فلم يسمع لتحيته ردا ، مضى متأنيا إلى حجرة زوجته وفتحها فوجدها جالسة في فراشها

مستغرقة في عالمها حتى انها لم تلق إليه بالا وهو يدخل عليها ، فمسته نسمة من الرقة الحانية وانحنى فقبل مفرق شعرها فكأنها لم تحس وظلت كما كانت من غير أن تلقى إليه حتى نظرة ، همَّ أن يجلس ثم أدركه التردد ، فظل واقفا فترة قبل أن يخرج من الحجرة تاركا بابها مفتوحا مخالفا عادته ، أوشك أن يذهب إلى حجرة ابنته لكنه عدل في اللحظة التي فكر فيها ، فدار في الصالة بدلا من أن يتجه إليها ، وعاد إلى موقعه المعتاد في مواجهة الممر الموصل إلى الأبواب الداخلية وجلس ، ثم نهض وقد عقد عزمه على أن يتحدث معها ، فتح باب حجرتها وأطل برأسه فوجدها مستغرقة في فراشها فأغلق عليها بابها وعاد إلى مكانه من جديد ، هل أحس بجوع حقيقي أم أن ذلك ما توهمه حتى بعدَّ وجبة من وجباته السريعة التي تعوَّد عليها وجلس ليأكل ، لكنه توقف بعد أن قضم قضمة واحدة من الساندوتش وشرع يخلع ملابسه ويلقيها – على غير عادته – في الأنتريه كيفما اتفق ، لكنه يتوقف ، ويجمع ما خلعه ويتجه إلى حجرته فيلقى بها على الأرض ، ويلقى بنفسه في الفراش .

« كل شئ الآن مثير للغضب إلى درجة مستفزة ، لم تعد لديك طاقة على الاحتمال ، الناس والمواقف ، السلطة والشعب ، النظام والدولة ، الحاكم والمحكوم ، الطبقات المستغلة والطبقات الكادحة ، الجماهير التي تفتتت وحدتها فضاعت قدرتها وتسربت هباء تحت وطأة الضغوط غير الإنسانية التي تعانيها في حياتها اليومية وفقدانها الأمل ، والقوى المضادة التي استطاعت أن تجهض بأنانيتها وغيانتها الفرصة التاريخية النادرة لميلاد حلم الإنسانية العظيم في عالم يخلو من الزيف والاستغلال والحاجة ، كيف تكون المقاومة في ظل هذه الظروف ؟ بكلمات تتبدد فور خروجها من الأفواه ؟! من يسمع تلك الكلمات ؟! الكون كله مشغول بملايين الملايين من الكلمات الداعرة التي تمجد كل سلطة ، وتؤله كل سلطان ، وتسبِّح لكل متسلط ، وتضاجع علنا في غير حياء كل من يدفع ثمنا .

هل تجدي كلمة ! .

في هتك حجاب الليل وَبقْر الظُّلمة ؟!! .

لن تجدي كل الكلمات

صارت الكلمة جرحا

صارت الكلمة قيحا

فالكلمة تلهو

والكلمة ترقص

والكلمة قوادة

الكلمة تسخر

بالخاء الفوقية أو بالحاء

بالشين الفوقية أو بالسين

الكلمة عاهر

لكن لا تفقد أبدا سمعتها الـ ... محترمه

فالسمعة أبدا محمية

بسيف النقد العربي

وسوط الوجد الصوفي

الكلمة أنسة حبلى

والفاعل أبدا مفعول فيه .

هل تجدي كلمة ؟ ! ! .

أبدا لن تجدي كل الكلمات .

لن تجدي كل الكلمات .

- ما فائدة الأصوات المخنوقة في بئر الظلمات الوحشية ؟
- سيخترق الصوت حجاب الظلمة وينفذ عبر الأحداث الهمجية
- الكلمات الخنثى سد يمنع ضوء الشمس
- صدق الكلمة شمس
- بئست كل الكلمات ، الفعل قبل الكلمات
- الكلمة فعل

وفعل الكلمة أقوى الأفعال .

فافعل كلمة تزرع فعلا .

افعل كلمة تنبت أملا .

افعل كلمة تزهر عملا .

افعل كلمة تكسر قيدا .

افعل كلمة تحرر عبدا .

افعل كلمة تفتح للثورة بابا .

- يا بنت الأحلام القدسية .

عشنا نجتر الكلمات الثورية .

حتى نفختنا العاصفة الهمجية .

ما أقسى الأحلام الوهمية .

ما أقسى الكلمات .

ما أقسى الكلمات » .

✍ ✍ ✍

- ٢٤ -

تنفس أحمد الصعداء وهو ينزل في محطة الغورية وتمتم :

- الحمد لله ، أخيرا وصلت .

وما كاد يتم نزوله من الأتوبيس الذي استقله من التحرير حتى نطق بالشهادتين وقد بلغ به الإجهاد غايته ، فقد كانت الرحلة من المهندسين إلى الأزهر بالغة المشقة ، وزادها انشغاله أثناءها بالتفكير إلى الدرجة التي أخطأ فيها مرتين في ركوب الأتوبيس المناسب ، فكان يضطر إلى بذل جهود مضنية للنزول بعد أن يكون قد كافح كفاحا رهيبا للصعود .. لكن لكل شئ نهاية .. فها هو ذا - أخيرا - يعود ليخترق الغورية متجها إلى تحت الربع ، فزقاق المناديلي ، فعطفة الصنادقية ، دون أن يحس بما يصاب به من ضربات في الزحام ، ألأنه ألفه بعد أن طالت إقامته في العطفة وامتدت سنوات على غير توقع ، وهو الذي تخيل في أيامه الأولى فيها أنه لن يبقى إلا أياما معدودات ريثما يعثر له عمه على سكن مناسب قريب من الجامعة بعد أن التحق بكلية الآداب ؟ أم لأنه كان يفكر في أحداث اليوم ، وآخرها وأهمها ما دار من حوار بينه وبين بشرى ؟ لم يتوقف ذهنه عن التفكير فيما قاله لها ، وفيما قالته له ، لم تغادر فكره تعبيرات وجهها وعينيها ، كانتا تكشفان عمق استجابتها الفورية لكلماته ، بالدهشة ، بالغضب ،

بالاستنكار ، بالألم ، بالرفض ، بالجزع ، بالثورة . كانت كل كلمة يقولها لا تكاد تتلقفها أذناها حتى تنغرس في وجدانها فتتوهج روحها توهجا تشع به نظراتها وتؤكده قسماتها ، وتمنحها تلك الطاقة الموارة التي تحس معها بأنها - برغم كل شئ - قادرة على مواجهة كل شئ ، وكان يتوقع أن يحس إزاء ذلك بالرضا ، لكنه - على العكس من ذلك - انتابه قلق أخذ ينمو ويتصاعد ، هل أزعجته حدة انفعالها ؟ هل أقلقته استجابة مشاعرها ؟ هل ضايقته عبارتها التي توحي بأن موقفها الفكري لم يتحدد بشكل نهائي ؟ لكنه يعرفها جيدا ، يعرف شجاعتها وقدرتها على الصمود وتصميمها على التصدي للفساد والانحراف تصميما يبلغ بها درجة العناد .

« لعل هذا ما يقلقك ، أن تؤثر الاستمرار مع الطلبة آملة بذلك أن تعيد تجسيد قديسات عصر الشهداء ، مغفلة أن جسدها الناحل الرقيق وروحها المحلقة ونفسها الصافية لن تحتمل ما ستتعرض له من هول ، حتى لو احتملت هي أتستطيع أنت أن تحتمل فكرة تعرضها لألوان العذاب ، إن مجرد تخيلك لهذا الاحتمال يملؤك فزعا . آه أيتها النقية العزيزة ، ليست المشكلة في أن نستشهد ، فالاستشهاد غاية نحلم بها لكن شريطة أن تكون في وقتها وبالثمن المناسب لها ، لكن أي فائدة تعود على جهادنا إذا سمحنا أن تذهب دماؤنا هدرا وأن تزهق أرواحنا سدى ثمنا لكلمة غاضبة أو موقف ساخط ، أي عدل في أن يصبح ثمن الكلمة دما يراق ونفسا تزهق ، إن ذلك خرق للقانون الوجود الذي يجب أن يحكم كل موجود ، الدم بالدم ، النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن ، ولا يصح مهما كانت الظروف أن نقدم أنفسنا طعاما شهيا للكلاب الشرسة المولعة بالولوغ في الدماء البشرية دون أن نتقاضيهم الثمن » .

إنها ليست المرة الأولى التي يعصف به مثل هذا القلق ، فقد تعود في الأيام الأخيرة كلما أوغل مع زملائه في نشاطهم المعادي لمنح الجائزة للبرغوتي أن ترتفع بحدة

درجة القلق عنده ، وقد شاركه قلقه كثير من زملائه الذين أطلقوا على أنفسهم لقب « المجاهدين » ، وكان ذلك عقب حادثين دفعا بهم إلى إعادة تقييم نشاطهم ، أولهما ما اكتشفوه من أن بعض الوجوه الطلابية المألوفة التي كانت تشارك بجهود كبيرة في نشاطهم لم تكن في حقيقتها سوى مجموعات من الضباط حديثي التخرج المكلفين بالاندماج في النشاط الطلابي لكشف المواقف والتعرف على الاتجاهات ونقل المعلومات . وثانيهما ما فهموه من حادثة اغتيال أحد العناصر المعارضة للنظام بصورة بشعة في شارع الجلاء في قلب العاصمة ، فقد أدركوا أنها رسالة موجهة بوضوح لكل العناصر غير الموالية للسلطة ، إنها تبلغهم بأن قرار التصفية الجسدية قد اتخذ ، وأن الأجهزة المسئولة قد باشرت تنفيذه ، وكان طبيعيا أن يظنوا أنهم ربما كانوا ضمن القائمة وأن عليهم أن يرتبوا أمورهم على هذا الأساس ، وقد صدمتهم الرسالة بعنفها وقسوتها بالرغم من أنهم كانوا يضعون مسألة التصفية الجسدية ضمن الاحتمالات الواردة ، لكنهم كانوا - في الوقت الذي يتحدثون فيه عن الفساد والانحراف ، ويربطون بينهما وبين المناخ الذي تخلقه الدكتاتورية ، ويقررون ما يعتقدون أنه مسلمات من أن الطغيان ليس فردا وإنما هو نظام كامل ، إذ يخلق الطاغوت الأكبر طواغيته الصغار في كل مجال ، على كل مستوى ، بكل موقع - كانوا يحلمون ، لسبب لا يدرونه ، وربما لرغبة داخلية ، أن يوجد في كلامهم بعض المبالغة ، وأن يكون الواقع أقل سوءا ، إلى أن وصلتهم رسالة الاغتيال وفكوا رموزها المباشرة ، فأحسوا أن الموقف كله قد تحدد بشكل حاسم ونهائي ، وانتهت تحليلاتهم - التي شارك فيها أحمد بعمق - إلى أنهم يتكلمون أكثر مما ينبغي ، وأنهم يفعلون أقل مما يجب ، وتساءلوا : هل آن الأوان ليعتدل الميزان ، فيجعلوا أفعالهم في مستوى أقوالهم ، لأن البديل عن ذلك - وهو أن تكون أقوالهم في مستوى أعمالهم - كان مرفوضا ، إذ إن معناه التزام الصمت وانعدام الحركة معا ، ولم يكن في وسعهم اتخاذ هذا الموقف السلبي تجاه ما يرونه من أخطاء ويلمسونه من فساد ، لقد كانت تجلجل في أعماقهم تلك العبارة التي جعلوها شعارا : إن

الساكت عن الحق شيطان أخرس ، فضلا عن أنهم كانوا على يقين بأنهم حتى لو صمتوا فقد تم تصنيفهم ضمن القوى المعادية وانتهى الأمر .

- قرمل يا أستاذ .

نبهته العبارة العابثة من الصوت المألوف ، نظر فوجد فتح الله صبي عمه الترزي في موقعه المعهود في مدخل المحل يبتسم في غبطة وكأنه يقول له : « *ها أنا ذا قد ضبطتك مرة ثانية وأنت سرحان* » ، رد على الابتسامة بمثلها ومال إلى الدكان ليسلم ، فبادره فتح الله :

- تأخرت يا أستاذ .

سأل وهو يمد إليه يده :

- هل سأل عني أحد .

فأجاب فتح الله متصنعا الجد :

- يوه ... كثير .

ولما لمح الدهشة على وجهه أردف باسما :

- الأستاذ عمر والأستاذ صلاح .... و ..... .

وانتظر لحظة كانت كافية ليبادر أحمد بحثه :

- ومن غيرهما ؟ .

فاستأنف فتح الله وكأنه يعاتبه :

- وهل تنتظر أحدا أخر غيرهما ؟ .

نظر إليه أحمد عابسا فأضاف :

- لقد بقيا في انتظارك مدة طويلة ، ولما تأخرت ذهبا وقالا إنهما سيعودان بعد العشاء .

تساءل أحمد وكأنه يتأكد :

- ولم يسأل غيرهما .

فرد فتح الله مؤكدا وهو يشير بيده نافيا :

- سألت عليك العافية .

سأل أحمد برقية :

- وعمي ؟ .

فأجاب فتح الله بنبرة أسى :

- لم ينزل المحل اليوم أيضاً .

غادر المحل دون أن ينسى أن يؤكد :

- لا تنس أن تحول خط التليفون فوق قبل أن تغلق المحل .

فرد فتح الله بعبارته المعهودة :

- لا أستطيع أن أنسى يا أستاذ .

✍ ✍ ✍

- ٢٥ -

تلقى ماهر في منزله ، وكذلك في مكتبه بعد أن انتقل إليه ، مكالمات عدد كبير ممن يشاركون في الحملة من كتاب ونقاد وإبداعيين وإعلاميين حول طبيعة الهجوم على العناصر المضادة ، وكان يكتفي في الرد عليها بالتوجيه إلى العموميات دون الخصوصيات « نحن نتخذ موقفا فكريا ضد اليمين الرجعي واليسار الفوضوي » ولكن بعض الكتّاب المحترفين لم يشاءوا التسليم له بصحة التوجيه ، وكانوا يلحون في معرفة وقائع شخصية تمنح كلماتهم لذعة حارقة تسهل ابتلاعها ، محتجين بأنه « ليس هناك مثل الأخبار الشخصية والأسرار الخاصة في مقدرتها على جذب الانتباه وسرعة الانتشار » وكان ماهر يرفض مثل هذه الأفكار ويرى أن التركيز يجب أن يكون حول القيم الفكرية ، وليس حول الأنماط السلوكية . وقد أدركه العجب مرات كثيرة وهو يتلقى هذه الاستفسارات من نماذج ليس سلوكها فوق مستوى الشبهات ، وكان العجب يبلغ به أقصى مداه حين يجد هذه النماذج أكثر من غيرها إصرارا على ضرورة التعرض للسلبيات السلوكية ، وحين كان يجب معترضا :

- من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر .

كان يتلقى سيلا من التبريرات ، ابتداء من أن المعركة تقتضي التعرف عن قرب

بمعسكر الأعداء وإتيانهم من أي ثغرة تسهل الانتصار عليهم ، وانتهاء بأن الحرب خدعة وأن كل شئ مباح لتحقيق النصر فيها . وكانت الاتصالات تنتهي معهم دائما وهم مصرون على موقفهم ، مما كان يؤذن بأنهم سيلجئون بالضرورة إلى إلصاق صفات بالمعارضين لابد أن تكون من وحي تجاربهم الخاصة ، مما قد يؤثر في تصوره على مصداقية المعركة الفكرية . وكان فزعا من أن تصبح المعركة في بعض جوانبها معركة أكاذيب ، ولكن الإلحاح عليه ، وتقديره أن القوى المضادة لن تتورع بدورها عن استعمال كافة أسلحتها حول موقفه شيئا فشيئا ، من الرفض المطلق إلى الاستسلام ، قائلا لنفسه :

« لن تستطيع السيطرة المطلقة على كل الأطراف ، القائد مسئول عن الخطة العامة والنتيجة النهائية ، وليس مسئولا عن السلوك الشخصي لجنوده . حسبك أنك شخصيا لن تشارك في الجانب القذر من المعركة » .

ولكن موقفه تحول من الاستسلام السلبي إلى التفكير الإيجابي في ضرورة التعرف عن قرب بالشخصيات المعادية حين كان يتابع في مكتبه في فترة المساء اللقاءات التليفزيونية التي شاركت في تقديمها البرامج السياسية والثقافية والترفيهية ، وكانت تدور حول قضية الانتماء الوطني وخيانة أعداء النظام واتهامهم بالعمالة ، وأحس بخبرته بأن البرامج برغم حيوية الوقت الذي تذاع فيه ، وأهمية المشاركين فيها ، غير قادرة على الإقناع ، كانت الكلمات كبيرة ، والعبارات طنانة ، والانفعالات الحادة تتجلى في قسمات الوجوه ونبرات الأصوات ، ولكن كان ينقص هذا كله شئ يجعلها أكثر قبولا وأشد تأثيرا ، ما الذي ينقصها ؟ ظل السؤال يلح عليه وهو يتابع ما يذاع من برامج في الراديو والتليفزيون ، إلى أن اقتنع بأنه لو أتيح للمتحدثين بعض المعلومات الخاصة بالسلوك الشخصي للمعارضين لصارت أكثر قبولا ، إذ سيتاح حينئذ للمستمعين والمشاهدين أن يقارنوا بين العالم المثالي الضبابي الحالم الذي تدعو إليه تلك العناصر والوجود الواقعي غير السوي كما تمارسه ، وأنه من خلال المقارنة بين الدعوة

وأصحابها ، بين المثال والواقع ، يمكن أن يوجد التناقض الذي سيكون سلاحا حاسما .

وما كاد يوغل المساء ، وتتوالى برامج السهرة ، ويشهد ما تضمنته من أفكار فجة سيقت في أسلوب متخلف غير قادر على إقناع طفل حتى كان قد تحول تماما إلى ضرورة معرفة العناصر المعادية بصورة شخصية بالغة الدقة ، حتى يمكن إنقاذ الخطة من رد الفعل العكسي الذي يمكن أن تواجهه ، بعد أن تأكد لديه أن الشخصيات التي شاركت فيها إعلاميا ليس بمقدورها مواجهة فكرية حقيقية ، فضلا عن تحقيق نصر فيها ، ولابد من مدها بمعلومات شخصية يحسن أن تكون حقيقية حتى يصبح في وسعها تحقيق تأثير إيجابي .

« من هؤلاء المعارضون ؟ ماذا يريدون ؟ ، إنك تعرف الإطارات العامة لميولهم واتجاهاتهم ولكنك لا تعرف العنصر البشري ، ولابد من معرفته بعد أن تكشفت أهميته في توجيه المعركة ، إنهم بالقطع مجموعات من المقلقين فكريا ، المنعزلين عن الواقع ، الفاشلين في التكيف معه ، لكن ها هم أولاء يثيرون برغم ذلك ضجيجا مثيرا ، هل هم حالمون يبنون لأنفسهم عالما مثاليا أم واهمون يتخيلون أن بالإمكان تغيير ما هو قائم ؟ أي نمط سلوكي يميزهم في حياتهم حتى يقاتلوا بشراسة ضد تيار غلاب لا يقهر ؟ ما الذي يدفعهم إلى ذلك : اليأس أم الأمل ؟ » .

« *من هؤلاء ؟* » رويدا رويدا أصبح السؤال هو الهاجس الذي يؤرقه ، وما كاد يطالع على عجل ما كتبته الافتتاحيات الرسمية للصحف الكبرى وكتّاب الأعمدة فيها بعد تلقيه طبعاتها الأولى في المساء وما تضمنته من شتائم بذيئة وتلميحات سلوكية وأخلاقية بشعة حتى صار على يقين بأن الإجابة عن السؤال يجب أن تكون لها الأولوية حتى يمكن إنقاذ المعركة من مقاتليها ، الذين أحس بأن عليه واجبا تجاههم بتزويدهم ببعض الحقائق التي تعينهم في حملتهم ، بعد أن تأكد من أن قدرتهم على الحوار الموضوعي

ستلحق بهم في الساحة الثقافية هزيمة كاملة « *إنهم لا يملكون فكرا قادرا على مواجهة أولئك القادرين على التخفي وراء القيم الكبرى للإنسانية ، مثل الحرية والحق والعدل والخير والجمال إلى اخر هذه المنظومة من الشعارات البراقة غير العملية التي ينسجون منها شبكة تصطاد السذج والبلهاء المنعزلين عن الواقع أو الفارّين منه ... فلا مفر من تزويدهم بما يساعدهم في المركة من معلومات* » .

فكر في أن يطلب تقارير مفصلة من الجهاز الخاص عن كل من ورد اسمه في التقارير الأمنية ، ولكن شكه التلقائي في مقدرة هذا الجهاز على فهم ما يدور في الحياة الثقافية والتمييز بين تياراتها المختلفة حمله على التردد : « *إن أبسط الوسائل التي يلجأ إليها أعضاء هذا الجهاز أن يتهموا كل من لا يفهمونه أو يرفض التعاون معهم بأنه متآمر ، معتمدين في ذلك على تقارير الأعداء الحاقدين أو الخبثاء الساخرين أو البلهاء المذعورين ، وينسجون له شبكة اتصالات وهمية تتنافر مكوناتها عند أي شخص لديه أدنى إلمام بالاتجاهات الفكرية في الساحة الثقافية . ليس لديك الوقت لقراءة أكاذيبهم ولا مناص من أن تنزل شخصيا إلى ساحة العمليات* » .

مد يده إلى التليفون وطلب حامد شكري ، أحد المحررين الذين يتميزون بالنشاط البارز في جمع المعلومات في القسم الثقافي ، وسأله دون تحية :

– حامد ، هل ما زال فاروق السيد يواصل ثرثرته في سوق الحميدية .

رد حامد وقد فاجأه السؤال :

– لا أظن .

فقاطعه ماهر بعنف .

- أنت تعرف أنني لا أحب أن أسمع كلمة أظن ، أريد معلومات قاطعة عن حلقته وعن الذين يشاركون فيها بانتظام ، وكذلك الذين يتصلون بها من حين لآخر .

صمت المحرر كأنما يستوعب المفاجأة فواصل ماهر ساخطا :

- أريد كل المعلومات في أسرع وقت ، واتصل بي حينما تنتهي .

ووضع السماعة وهو يزفر ، لقد كان واضحا أن حامد لا يتابع شخصيا ، ومعنى هذا أنه سيلجأ إلى عناصر مجهولة في معرفة المعلومات المطلوبة ، فهل تزيد مثل هذه المعلومات التي تقدمها وسائط مجهولة عن معلومات الجهاز الخاص ، « *إن حامد معروف بدقته لكن السرعة قد تحمله على قبول معلومات مشكوك فيها إن لم تكن كاذبة أصلا .*

- *آه يا فاروق ... أنت دائما متعب ، وكل من حولك متعبون .*

- *ليكن ، لكني لا أخون مبادئي .*

- *أيها الأحمق ، التيار يتغير ، النهر كله يتحول مجراه ، لن يصبح لمبادئك وجود .*

- *لن تزول المبادئ حتى لو فشل أصحابها في تحمل أعبائها ، فالمبادئ حلم البشرية ، من الأزل إلى الأبد .*

- *تذكر الثمن الذي دفعناه معا ، أنا وأنت .*

- *المؤمن الحق لا يرتد عند الابتلاء .*

- *لقد خاننا الزعيم ، بأوامره عذبنا .*

- *أحلامنا ليست من وحي الزعامات حتى تنتكس بردتها ، أحلامنا وهج يقبس من روح الإنسان العاشق للعدل .*

- لقد عذبونا جيلا بعد جيل ، حتى أولئك الذين كانوا يقبسون من نورنا لم يترددوا في تعذيبنا .
- الضربات التي لا تقتلك لا تزيدك إلا قوة .
- ستقتلنا الأحلام .
- بل لن تقتلنا إلا الخيانة .
- أي خيانة في أن نعرف قدرنا ونبني أنفسنا في حـــــدود إمكانياتنا .
- الاستسلام المطلق لقوى الفساد والاستغلال والتبعية خيانة .
- حذار ، كلماتك مستفزة .
- الخونة لا يبنون ، بل يسرقون وينهبون ويدمرون .
- فلتصمت على الأقل .
- لن أخضع للإرهاب مهما كان الثمن .
- سيرديك لسانك .
- لكن ستبقى كلماتي حية » .

ضم ماهر قبضته بقوة ودق بها مكتبه بشدة وجز على أسنانه غيظا وهو يؤكد بصوت مسموع :

- لن يبقى لك ولا لكلماتك أثر ، ستذروكما الرياح هباء .

ألقى نظرة على نتيجة الحائط أتبعها بأخرى على ساعته وتمتم لنفسه :

« طبقا للتقاليد القديمة ما زالوا هنالك يثرثرون ، ولو رأيتهم

لأدركت أنهم حيث كانوا لم يتحركوا قيد أنملة واحدة طوال أكثر من عشرة أعوام » .

داهمته قشعريرة حادة لمجرد الاحتمال ، ولكنه تماسك سريعا :

« لقد كان اختيارك صحيحا ، وتم في الوقت المناسب ، انظر أين أنت الآن وأين هم ، إنهم مجموعة من المتسولين الذين لا يجدون قوت يومهم ، ولو كان بيدك الأمر لاستضفتهم دائما في المعتقلات رفقا بهم بدلا من إطلاق سراحهم ليجوعوا بين فترة وأخرى » . نهض متثاقلا وسار خطوتين ووقف أمام النافذة المغلقة ، وأطل منها على القاهرة في الليل ، بأضوائها الباهرة التي تسطع فتشع سحرا ، ثم انحرف عن النافذة ووقف يتأمل صورته في المرآة الفرنسية ذات الإطار المصنوع يدويا من الفضة التركية الخالصة في القرن الثامن عشر ، التي كان قد أهداها إليه ضابط فرنسي شاب تذكر ما كان بينهما وابتسم برضا مخاطبا صورته :

– « مازلت ذلك الفارس المظفّر » .

وفجأة ... استدار وأخذ طريقه إلى الباب ، وقد خطر بباله أن يلقى نظرة من بعيد .

✍ ✍ ✍

- ٢٦ -

– يا أستاذ أحمد ، يا أستاذ أحمد .

جاءه الصوت المتوقع مخترقا الظلمة الدامسة وهو مسترخ فوق الكنبة البلدية المصنوعة من خشب الكافور المصري التي تشغل الفراغ تحت النافذة المطلة على العطفة ، فأدرك مباشرة أن عمر كعهده به حين يأتي في حاجة إلى من يقوده ليرقى السلم المظلم المحطم الدرجات حتى لا يتعثر . قفز تلقائيا ومد يدا مدربة أضاءت مصباحي الصالة والسلم في لحظة واحدة . وخرج من باب الشقة تاركا إياه مفتوحا ، ثم نزل بضع درجات قبل أن يتوقف ليقود الصاعد بتوجيهاته حتى يجنبه الزلل .

ألقى عمر السلام فور سماعه الصوت ثم أردف وكأنه متعجب :

– ليس من عادتك أن تنام مبكراً .

فرد أحمد بتلقائية .

– غفوت قليلا بعد صلاة العشاء .

عقّب عمر ضاحكا :

– لعلك كنت مجهدا .

فقال أحمد وهو يشاركه الضحك :

- بل أحببت أن استعد للقائك .

قاطعه عمر متصنعا الدهشة :

- بالنوم ؟ .

رد أحمد بسرعة متصنعا الجد :

- بل باليقظة .

ثم مد يده إلى عمر يساعده على صعود الدرجات الأخيرة فقال عمر ، وهو يستند على الدرابزين متجاهلا يده :

- إذن أنت جاهز .

فقال أحمد وهو يمسك به بقوة :

- من كان مثلنا يجب أن يكون جاهزا دائما .

هز عمر رأسه موافقا وهو يتمتم :

- أرجو هذا ، أرجو هذا .

دخلا وجلسا على الكنبة ، متجاورين كتفا لكتف ، ظهراهما إلى النافذة المفتوحة وعيونهما تدوران في المكان وهما يتبادلان عبارات موحية تتراوح بين الجد والهزل ، كانت عيون أحمد تبحث عن براد الشاي وأدواته المنثورة في الصالة لتجمعها تمهيدا لصنعه تحية لضيفه ، وكانت عيون عمر تختبر الصورة التي تحتفظ بها الذاكرة وتستكشف :

« هل من جديد ؟ » « هذا باب المطبخ الصغير تظهر خلفه حلة الألومنيوم التي تحمل الصينية النحاسية القديمة بمثابة غطاء لها ، هذا هو الممر الضيق الموصل إلى حجرة النوم تشغل معظمه المنضدة الصاج تحمل مجموعات الكتب المكملة لما في حجرة النوم والتي تبدو

لأول وهلة متناثرة متداخلة تفتقر إلى النظام ، تختلط فيها كتب الفلسفة والدين والأدب والتاريخ والحضارة والطبيعة والاجتماع والكيمياء والتشريح وعلم وظائف الأعضاء ، لكنك لو تأملتها بوعي لوجدتها مرتبة ترتيبا دقيقا حسب الموضوع الذي يقرأ فيه أحمد ويبحث جوانبه المختلفة ، فتتآزر جميعا على دراسة النقطة التي تكون محور اهتمامه ، ولو كان لديك بعض الوقت لاستطعت بتحليلك لهذه الكتب أن تعرف الموضوع الذي يشغل فكره الآن . هذان هما الكرسيان الخشبيان اللذان تهرأت حشيتاهما موضوعان في مكانهما منذ اشتراهما أحمد من تاجر السكندو على الناصية بجوار مسجد السيدة فاطمة النبوية ، هل مازلت تذكر العبارة التي قالها آنئذ تبريرا لشرائه أشياء قديمة ؟ لعلها كانت :

- ليس القدم دليلا على عدم الصلاحية .

لكنك مازلت تذكر الاستدلال الفكه الذي سوغ فيه عبارته تلك ، إنك لا تستطيع أن تنسى وقد صار أحد الأدلة الجدلية التي تلجأ إليها في مناقشاتك أحيانا :

- إن اسمك قديم ، ولكنه صالح لك إلى أن تموت ، وسيظل صالحا لك حتى بعد الموت أيضا .

آه يا أحمد ، خسارة كبيرة إذا اضطرتك الظروف أن تتوقف في منتصف الطريق » .

وضع أحمد كوب الشاي بعد أن شرب آخر قطرة فيه ، في حين كان عمر ما زال يحتفظ به في راحته لم يتناول منه رشفة واحدة ، نظر إليه أحمد مستطلعا وقد شابت نظرته دهشة : « لماذا لم تشرب الشاي مع أنك كنت دائما معجبا بطريقة صنعي له حريصا على الاستزادة منه ، هل أسأت صنعه لأنني لم أكمل

يقظتي بعد أم أن في الجوفيما ؟ » هل كان عمر يحاول أن يقدم تفسيرا حين قال :

- الجو الآن متقلب .

فقال أحمد وهو يحدق في عينيه :

- أمر طبيعي في هذه الفترة من السنة .

تابع عمر وهو يلقى ببصره من النافذة المفتوحة :

- أمر غريب ، لا تستطيع أن تحدد بدقة ما قد يحدث ، تخرج وفي تقديرك أن الجو حار فإذا به يبرد فجأة وكأننا في منتصف الشتاء ، تتوقع البرد فإذا الجو شواظ من نار ، هناك شئ غير عادي حدث ، شئ لا يمكن تفسيره .

هل أحس أحمد بالقلق حتى يصمت منتظرا شيئا غير متوقع ، إن مثل هذا الحديث بين الإخوة أمر غير مألوف ، « *منذ متى ونحن نتحدث عن الحر والبرد والصيف والشتاء والليل والنهار ؟ لقد تجاوزنا تلك المرحلة منذ زمن بعيد ، عويتك إليها الآن أيها الأخ تخفي أمرا جللا ، ماذا وراءك ؟* » .

قال أحمد كعادته كلماته حين يكون مهموما :

- الأمر لله من قبل ومن بعد .

ثم تابع ربما ليتأكد من اتجاه الريح :

- ألم يكن صلاح معك حين حضرت ؟ .

فقال عمر وهو ينهض :

- اتفقنا على أن نلتقي في الحسين .

فسأل أحمد مندهشا :

- ولم لم يكن اللقاء هنا ؟ .

هل أجاب عمر حين قال :

- ألا تحب أن تتعشى بساندوتش عجة من العجاتي ، وتحلى بطبق مهلبية من المالكي ، وتحبس بكوب من الشاي الأخضر .

اكتفى أحمد بالنظر إليه برهة قبل أن يقول ضاحكا :

- هذا ترف له ما وراءه .

فتجاهل عمر عبارته وقال يحثه على التحرك :

- إذن إلى الحسين .

« لماذا يشتد وجيب القلب وأنت تتهيأ للدخول إلى باب اللوق قادما من التحرير ، لقد مررت بهذه المنطقة من قبل مرات لا حصر لها فلم في هذه المرة دون غيرها تترقرق في حنايا النفس مشاعر مستسرة غامضة لها طعم الحنظل » حاول ماهر أن يبتلع ريقه أكثر من مرة ولكن حلقه جاف ولسانه عصى كأنما قُدَّ من صخر . أي هواجس تلك التي تحل به فتربكه وتغريه بأن يعود من حيث جاء وأن يلتمس ما يريد من معلومات بالأساليب المألوفة ، لماذا يزج بنفسه مرة أخرى في أتون تجربة يعرف مدى قسوتها ؟ .

« تستطيع أن تتوقف ، أنت على مرمى البصر من مكانك القديم الذي شهد ذكريات الشباب الأول ، حين كنتم تعيدون بناء الكون كله فكرا ومادة ، أي متعة سائغة كنتم تمارسونها وأنتم تملئون الأفواه بتعبيرات قاطعة قادرة على تحليل كل شئ ، وتفسير كل شئ ، والحكم على كل شئ ، لقد تجاوزت منذ زمن بعيد تلك المرحلة حين أدركت الحقائق التي تحكم فتخليت عن الأوهام والأحلام ، ولكنهم ما زالوا هناك يمارسون نفس الدور ، وستكون أمامهم عاريا تماما حتى

النخاع ، قد يختلفون في تصنيفك ولكنهم لن يختلفوا في تفسير نوافعك ، ولعل متعتهم حين يرونك أن يستعرضوا كل ما يعرفونه فيك وما يشيعونه عنك ، وسيدير رفيقهم الأكبر فيهم رأسه ويتفحصهم بعينيه ثم يبدأ بصوته الرخيم العميق تحليله بالحديث عن الردة الفكرية تحت ضغط التطلعات الطبقية ، ممثلا هذه المرة بك أنت ، وستقف أمامهم مذعورا كقطاة غرها شَرَكٌ ، من جديد سيخلع أرديتك ليجعلك أمام مريديه عاريا كما ولدتك أمك ، منذ سنوات كنت تستطيع الدفاع ، كانت ثمة غلالات رقيقة تنسجها يد السلطة لتغطي سوأتها بدعوى مصلحة الوطن وأمنه ، الآن ليس من سبيل إلى الدفاع فقد تكشفت الحقائق كاملة ، ولم تعد السلطة تُعْنَى بأن تستر عورتها بغلالة واحدة ولو كاذبة ، إنك تحمد لها مع ذلك صدقها في إعلانها التبعية المطلقة ولكن المشكلة مَنْ مِنْ هؤلاء الحالمين يوافقك ؟ إنهم سيعرونك حتى أمام نفسك ، ونفسك ما زالت أمارة ، إنك برغم اقتناعك العقلي بكل ما تفعل ما زالت فيك بقايا حنين غير مفهوم إلى عهد الصعلكة الأول ، الذي يحرك الإحساس به حتى ليتجلى في روعة الحب الأول صدقا ويأسا ، إنه يمثل لك عهد الصدق المطلق في كل ما تقول وما تفعل وما يحكم قولك من أسباب وفعلك من غايات وهو عهد اليأس المطلق من احتمال النوال والتعايش والممارسة والاكتفاء....

آه .... بوسعك الآن أن تتوقف، لكن النفس الخبيثة ما زالت برغم كل شئ تحتوي على بذرة سخط متمرد ، وترقد في حناياها جرثومة غير مستأنسة ، أتستطيع أن تنكر إعجابك بشجاعته وتصميمه وقدرته على الصمود أمام سيف المعز وذهبه ، أتستطيع أن تنكر أنه كان يملك أن ينحني للعواصف فيحقق ما حققت ، بل يتجاوز كل ما حققت بما له من ذكاء لماح ومقدرة هائلة وثقافة شاملة ، لقد اختار بإرادته واخترت

أنت بإرادتك ، ولكنه في هذه المرة لن يخفي احتقارا نطقت به يومها ملامحه ، قد لا يعفّ الآن لسانه عن النطق به وقد اتضحت كل الأمور وتحددت جميع المواقف ... آه ... ما زالت له القدرة على اختراقك فتوقف ، إنك حين تواجهه ستكون حصونك مهددة من داخلها » .

كيف استطاع أن يجتاز الطريق وهو مشغول القلب والعقل ؟ لماذا لم يلجأ إلى الشوارع الخلفية ليضع سيارته كما كان يقدّر قبل أن يحضر ؟ هل استغرقه التفكير إلى الحد الذي وجد فيه نفسه على مشارف ميدان عابدين أم كان ذلك ما يريده منذ البداية دون أن يدري ؟ أخذ يدور حول الميدان يتفحص الأماكن لعله يجد متسعا يضع فيه سيارته فوجد نفسه تلقائيا يلقى نظرة عفوية على القصر الضخم الذي يحس له في أعماقه باعتزاز خاص ، منذ أن حضر فيه ضمن عدد محدود منتقى من كبار الكتاب لقاء بالغ السرية برئيس ضيف لدولة معادية صدرت الأوامر يومها بكتمان خبره وعدم نشر أي شئ عنه ، ليشارك في حوار حول خطط العمل المشتركة لمواجهة القوى السرية المعارضة ، ومنذ ذلك الحين والقصر عنده رمز للثقة فيه والرضا عنه ، ولكنه لعجبه أحس له هذه المرة بكآبة موحشة ، وبدا له في هذه اللحظات شديد الظلمة برغم ما حوله من أضواء لم تكشف إلا ما ألمّ به من قذارة بالغة ، أوقف سيارته في مواجهة القصر وأخذ يتأمله بأناة ، كان يرتدي ثوبا سابغا لا تخطئه عين من التراب والطين ، والقمامة تحيط به كسوار ، أحس لما يرى انقباضا لا حد له ، وما كاد يغادر سيارته حتى داهمته رائحة عفونة حادة أوشك أن يفرغ لها ما في جوفه ، فسار عجلا حتى اجتاز الميدان كله ثم توقف مقطبا ليشعل سيجارة علها تزيل أثر الرائحة في أنفه ، أخذ نفسا عميقا احتبسه في صدره وفمه وأخذ يلوكه بلسانه وظل يتأمل القصر من بعيد وقد غلبه الأسى :

« كيف يتحول القصر العظيم إلى مبنى كئيب بشع ؟ ! » .

عنّ له – ربما للحظة واحدة – أن يكتب شيئا عن ضرورة الاهتمام به ، ثم قرر في اللحظة التالية أن يكون ذلك بعد انتهاء المعركة التي يخوضها ، ولكن سرعان ما ذهبت

الفكرة وتلاشت « *إذا كان عابدين قد انهارت أهميته وفقد قيمته فمن حسن الحظ أن في البلد قصرا جديدا هو خير عوض عنه* » . أخذت ملامح القصر الجديد تتكشف في ذهنه وتتحدد وتتجسد ، إنه أحد عشاقه منذ أتيح له أن يدخله لأول مرة يوم إقامة الحفل الذي منح فيه الكاتب الكبير قلادة النيل . استعاد ذهنه لا شعوريا ذلك الانبهار الذي عمَّ صفوة كتاب الوطن وهم يشهدون بأعينهم أثمن مجموعة من التحف جمعت في مكان واحد ، ويتأملون فاغري الأفواه مظاهر الترف الباذخ والأبهة الفاخرة والثراء العظيم ، وتتردد أبصارهم حائرة بين كل شئ يحيط بهم ، فتحت أقدامهم سجاد فاخر صنعته الأيدي الخبيرة في سنوات ليناسب كل ملليمتر من المساحات الهائلة من قاعات وأروقة ، وفوق رءوسهم لوحات باهرة وإن كانت في مجموعها تقليدا للوحات شاجال لسقف أوبرا باريس إلا أنها استغرقت جهود عدد عظيم من كبار الرسامين أعواما ، وزاد جمالها ما سلطته عليها ثريات الكريستال الفاخرة التي كان نورها يلقى بألوان الطيف الخلابة في كل اتجاه ، وأمامهم وخلفهم زخارف يعجز العقل البشري عن تصور جمالها وهي تصبغ كل شئ بطابع معجز ، الأبواب ، والنوافذ ، والحوائط ، والأثاث ، والديكور ، حتى أن كثيرا من المدعوين لم يستطع أن يحس بطعم الطعام الفاخر الذي أحضر إلى الموائد مباشرة من مكسيم وأوكاس كارتون ولا مبروازيه ، ولم يلق بالا في غمرة ما يرى إلى السرفيس الرهيب المصنوع من الذهب الخالص والذي يستطيع أن يستعمله فى آن واحد ثلاثة آلاف مدعو ، استغرقته الذكرى البهيجة حتى ان أذنيه سمعتا كلمات الإعجاب وتألقت في عينيه من جديد نظرات الانبهار ، وصدحت في وجدانه ثانية عبارات القائد وهو يداعبهم باسطا ذراعيه مشيرا باعتزاز إلى ما حوله :

- والله إنها لقسمة ظالمة ، أن تكون مهمتنا أن نعمل وأن تكون مهمتكم فقط أن تتكلموا .

وجلجلت من جديد في أذنيه الكلمات الضاحكة :

- ومع ذلك فأنتم لا تتكلمون .

انفرجت أساريره وهو يتذكر النكات التي عقب بها بعض الكتاب تعليقا على خفة دم القائد ، ولكنه عاد إلى العبوس مرة أخرى حين حاول أن يتذكر ما قيل بعد ذلك عن واجب الكتّاب في التبشير بالصحوة الكبرى إنقاذا للوطن من أزمته ، وضرورة حثّ الناس على الزهد والتقشف والعطاء رعاية للظروف الحرجة التي يمر بها الاقتصاد الوطني ، ولكنه لم يتذكر شيئا ، تمتم أسيان وكأنه يلوم نفسه :

- لقد كتبت مقالات كثيرة في الموضوع ، فكيف تنسى ؟ ! .

وسرعان ما هبطت عليه فكرة أخذ يتأملها وهو يجتاز الطريق دون أن يعى أنه متجه إلى باب اللوق : « *عليك أن تكلف أحد المحررين الجادّين بعمل ملف يتضمن مقالاتك كلها* » ولكن الفكرة ما لبثت لحظات قليلة حتى تطورت ، فقرر أن يكلف فور انتهاء المعركة عددا من المحررين – وليس واحدا فقط – بجمع كل ما كتبه وما كتب عنه « *إنه لأمر بالغ الأهمية أن يكون بين يديك سجل كامل عن أعمالك* » ابتسم ابتسامة عريضة ، ربما لأول مرة هذا المساء ، وأشعل سيجارة جديدة وهو يستكشف – برضا – الآثار الجليلة لهذا العمل :

« *كيف فاتك التفكير في هذا الموضوع من قبل ؟ إنك به تسدي صنيعا لايجحد للمهتمين بالبحث العلمي والثقافة الإنسانية ، فقد يأتي يوم تسجل فيه عنك رسائل جامعية وسيكون هذا العمل هو محور هذه الرسائل ، فضلا عن أنه سيتيح لك أن تعيد صياغة تاريخك من جديد حين تستبعد ما يجب استبعاده مما قد يؤثر في مكانتك . هذا العمل يجب أن تكون له الأولوية بعد انتهاء المعركة* » .

أيقظه من أفكاره بوق سيارة مرتفع أعيا صاحبها عدم استجابته لإشاراته الضوئية فظل يلح عليه بالنفير ، قفز جانبا في اللحظة التي أوشكت فيها السيارة أن تدهمه والسائق يصب عليه اللعنات ، تأمل ما حوله فأدرك أنه قد اقترب كثيرا من باب اللوق ، فتمتم لنفسه وكأنه يستسلم :

« *لابد أن تكون قادرا على مواجهة ذلك المجنون الذي أغرقه الطوفان ومن حوله من الحمقى* » .

ومضى - متثاقل الخطى - يستشرف الموقع من بعيد ، محاذرا أن يراه أحد .

- ٢٨ -

- « صدى الكلمات يدوي في أذنيك ، يصرخ في أعماقك ، يتفجر في كيانك ألما حتى يختلط بكل ذرة فيك ، يعصف بك حزنا حتى يفقدك الوعي ، يصهر روحك يأسا حتى تتبدد ذاتك ، هل معقول أن تكون بشرى هي التي قالتها ، تلك الزهرة الندية الرقيقة ، تلك الوديعة العاقلة ! هل يمكن أن يكون هذا هو تقديرها لك ، أنك أسير تجربة ذاتية ، لو أنها قالتها في لحظة غضب لما كان لها هذا الأثر ، كنت ستعتبرها شأن كل الكلمات الانفعالية تنفيسا يفتقد التفكير ، تعبيرا يندّ عن العقل ، ولكنها قالتها بهدوء المفكر وثقة الواثق من دقة التحليل ، كما لو كانت قد عانت الفكرة مرات قبل أن تستقر فيها على رأى وتنتهي إلى تقييم ، أهذا هو تقييمها لك ؟ لكفاحك الممتد منذ استبان لك الطريق في مطلع شبابك ، لصمودك في مواجهة الاستبداد والطغيان والدكتاتورية ، لنضالك ضد التزييف والردة والتحريفية ، لخروجك عن كل اتصال فيه شبهة تنازل ، فيه لمحة موافقة ، فيه ذرة تأييد ، لكرامتك التي ما سمحت قط أن تهزها كلمة ولو من

صديق ، أو ينال منها موقف ولو من عدو ، المترفعة عن الأطماع ، الشامخة فوق الأحزان ، البريئة من التدنّي ، المحلقة في الآفاق العليا ، الأبية النفور التي لم تستطع كل المغريات أن تلهيها ، ولم تتمكن كافة الضغوط أن ترهبها ، الملتزمة أبدا بمجد الكلمة ، فلم تقل إلا ما تقتنع به ، ولم تدعْ لحظة إلى رأى ملفق ، ولم تتردد في أن تدين أي انحراف ، المتطلعة أبدا إلى مجد الموقف ، فلم تقف في خندق مع عدو ، مهما تعدد الأعداء وتآزرت جهودهم وتكاثفت قواهم .

- مهلا ، ما هذا الذي تقول ؟ ! إنك تنعي نفسك كأنك شهيد مقتول به ، لا تستمرئ هذا الإحساس فلست بشهيد ، إنها لم تُجْرِم حين عبّرت عن وجهة نظر لا تعجبك ، هل ينبغي أن تحكمها تجربتك ؟ هل لأنك أكلت الحصرم يجب أن تضرس ؟ ألم تكن أنت الذي عودتها على أن تناقش بحرية وتعبّر بصدق ، ماذا كنت تريد منها ؟ أن تزيف آراءها أو تنمق كلماتها ! هل ما زالت في أعماقك برغم ثقافتك ووعيك وخبرتك ونضالك أثرة الرجل الشرقي التي تريد من كل من حوله أن يدينوا حتى بوجودهم له ، وأن يتطامنوا أمامه ، وأن يحرصوا على رضاه ، وأن ينقلوا بسعادة إرادته ، إنها تجاوزت ما تفعله أنت ، فهي تواجه ولا تتجمد ، تقول ولا تتردد ، لا تتشر بالصمت بدعوى الاحتقار ، ولا تتحصن بالترفع هربا من الأخطار ، إنها خطوة بعدك ، وهي ثمرة غرسك ، يجب أن تكون سعيدا بها حتى حين تخالفك ، فإنها لا تصدر في موقفها عن رفض لك ، بل عن تمثل كامل لمبادئك ، والتزام مطلق بتربيتك ، إنها ما أردت منذ البداية أن تكونه : مجردة من الخوف ، خالصة للشجاعة ، وإذا كان قد كبلك من قبل

حرص على أسرتك ورغبة في تجنيبها الآلام فلن يكبح جماحها حرص ولا رغبة ، فارفع رأسك في السماء ، ودق الأرض بأقدام ثابتة ، إن ابنتك – وإن خالفتك – تمحو عار الصمت وتزيل ذلة السكون .

- توقف .... توقف .... أفق ، حتى متى تحكمك الأحلام المستحيلة وتستبد بك الرغبات الظمأى ، أتظن أنها تنجو !! ألا ترى أنك تسلمها إلى وحوش الغابة ؟ ! أنسيت ذلك العهد الذي كان إنه بعد لم يزل ، أتذكر العصا المطاطية الغليظة الملطخة بدم الأحشاء إنها ما زالت في الأيدي القذرة ، أتذكر الزنزانة التي لا يشاركك فيها إلا الكلاب الوحشية إنها باقية تنهش ما تبقى من وعي ، أتذكر صعقات الكهرباء اليومية لقد صارت تيارا يمحو نماء العقل ، أتذكر تجارب البسترة البشرية لقد نضجت وأصبحت أسلوبا حصل على جائزة الإبداع .

أفق أيها العالم ... أفق ، إنك بترددك تسلمها للوحوش النهمة للدماء البشرية .

أفق أيها العالم .... أفق ، فظلمات الليل المجنون قد عمت الآن كل السبل ، وانتشرت في كافة المواقع ، وسدت جميع الآفاق ، وامتدت من الغرب إلى الشرق ، واستقرت في الشمال والجنوب ، وسادت في الفكر والمادة ، وفاضت بها العقول والقلوب والأرواح .

أفق أيها العالم ... أفق ، فالليل المجنون قد عصف بكل الأحلام ، وحلت ظلمته في كل الأبصار ، وران بثقله على كل الآذان ، وجثم برهبته على كل الألسنة ، ومحا بسطوته كل إرادة .

أفق أيها العالم ... أفق ، فلن ينجيها اليوم أحد ، لن تسمعها في الظلمة عين ، لن تراها أذن ، لن يمتد إليها في الجب الغائر أثارة من ضوء ، اللعنة على كل الأحلام الوردية ، فقد صار العالم قطيع بقر لراع همجي ، وأصبحنا جميعا قطعان خراف لعبيد مسعورة النهم لا تحسن شيئا غير السجود له والضراعة » .

✍ ✍ ✍

- ٢٩ -

« هل كنت تتصورين أن يصبح أبوك - الدكتور شوقي فخري - رمز التفكير العلمي والدقة المطلقة ، بهذه الصورة المرعبة غير المفهومة !! لقد كان في استطاعتك دائما أن تتنبئ بردود أفعاله تجاه أي حدث ، وأن تحددي سلفا موقفه في مواجهة أي تصرف ، فقد كانت تحكمه مجموعة المقولات الأساسية التي تَمثّلها فأصبحت تلقائيا قوانين كلية تنظم فكره وتهدي سلوكه على السواء ، ولذلك كان كلما ازداد الظلام قتامة يرى الفجر القادم بعده ، فلم يفقد الأمل أبدا في أن يرى النور يغمر الدنيا بأسرها ، وكانت المظالم والظلمات وقود يقينه بأن حركة النضال الإنساني ستصل حتما إلى غايتها فينبلج الصبح وتشرق الشمس ، فكيف تندّ تصرفاته الآن عن كل فهم ، وتنأى عن أي منطق ، كيف يصبح أسير انفعالات هائلة ، وكأن قوة خفية استبدت به وتملكت كيانه ، وأي قوة هذه التي تتمكن من أن تصيب إنسانا في قدرته ، فبعد أن كان نموذجا لوضوح التفكير واتساق المواقف وانضباط السلوك ، يتحول إلى كيان متفجر متبدد ، تفبشت أمامه السبل واضطربت لديه المفاهيم » .

أخذت بشرى تستعيد من جديد ما حدث بينها وبين أبيها حين التقي في المساء بعد أن عاد من الكلية ، واستوقفتها من جديد كلماته العاصفة ، فحاولت أن تصرف نفسها عنها ولكنها لم تستطع ، كانت الكلمات بحدتها البالغة صرخات غضب ينذر بخطر انفجار غير محسوب .

« ها هي ذي الأحزان تتجدد فيفيض القلب لوعة وهو يرى هذه المرة الوالد كبندول ساعة معلقة على جدار الكآبة الموحشة ، يتراوح بين اليأس المطلق فيبركه الاستسلام القاتل ، وبين الغضب الثائر فيتحول إلى لهب متأجج يحرق كل ما حوله في اللحظة التي يحترق فيها فيحرق ذاته ، وأنت في الحالين واقعة بين المطرقة والسندان ، خوفا عليه وخوفا منه » .

ودّت أن تبكي ولكنها لم تستطع ، دفنت من جديد رأسها في الوسادة فسمعت أعماقها تنزف نشيجا ، ولكن الدمع العصيّ أبى أن يستجيب ، نهضت للمرة العاشرة من الفراش لتدور في الحجرة مرة بعد مرة ، غير عابئة بما تصطدم به من أثاثها ، ثم خرجت على عجل متجهة إلى أمها ، ولكنها حين فتحت عليها الباب وجدتها تسترخي شبه نائمة فعادت أدراجها ، وعيناها لفرط انفعالها لا تريان الأشياء إلا خيالات وأشباحا ، ومن جديد ألقت بنفسها إلى فراشها .

أحلام الصبا الرائعة تستيقظ فتملأ النفس حنانا وحنينا ، تعود ذكريات عذبة امتلأت بها أيام مست القلب بدفئها وفتحت العقل بنورها ، ها هو ذا شامخا إلى جوارها يضغط يدها وهما يشاهدان المسرح ليلفت نظرها إلى مشهد أو عبارة ، أو وهما يحضران حفلا موسيقيا لينبهها إلى حركة آلة أو إشارة مايسترو ، ها هو ذا يضع خطوطا بقلمه الرصاصي تحت العبارات التي يريدها أن تتأملها في الكتب التي يعطيها لها لقراءتها ، ها هو ذا يجلس مهيبا في صومعته يناقش ما قرأت ، ويربط بين الكتاب والواقع الذي تعيشه في دوائر متداخلة متصلة تتسع حتى تشمل العالم كله ، ها هو ذا

يحكي عن تجاربه ورؤاه وتحليلاته وتوقعاته فتحس أنها - من خلاله - فوق الدنيا كلها ، تحيطها ببصرها وتعرف مساراتها وتشارك بحماسها الدافق في توجيهها .

« لماذا لا تفيض العين بالدموع مع أن الحزن نبع ثم يتفجر في الأعماق لهبا ؟ لماذا لا تسمع غير الصمت وضجيج الصرخات يملأ الوجدان وحشة ؟ ! أبي ، أيها الإنسان العظيم ، ما الذي غيرك ؟ » .

من أين يتسلل برغم الظلمات شعاع ؟ ! كيف يتمدد رويدا رويدا حتى يضيئ حنايا أغرقتها الوحدة ؟ كيف يمكنه أن يهدهد نفسا عصفت بها أعاصير الخوف ؟ إنه أحمد ، برغم كل شئ يظل مركز الاستقرار لك في قلب العاصفة ، عليك أن تعترفي بذلك دون خجل ومن غير مواربة ، هذه هي الحقيقة التي تمتلئين بها الآن حتى النخاع . لا أحد قبله استطاع أن يمنحك هذا الإحساس بالأمان ، ولا شئ - مع وجوده - يمكنه أن ينزع منك هذا الشعور ، حتى القلق الذي يسببه لك قلق من نوع خاص ، يملؤك انفعالا ممتعا وبهجة متجددة ، الآن ، جاء وقتك يا أحمد ، فأنا في حاجة إليك .

أمسكت تلقائيا بالتليفون وطلبت الرقم دون أن تنظر إلى القرص ، لقد عرفت أصابعها الطريق الذي ألفته حتى أنها لتستطيع أن تسلكه حتى في الظلمة ، ولكن التليفون لا يرد ، تسمع الجرس رنينا يوقظ النائم ولكنها لا تتلقى إجابة ، هل أخطأت أصابعها ، تعيد من جديد طلب الرقم وهي تدقق بعينيها في كل رقم ، ولكن النتيجة لا تتغير ، الصمت في السماعة لا يقطعه إلا الرنين المعهود .

- حتى أنت يا أحمد ، تظل حتى هذه الساعة خارج المنزل ؟ ! ترى .... أين تكون ؟ .

تسحّ أحراش النفس المجهولة بقطرات قلق غير منظور ، لا تلبث قليلا حتى تتوالى وتتصل ، فإذا بها سيل يغرق الحزن في بحر من الضيق ، فإنه لا يحول بينه وبين موعد الاتصال المألوف إلا ضرورة ، لكن أي ضرورة تلك التي تشغله في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ هل لذلك صلة بما يشارك فيه من نشاطات تستطيع أن تحدّسي الآن طبيعتها وإن لم تكوني قادرة على تحديد أبعادها ، لكن طبيعتها برغم غموضها تؤذن

بقلق « ربما كان في لقاء من لقاءاته التي لا تنتهي ، لكنه يفضل أن يعقد لقاءاته بصورة طبيعية في الأوقات العادية ، إنك لم تعرفي بعد كل شيء عنه ، لعل له نشاطا خفيا لم يشر إليه ، حتى لو كان له مثل هذا النشاط فإنه من الذكاء بحيث يمارسه بصورة تبدو طبيعية تماما ، إنه لا يتأخر إلا لضرورة قاهرة » يزداد القلق فإذا هو بحر هائج الأمواج ، ثم إذا هو سجن تزداد جدرانه المصمتة كل لحظة ضيقا حتى تختنق الأنفاس « لا أمل في شيء غير القراءة يمكن أن يخفف عنك بعض ما تعانيه » .

أمسكت بعدد من الكتب تفتحها وتقرأ شيئا منها ، كتابا إثر كتاب ، لكن الكلمات تبدو باهتة الدلالة رتيبة الإيقاع ، تقلبها لعلها تجد جديدا يشدها ، إلى أن فتحت أحد الكتب التي أعطاها لها أحمد ، وما لبثت قليلا حتى استغرقتها الكلمات :

- إن من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء يغبطهم الأنبياء والشهداء ، هم قوم تحابّوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور .
- تجدون شر الناس ذا الوجهين ، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه .
- ذو الوجهين في الدنيا يأتي يوم القيامة وله وجهان من نار .
- من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسان من نار .
- تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه .

مسّتها الكلمات برضا ففتحت لها بتلقائية وجدانا مشوقا إلى الراحة ، لكنها برغم ذلك أخذت تتأملها بعقل دأب على البحث فيما وراء الظواهر ، فأسلمها التفكير إلى أن القيمة التي تجمع بينها وتتألق فيها هي الصدق المطلق ، الصدق مع الذات ومع الآخرين ، الصدق في المشاعر وفي السلوك ، الصدق في القول وفي العمل ، تمتمت وهي تواصل القراءة :

- ما أروع أن يعيش الإنسان في عالم يخلو من الزيف ، فإنه برغم جميع الآلام يستطيع على الأقل أن يكون واثقا من الحقيقة راضيا عن النفس .

وشرعت تقرأ من جديد .

✍ ✍ ✍

- ٣٠ -

كانت وجبة العشاء – على ضآلتها – كفيلة بأن تجعل أحمد يحس بالامتلاء ، حتى انه لم يرغب في أن يشارك عمر في تناول المهلبية برغم حبه لها ، ولما أراد عمر –بدوره– أن يمتنع عن تناولها وكأنه يشاركه رفض أحمد ، وألح عليه في أن يتابع برنامجه ، واختار أن يظل واقفا ينتظر أمام المحل حتي يفرغ .

أخذ يتأمل الميدان الذي كان يعج حتى هذه الساعة من الليل بالمارة أفرادا وجماعات ، ومجموعات من الرجال صغيرة العدد تتسكع في جوانبه وعلى أرصفته ، يتضاحكون ويتبادلون التعليقات والنكات ، وعدد من الباعة الجائلين من الصبية والشيوخ يعرضون على المارة بإلحاح مثير للضجر بضاعتهم التي وضعوها على أقفاص من الجريد تناثرت فوق الأرصفة الموازية للميدان ، وحملت سلعا شتى ، منها مسابح ، وطواق ، وأحجبة ، وأوراق صغيرة تحمل مأثورات دينية ، أحس أحمد بقشعريرة تخترقه وهو يرى بائعا شابا يعرض عددا من المصاحف بسماجة مستفزة ، وعنّ له – في اللحظة نفسها – أن يدخل المسجد ليصلي ركعتين ، فحانت منه التفاتة إليه فوجد أبوابه مغلقة ، ولما عاد ببصره إلى الميدان استرعى انتباهه سيارة أتوبيس سياحي تأخذ طريقها إلى قريب من المسجد وتقف لينزل منها طائفة من الرجال والنساء الذين كان واضحا من

أشكالهم وأزيائهم وآلات التصوير التي يحملونها على صدورهم أنهم أجانب جاءوا ليتجولوا في المنطقة ، فهرع إليهم عدد من الباعة وقد حمل كل منهم جزءا من بضاعته التقطها من القفص الذي أمامه على عجل وأسرع ليعرضها على السائحين ، ولكن مرافقيهم أخذوا يزجرونهم بغلظة ، حتى لقد أسقطوا بعض ما في أيديهم على الأرض وداستها الأقدام ، أحس أحمد بالغضب لما يرى وتوقع أن تنشب مشاجرة ، ولكنه كان واهما ، فقد أخذ الباعة يجمعون ما سقط من أيديهم وما داسته الأقدام باستكانة من ألف الاستسلام ، في حين كان السائحون يتوافدون على باب المسجد الجانبي الذي انفتح لهم ، وكأنما كانوا وإياه على ميعاد .

– الآن ، حان وقت الشاي .

قالها عمر وهو يتأبط ذراعه فمضيا صامتين متجهين إلى المقهى ، تتابع عيونهما المحال الصغيرة المتجاورة وهما يخترقان الحارات الضيقة المتداخلة التي يسلم بعضها إلى بعض دون أن يلقيا بالا إلى ما يريان ، فقد شغلهما تفكير استبد بهما حتى اصطدما أكثر من مرة بالسالكين وتضاربت المناكب ، وظلا يسيران حتى وقفا أمام المقهى المزدحم الذي فاض بالرواد حتى شغلوا الحارة أيضا ، أخذا يتفحصان المكان بحثا عن موضع خال حتى اكتشف عمر في بحثه في الجانب الخلفي مكانا صالحا فاتجه إليه يعقبه أحمد ، وجلسا متقابلين أمام المائدة الصغيرة الموضوعة على مشارف الجزء الخلفي – وكأنها تحدد نهاية الجزء الأمامي – وظهراهما إلى الحائط ، ران الصمت بينهما وعلا وجهيهما جدٌّ صارم وعيونهما تتفحص الجالسين بأناة .

« لماذا لم يحضر صلاح ؟ ! إنه ليس من عادته أن يتأخر فلماذا تأخر ؟ ! » .

شغل السؤال أحمد حتى أنه لم يفطن إلى كوب الشاي الأخضر إلا بعد أن فرغ عمر من كوبه ونبهه إليه ، فابتسم خجلا وهو يقول كالمعتذر :

– الشاي الأخضر لا بأس به حتى وإن كان باردا .

ولم يلح عليه عمر ، فقد شغله بدوره غياب صلاح : « *إن معناه أن الاجتماع الخاص بتقييم الموقف قد امتد أكثر مما كان متوقعا ، ودلالة هذا واضحة ، أن الموقف ينذر بخطر جسيم ، قد لا تتضح لديك الآن معالمه ، ولكن مؤشراته توالت في الأيام السابقة ، وتأكدت بعزف أقلام السلطة مارشاتها العسكرية ، وبدء عصر التصفية الجسدية علنا في الطرقات* » .

حاول أحمد أن يركز انتباهه فيما حولهما حتى لا يستغرقه التفكير من جديد ، فأخذ يرقب الجالسين الذين تحلقت كل مجموعة منهم حول مائدة ، وبدت كل مجموعة جزيرة منفصلة برغم تماس المجموعات وتداخلها ، وكل واحدة منها في حالة اشتباك داخلي بالغ الحدة ، وأصوات الاشتباكات الدائرة تتصاعد وقد امتزجت فيها الضحكات الفجة والكلمات الحادة والشتائم النابية وصدى قشاط الطاولة ودقات قطع الدومينو وعبارات التهليل والاستهجان تعقيبا على لعبة أو تعليقا على انفعال .

أغمض أحمد عينيه بعد أن أجهده التأمل وأرهقه التركيز محاولا أن ينسحب إلى داخله فأصابه مزيج من الضيق والقرف والقلق والتوتر ، وظلت أذناه - برغمه - تتلقيان الأصوات وتتابعان الأصداء ، إلى أن سمع كلمات زادت حدة الغضب فيها ترافقها حركات غير عادية ، فتح عينيه مستطلعا وقد تبادر إلى ذهنه احتمال وقوع شجار بين اللاعبين ، لكنه فوجئ بهم يتوقفون عن اللعب وهم يرفعون أصواتهم احتجاجا على عمال المقهى الذين شرعوا يخلون القسم الأمامي منه بعد أن وصلت مقدمة وفد سياحي ووقف أفرادها ينتظرون إخلاء الأماكن . ظن أحمد - للحظات - أن صداما سيقع بعد أن رفض بعض الجالسين ترك أماكنهم ، ولكن الرفض لم يستمر سوى برهة وجيزة أعقبها انسحاب غير منظم تشتت إثره المجموعات ، واحتل الوفد السياحي مقدمة المقهى بأسرها ، وسرعان ما أعيد تشكيل المجوعات من جديد وتصاعدت الصيحات من المتفرجين على اللعب إعجابا أو سخرية ، وكأن ما كان لم يكن .

أصاب أحمد ما يشبه الإحباط :

- « هل من أجل هؤلاء تجاهدون ؟ ! أمن أجل هذا الواغش البشري الذي يمارس حياة القطيع ولا يدرك إلا المتع الرخيصة التي يستمتع بها تحت كل الظروف تخاطرون بحياتكم ؟ ! هل ترى أحدا منهم يستحق أن تبذل من أجله نقطة عرق فضلا عن سيل من دم يهدر .

- نعم ! ! ماذا تقول ؟ ! من أجل مَنْ إذن يجب أن تجاهدوا ؟ من أجل الصفوة العليا التي استباحت مالا يستباح وخرجت على قيم الدين والانسانية ، فنبذت العدل ، وشرّعت الظلم ، وقنّنت السرقة والنهب والرشوة والعمولات ، واعتمدت على الخونة والعملاء ، وقدّمت الأدعياء والملوثين والمأبونين .

أم من أجل المثقفين الذين تنجّسوا حتى النخاع ، ألم ترهم في الظهيرة يملئون أفواههم بالكلمات ، ويتشدقون بالمصطلحات ، ويدقون الأرض بأقدامهم يشمخون بقدرتهم على تسخير ثقافتهم لتغييب الجماهير ، وتلويث روحها ، وتدمير طاقتها ، وتزييف أحلامها ، وتلفيق عوالم وهمية مريضة تلهيها عن واقعها وتخدرها عما ينزل بها .

إن هذا الواغش البشري ليس مسئولا عن حياة القطيع التي يحياها ، إنه ضحية الصفوة التي بيدها السلطة ، والتي لا تريد له قط أن يفيق مما هو فيه ، وتستخدم لذلك كل الوسائل ، وهو ضحية المثقفين الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الاستغلال والاستبداد ، وخانوا أمانة الكلمة وتخلوا عن شرف المسئولية » .

هل ظهرت الانفعالات على وجهه حتى رآها عمر فأراد أن يخفف عنه حين سأله :

- ما أخبار الرسالة ؟ .

وهل نكأ السؤال جرحا حتى اربد وجهه وهو يجيب :

- لا جديد ، منذ سلمتها للمشرف من نحو سنة وأنا في انتظار الإفراج عنها قبولا أو رفضا .

تساءل عمر بدهشة :

- ألم ينته من القراءة طول هذه المدة ؟ ! .

فرد أحمد بغيظ :

- أرجو أن يكون قد بدأ فيها .

« وهل يصدق أحد أن الذي يقرأ لك زميل في مستواك العلمي لم يحصل على درجة الدكتوراه بعد ، أحال عليه المشرف أعلى الناس صوتا في الحديث عن القيم الجامعية رسالتك ليقرأها بدلا منه دون أن يهتم بما بينكما من ود مفقود أو يلقى بالا إلى تقارب موضوعي بحثيكما » .

- ألم تكلمه ؟ .

- كلمته مرة فأنذرني بأنه لا يحب أن يستعجله أحد ، ولما أبلغته بقرب انتهاء المدة الرسمية للتسجيل للدكتوراه قال إن الأمر لا يعنيه ، وإني لو فاتحته مرة أخرى فسيرفض الرسالة دون أن يقرأها .

هل أراد أن يغير الموضوع حين سأل :

- وكيف حال عم عبد السلام ؟ .

ما زال مريضا .

- ألم يصل إلى حل من الضرائب ؟ .

- وكيف يكون الحل في تصورك ؟ يطالبونه بثلاثين ألف جنيه وهو الذي يعيش على الكفاف ! إنه لو باع المحل والمنزل الذي يقع فيه والحارة كلها ما دبر هذا المبلغ .

- يمكن أن يعارض في التقدير .

- هذا ما فعلته بالنيابة عنه ، لكن المشكلة أنه يائس تماما بعد أن علم بتشدد الضرائب مع بعض المحلات المجاورة في العطفة والزقاق . لقد أوقعوا الحجز على الفوال والمكوجي والبقال والكهربائي بعد أن عجزوا عن السداد ، ماذا يمكن أن يكسب هؤلاء الناس في عطفة كل سكانها غلابة يتقاتلون من أجل رغيف خبز أو مجموعة من أرجل الدجاج حتي يطالبوهم بمبالغ لم يسمعوا بها حتى في أحلامهم .

- وأخبار البلد ؟ .

رفّت على شفتيه ابتسامة حانية ، وشفّت نبرات صوته وهو يقول :

- أشتاق لأمي .

وللأهل هنا لك ، والصحاب .

وبودي أن أسافر اليهم في يوم قريب .

عسى أن أخفف عنهم بعض ما قد سمعت .

- خيرا .

- ابن عمي إسماعيل مفقود منذ سافر للخليج .

من نحو عام .

ولم يعرف له حتى اليوم أثر .

هنالك من يزعم أنه مات .

ومن يقول إنه مسجون .

من غير تهمة .

- لا تحرك فيَّ أشجانا تملأ القلب مواجع .

قديما .

وحديثا .

فخالي الأصغر مفقود هنالك .

من سنين .

منذ حادثة الحرم .

ولم يدلنا أحد عليه .

وجدَّتي - تعرفها - لا تكف عن البكاء والأنين والحنين .

وكلما دق الباب همَّت بالنهوض .

تتوقع أن يكون القادمَ .

إلى أن أقعدها المرض .

وابن جاري ... ذلك الفتى الرائع .

أشرف .

الوديع .

الحيي كالفتاة .

لم يجد شغلا ... فسافر .

تاركا في البيت مناحة .

لكنه سرعان ما عاد .... جثة .

- كيف ؟ .
- قيل ... مات في حادث سيارة .

وقيل ... قتلوه بعد أن ... اغتصب .

- أعوذ بالله .
- وهل نملك إلا الاستعاذة ، الله وحده هو القادر على أن يحمينا من شر هذا الزمان الردئ .
- وأنت ، ما أخبارك ؟ .
- السلام عليكم ، معذرة إذ تأخرت .

ارتفعت الأعين إلى صلاح والألسنة تتمتم بالسلام ، بادر صلاح حتى قبل أن يسمع رد التحية .

- الجو هنا خانق .

قال أحمد وكأنه يلومه :

- كنا في انتظارك .

وقال عمر وكأنه فهم الإشارة :

- نخرج على بركة الله نشم هواء جديدا .

- ٣١ -

ظلت عينا ماهر معلقتين لا تكادات تطرفان وهو يقترب وئيدا من ميدان باب اللوق ، حتى أنه تعثر أكثر من مرة في الحجارة المتناثرة التى لم يفطن إلى سبب وجودها إلى أن أحس بالبلل فى قدميه وساقيه ، لقد كانت معابر يعتليها الداخلون إلى المحال التجارية ليسلموا من مياه المجارى التى صارت مستنقعا دائما لا يجف ، انفجر الغيظ داخله وهو ينحنى ليخلع حذاءه ويفرغه من الماء ، وزاد غيظه اشتعالا أن مرت سيارة مسرعة فأصابه رذاذها في أكثر من موضع ، فارتفع صوته عاليا يسب قائدها وهو يحاول – دون جدوى – تجفيف ما أصابه ، وسوست له نفسه وهو يتحسس رأسه الذى غمره التلوث : « *لقد أصابك البلل فى مواضع كثيرة وعليك أن تعدل عن اللقاء* » ، وهمّ أن يستدير عائدا لولا أن تلقت عيناه إشارة بدت له غريبة فتوقف واستمر يحدق ، لم يعد للافتة الخشبية التى تحمل عبارة « *مقهى سوق الحميدية* » وجود ، وحل محلها لافتة ضوئية اقتصرت على عبارة « *سوق الحميدية* » فقط ، وأمامها سهم من الإضاءة الملونة المتقطعة كتبت عليه بالعربية والانجليزية بحروف كبيرة كلمة « *بار* » ، وعزل المكان كله عن الميدان بسياج من الزجاج الفيميه الملون الذى أسدلت الستائر خلفه بحيث لا يستطيع أحد أن يرى ما بداخله ، تمتم ماهر مشدوها :

- هل يعقل أن يكون فاروق هنا ؟

وسار مشدوها كمن أصابه مس .

ما أن عبر المدخل حتى أحس بالظلمة سابغة ، توقف لحظات حتى اتسعت حدقتا عينيه فاستطاع أن يميز ما يرى ، فالإضاءة الخافتة لا تزيح الظلمة بقدر ما تنشرها ظلالا ممتدة من حول المقاعد المتنافرة حول الموائد المتقاربة التى جلس إليها رجال ونساء أزواجا وفرادى وجماعات قليلة العدد ، استمر لحظات واقفا متأملا يتفحص الجالسين ليستوضح بينهم طريقه ، كان بعضهم ممسكا بكوبه يتأمله تأمل عاشق شبق ، وبعضهم يلوك ببطء شيئاً في فمه فيحاكي فكه في الظلمة صورة حيوان يجتر ، وبعضهم يحدق في بقعة واحدة لا يريم عنها وكأنه مصلوب راح في غيبوبة ، ألفت عيناه الظلمة بعد لحظات فبدأ يخطو خطوات وئيدة إلى الداخل وهو يتأمل الجالسين الذين يمر بهم عن قرب ، كان منهم من استغرقه عالم خاص فلا يحس بشيئ مما حوله حتي ان الداخل ليحتك به ومع ذلك لا يشعر ، ومنهم من كان يتحدث إلى نفسه حديثا صاخبا كأنه يخطب في جمع حاشد من غير أن يسمعه أحد ، ومنهم من بقى صامتا لا ينبس كأن على رأسه الطير ، اتجه إلى الداخل كأنه يعرف طريقة قاصدا الركن القصى حيث كان يحلو له أن يجلس في الزمن الخالي فوجد رجلا يحتل موقعه القديم ، فجلس إلى مائدة قريبة وألقى إلى صاحبه بنظرة عجلى أتبعها بأخريات أكثر أناة وأشد تأملا ، كان الرجل أشيب الشعر مصبوغ الوجه بشئ كالوهج ، يربت على المنضدة بكوب فارغ في يسراه محدثا إيقاعات غير منتظمة وفى يمناه سيجارة مشتعلة ، وبرغم بعده النسبى عن المائدة كان ينحنى عليها فيبدو - لاتساع المسافة الفاصلة - على شكل قوس غير مشدود .

عاود ماهر النظر إلى وجهه فبدا له مألوفا ، لقد سبق أن رأى هاتين العينين الجاحظتين اللتين لا يعادلهما ضخامة إلا الشفتان الداكنتان اللتان تنفرجان عرضا في حركة عصبية متواترة فتكشفان عن أسنان متراكبة ، وهذا الأنف الدقيق الذى يبدو لعدم

ملاحته لموقعه مشروعا غير مكتمل التنفيذ « *إذا كانت هذه كلها يمكن أن تتكرر ، أيمكن أن تتكرر أيضا حركة الرأس في إيقاع منتظم وقد توافق معها بحركة مساوقة الأذنان الكبيرتان الملويتان إلى أمام ؟ مستحيل ، إنه بالتأكيد هاملت رفيق المعتقل القديم ، الدكتور شوقى فخرى أستاذ مساعد الدراما بكلية الآداب كما كان يقدم نفسه* » .

تمتم ماهر لنفسه وقد داخله أسى :

– الشباب وحده يغطى مثالب كثيرة .

وتسللت إلى الذاكرة فى لحظات ذكريات ظن أنها ماتت منذ عهد بعيد ، صراخ منتصف الليل عند التجهيز للتحقيق فى بدروم القلعة ، الإفراز اللاإرادى إثر هجمات الكلاب المدربة ، صعقات الكهرباء أعلى الفخذين ، القناع الصامت وهو يجرى تجاربه الخاصة بالتجميد الجزئى للأطراف .

– « *هاملت ، اصمت ، كفى ما نحن فيه .*

– *أيتها الجدران الصماء ، إنى أبول عليك .*

– *أيها المجنون ، إنها ليست صماء .*

– *أيتها الجدران العلوية ، ياقدس الأقداس البشرية ، كففنا عن المطالبة بحرية الحركة ، لم نعد نأمل فى حرية القول ، هل من سبيل إلى حرية البول .*

– *كُفَّ عن لغوك ، بفضل ثرثرتك ندفع جميعا الثمن .*

– *حتى لو كففت سنظل في الساقية ندور ، نحن لا ندفع ثمنا لكلمات قلناها ، نحن ندفع ثمن الأحلام الوردية .*

– *توقف ... أرجوك .*

- *لو توقفت ... هل تتوقف صرخات الجزع فى الأعماق ، هل تتوقف أنات الفزع فى الأحداق ، هل تتوقف السياط عن كى الجلد المقروح ؟ هل تتوقف أنياب الكلاب الوحشية عن مضغ اللحم الحى ؟ هل يتوقف الخازوق ؟*

- *لن ينقلنا مما نحن فيه إلا اعلانٌ بالتوبة .*

- *أيتها الجدران القدسية ، اشهدى أنه منافق ، لا يقدم غير الكلمات الحبلى بالذلة .*

- *الكلمات مواقف ، الكلمات حبال مضفورة ، انسجها رفضا تهوى بك فى قاع جهنم ، اجعلها توبة تحلق بك فى الأفق الأعلى .*

- *حتى لو صرت النجم الساطع فى الظلمة ستظل تشع صديدا وعفونة » .*

استغرقته الذكريات حتى وجد نفسه يصيح :

- هاملت .

ولكن أحدا لم يلتفت إليه غير النادل الذى ظن أنه يناديه ، فأقبل متكاسلا إليه وما كاد يقترب منه حتى سأله متبرما من غير أن يحاول حتى التظاهر بالابتسام :

- ماذا تريد ؟

رد ماهر مستغربا وقد فاجأته اللهجة الجافة :

- زجاجة بيرة .

أجاب النادل بنفس اللهجة وكأنه يطرده :

- انتهى وفقت المشروبات الخفيفة .

فابتسم ماهر وهمّ أن يعقب :

– وهل للمشروبات الخفيفة وقت ؟!

ولكنه بدلا من ذلك وجد نفسه يقول :

– أعطنى إذن كأسا من الجن .

تابع النادل وكأنما أصابه غيظ :

– ليس لدينا إلا ويسكى أو نبيت ، وعليك أن تختار .

فضحك ماهر كأنما سمع نكتة ، وعقب مندهشا :

– ألا تعرف أن الجن نوع من الويسكى !!

فقطب النادل مغضبا وهو يتفحصه باشمئزاز ، وتمتم بصوت غير مسموع :

– زبون مقرف .

ولكنه حرص على ألا يسمعه ، فقد أيقن بنظراته الفاحصة أنه سيخسر المراحل الأولى من المعركة قبل أن يدركه فتوات البار ، وقال يستحثه بضيق :

– ويسكى أو نبيت ؟ خلصنى .

قال ماهر مستسلما :

– ويسكى بالصودا .

فمضى النادل بعد أن حدق فيه بنظرة طويلة مستفزة ، تعجب ماهر وتمتم لنفسه : *« إنه لم يفهم حتى ماذا يكون الويسكى بالصودا ، وأغلب الظن أنك ستعود من حيث بدأت تشرب منقوع البراطيش القديمة كما كنت تفعل أيام الفجالة وبركة الرطل »* .

علت وجهه بسمة غيظ : *« هل مازالت تلك الأيام المظلمة حية فى الذاكرة »* لكن رف فى الأعماق – برغم الغيظ – طائر شفيف من رضا ... *« كلا ... لم تكن تلك الأيام كلها سوداء ، صحيح أنها أيام البؤس*

العظيم ولكنها كانت أيام الأحلام العظيمة أيضا . لقد كانت البداية فى كل شيئ . بداية الإدراك وبداية التجربة وبداية الاكتشاف وبداية المعرفة وبداية المتعة . لقد شربت بعد ذلك أفخر الأنواع المعتقة فى أركان الدنيا الأربعة . وفى الحفلات الرسمية والخاصة . ومع الرؤساء والوزراء والسفراء . وعاشرات لآلئ خرجت لتوها من أصدافها تملأ العين إبهارا . وتقتحم كالعاصفة العقل والقلب . وتذيب الوجود كله فى محيط زاخر من الفيروبية الحالمة . ولكن شيئا من ذلك كله لم يستطع أن يورثك الإحساس بالمتعة الهائلة التى كانت تمنحك إياها كلماتك القادرة على أن تشعل رغبة فتاة غضة . فتهبك بعدها لحظات اتصال حميم وأنتما متلفعان بظلمة بير سلم أو مختفيان خلف باب موارب . ولمساتك - ككلماتك - تعيد تشكيل وجدانها وقيمها كما تشاء . أو رشفات قد تكون كريهة الرائحة فى كوب من صفيح قذر ولكنها كانت برغم ذلك تمنحك الشجاعة على مواجهة كل شيئ . والتصدى لكل شيئ . بدءا من الكلاب الضالة فى الحارة إلى الكلاب الضالة فى المجتمع التى تملأ صورها وأخبارها الصحف .

تلك الأيام - بالرغم من كل شيئ - أيام معرفة قوانين اللعبة فى الطبيعة وفى المجتمع . وما كنت تفعله فيها كان جزءا من جهود ملايين يناضلون . صحيح أنك بعدها استيقظت من أحلامك . ولكنك كنت محاربا رائعا كما أنك الآن محارب رائع . لا شيئ مطلقا يدعوك إلى الخجل » .

- أربعة جنيهات .

أعاده إلى اليقظة صوت النادل بعد أن انتهى من وضع كوب زجاجى نصف ممتلئ وإلى جواره طبق صغير عليه وريقات من الخس والجرجير تعلوها حبات قليلة من الزيتون

وشرائح صغيرة من الخيار المخلل . قال ماهر لنفسه : « جرسون وقح » وهم بزجره ، ولكنه تذكر حاجته إليه فآثر استمالته بيسمة خفيفة وقال :

– لا تستعجل على الحساب ، الليل طويل .

فرد النادل بصرامة من لا يسمح بمناقشة :

– الدفع أولا ، لا أريد مشاكل .

استسلم ماهر فأخرج من حافظته ورقة بعشرة جنيهات ، وتابع وهو يلوح بها بين إصبعيه :

– الباقي لك .

ولما حاول النادل التقاطها أمسك ماهر بيده فأصابت الرجل رعدة ، ولكنه طمأنه :

– أريد أن أسألك سؤالا .

فنظر إليه مستطلعا فتابع ماهر مشيرا إلى الرجل الذى يحتل مقعده القديم :

– من هذا الرجل ؟

فرد النادل من غير تفكير وبدون أن ينظر إلى حيث يشير :

– لا أعرف .

استمر ماهر وكأنه يحثه :

– أليس هو الدكتور شوقى .

فأجاب النادل باقتضاب :

– لا أعرف .

مضى ماهر من غير يأس .

– تعرف طبعا فاروق السيد .

فنزع النادل يده من قبضة ماهر وقال بغضب ظاهر :

– لا أعرف أحدا ، أنا جديد هنا .

هل كان أحد يتابع ما يجرى أم أن ذلك ما توهمه ماهر الذى أطلق يد الرجل تاركا له الورقة المالية ، ثم تأمل الكأس لحظات وهمّ بمد يده إليه ثم عدل ، فأشار إلى النادل الذى أقبل ضجرا صامتا ، فبادره ماهر مشيرا إلى الكوب:

– احمله إلى الدكتور شوقى ، قل له تحية من صديق قديم .

حمل صامتا الكوب فى يد والطبق فى أخرى واتجه إلى الرجل وانحنى عليه يُسِرّ بشيئ وهو يضع ما يحمله على المائدة ، لم تتحرك شفتاه ولكن حانت منه التفاتة إلى ماهر فهز رأسه هزة خفيفة ، ورفع الكوب فتجرعه مرة واحدة ثم التقط شريحة خيار وضعها فى فمه .

تحرك ماهر بخفة فهد وقد شجعه رد الفعل فانتقل إلى مائدة الرجل الذى ظل صامتا كأنه لم يحس به ، فانتظر ماهر برهة وجيزة قبل أن يقول بابتسامة دافئة :

– أنا سعيد جدا لرؤيتك بعد هذه المدة الطويلة يادكتور .

هل سمعه أم لم يسمعه ؟ لقد ظل كما كان يتأمل الكوب الفارغ وهو يدق المائدة به فى إيقاع غير منتظم ، فواصل ماهر وكأنه يساعده على التذكر :

– كانت أياما قاسية ، لعنة الله عليها .

هل تذكّر ؟ ألقى نظرة هادئة على ماهر وقال بنغمة محايدة :

– أنت تعرفنى ؟

فأجاب ماهر بثقة :

– بالطبع .

فتابع بنفس النغمة :

– لكنى لا أعرفك .

قال ماهر وكأنه مندهش :

– لقد كنا أصدقاء .

فرد الرجل بتلقائية :

– لا يصادق الناس الذئاب .

قاطعه ماهر وقدمسه غضب :

– أنا لست بذئب .

تأمله الرجل قبل أن يلقى ببصره إلى السقف وعقب بهدوء :

– أنت إذن من الكلاب .

اربد وجه ماهر وأوشك أن ينفجر فيه ، ولكنه تمالك نفسه وقال وهو يضغط على الحروف :

– أنا لا أفهمك .

– فرد الرجل ومازال نظرة معلقا بالسقف :

– لم يعد أحد يفهم شيئا .

قاطعه ماهر :

– لا معنى لكلماتك المستفزة .

فتابع الرجل دون أن ينظر إليه :

– فى زمن القهر الأعظم إما أن تكون ذئبا أو كلبا فسل نفسك أيهما اخترت ولا داعي لأن تحاسب نفسك أيهما كنت .

فدق ماهر المائدة وهو يقول بانفعال :

- وأنت ماذا تكون ؟

فأجاب الرجل بيأس :

- أنا لست بكائن .

استمر ماهر يدق المائدة وتابع وقد احمر وجهه غضبا :

- لاتمارس لعبتك القديمة من جديد .

أضاف الرجل وكأنه لم يسمع

- أنا مجرد حلم ضائع .

قاطعه ماهر محنقا :

- إنه خطؤك .

بمن كان الرجل يعرّض حين قال :

- الخطأ خير من الخطيئة .

وهل كان ماهر يرد على التعريض حين قاطعه :

- غيبوبة الوعي ليست أمرا جديدا .

وهل كان الرجل يخاطب نفسه أم يخاطبه حين عقب :

- لن تستطيع أن تكون ذئبا أبدا .

وهل كان ماهر يرد حين أضاف بسرعة :

- لايفيد الكلب نباحه .

أغمض الرجل عينيه وهو يقول بأسى :

- حتى الكلب لا أستطيع أن أكونه .

لوح ماهر بإصبعه محذرا ، لكن الرجل لم ير الإشارة واستمر :

- الكلاب يحدوها أمل من نوع ما ، أما أنا فقد فقدت حتى الأمل .

علق ماهر ساخرا :

- نواح يليق بك .

فتح الرجل عينيه وغرسهما فى عينى ماهر وكأنه اكتشف وجوده وقال بصوت مسه غضب :

- الكلاب الضالة لا تحصل حتى على الفتات .

فتابع ماهر سخريته :

- نواح هو النباح .

فاهتز جسد الرجل وقال بصوت متفجر بالغيظ :

- قل لهم أرهبوا القطيع حتى يلتهمه الذئب ، ولكن لن يكون لكم برغم كل ما تفعلون نصيب ، فالذئاب لا تطعم كلابا .

تلفت ماهر حوله فأدرك أن أحدا لم يهتم بما حدث ، لكن عينيه التقتا فى ومضة بعينى امرأة جالسة عن قرب بدا له أنها كانت تصغى ، صرف نظره عنها وقال بصوت مسموع وهو يهم بمغادرة المائدة متمهلا حتى لا يلفت إليه النظر :

- مخمور لا ينتظر منه إلا الهلوسة .

✍ ✍ ✍

- ٣٢ -

– جميل أن نشم الهواء فى المقابر !!

هل اتخذ أحمد السخرية وسيلة للاحتجاج بعد أن أدركه الإرهاق وهو يرى صلاح وعمر يجتازان طريق صلاح سالم في اتجاه المقابر ؟ وهل حدّس عمر بشفافيته المعهودة سبب الاحتجاج فآثر أن يرد على الجانب الساخر حتى يخفف عنه :

– وهل تخشى المقابر وربع سكان القاهرة يعيشون فيها ؟!

وهل كان صلاح فى انتظار هذه العبارة لتنتقل إلى ذهنه صورة مساكن باب الشعرية التى كان فيها منذ وقت قصير فيعقب :

– إن شئت الدقة فقل نصف السكان ، فهناك مساكن كثيرة لا تختلف عن المقابر إن لم تكن أقل منها .

وهل كانت العبارة فرصة مناسبة ليؤكد من خلالها عمر موقفا سابقا فيقول :

– إذا راعينا بعض الاعتبارات قلنا معظم السكان ، فليس بعض من يقيم فى المساكن الصالحة للحياة من الأحياء .

وهل استطاعت المناقشة أن تشد إليها أحمد فيتجاوز الإحساس بالتعب ، أم كان يعبر عنه حين عقب :

- الخلاصة باختصار أننا فى مدينة من الموتى .

ضحك عمر وقد أحس بنجاح حيلته فقال برضا :

- فتح الله عليك .

لكن أحمد تابع كلماته :

- نحن في حاجة فعلا إلى نفخة تبعث فينا الروح .

« لكن أى روح تلك التى يمكن أن تحل فى الجسد الهامد والعقل الخامد ؟ وكيف تحل ؟ إنها تحتاج إلى نفخة إلهية فى الكيان المتعفن تجمع أشلاءه المبعثرة وتنسق مزقه المتنافرة ، لكن النفخة الإلهية لا تكون بالتمنى على الله ، وإنما بسلوك الطرق الموصلة إليه ، واتخاذ الأسباب المهيئة له ، فهل نحن على الطريق الصحيح ؟ ».

- هانت ياعم ، كدنا نصل .

قالها صلاح بعد أن ميزت عيناه فى الظلمة ضوءا خافتا على ناصية الطريق المؤدى إلى مقابر الصدقة ، وتسارعت تلقائيا خطواته حتى اتسعت المسافة بينه وبين صاحبيه ، ولما وصلا إلى الناصية كان قد سبقهما حتى يقف أمام حوش غير بعيد فى الطريق الجانبى الذى لا يكاد يتسع لفردين يتقابلان يدق الباب دقات موقعة ، فلما كانا على مقربة من الباب انفتح ، وسمعا فى الظلمة التى لم تبددها إضاءة لمبة الغاز الصغيرة كلمات التحية التى أعقبتها عبارات الترحيب .

« الوحشة نبع يتدفق فى القلب انقباضا ، خفف الوطء فإنك لا تدرى من تحت الثرى ، ربما كانت عقولا نيرات أضاءت المسالك المظلمة ، أو قلوبا خيرات مسحت عن الدنيا أساها ، وحتى لو لم تكن هذا ولا ذاك فقد كانت يوما أجسادا رائعات شع فيها الصبا سحرا وتألق بها الشباب الغض فتنة » .

– الشاى

– جاء فى وقته ، شكر الله لك .

قالها أحمد بصوت خافت مسته رهبة غير معهودة ، هل جال بخاطره أن موضع اللقاء مؤشر لموضوعه ؟ ولو اقتحم صديقاه الموضوع مباشرة دون أن يتوقفا ليمهدا له ، ولكن صديقيه وقد انضم إليهما الثالث الذى فتح لهم الباب وقدم الشاى يديران معها حديثا ودودا حول أمور كثيرة دون أن يتطرق أحدهم إلى شيئ يتصل به « *إنهما يعرفان جيدا مدى توترك وقلقك من الانتظار ، وهما بالقطع لا يريدان تعذيبك بالتوتر والقلق ، فهل يتحرجان من التصريح بما عندهما ؟ إذا صح ذلك فالأمر ليس بهين ، لأنكم تعودتم المصارحة والفتم المواجهة ومارستم النقد والنقد الذاتى دون حرج ، فأى حرج يمكن أن يحل بهما مع ذلك ؟ الوجود الأخ الثالث الذى لم يذكر سوى اسمه ؟ فما شأنه إذن بلقائكم ؟* » .

أخذ أحمد يرشف الشاى البارد على فترات طويلة وبصره يستطلع ما حوله بعد أن ألفت عيناه النور الخافت ، فاستطاع أن يرى بوضوح الموقع الذى يزوره لأول مرة ، كانوا يجلسون فوق كنبة مصنوعة من خشب الصناديق مغطاة بقطع رقيقة من الأسفنج المتهرئ الحائل اللون فى حجرة أمامية فى المقبرة ، وليس فى مدخل الحجرة إلا قطعة قماش سميكة كانت جزءا من قلع قديم لمركب نيلى وضعت على شكل ستارة تفرد فتكون بابا ، وتضم فتيسر دخول الهواء إلى الحجرة الصغيرة الخالية من النوافذ ، تسلل بصره وراء الستارة المضمومة فرأى حوش المقبرة بمدافنه الثلاثة المحددة بشواهد من الطوب الذى زال طلاؤه الجيرى فى أكثر من موضع فاخترقه الانقباض حتى فاض فألقى ببصره إلى أعلى ، لكنه لم يشاهد إلا سقفا مصنوعا من قطع من الصاج كانت أصلا صفائح قديمة تم إعدادها ورصها متجاورة دون عناية فوق قطع خشبية متعددة الأشكال والأنواع .

- حان وقت الانتقال .

قالها طارق وهو ينظر إلى ساعته ، فأوشك أحمد أن يصرخ فى أعماقه :

- مشوار آخر !!

لكن شفتيه لم تختلجا بحركة ، ونهض الرجال يخترقون الدروب الضيقة المظلمة التى يفضى بعضها إلى بعض ويتداخل بعضها فى بعض فلا يستطيع أن يعرف طريقه فيها - حتى فى وضح النهار - إلا خبير ، كان طارق يتقدم الركب وئيد الخطبا وعلى مقربة منه صلاح يعقبهما بعد خطوات عمر وقد أمسك بكف أحمد وتشابكت أصابعهما ، لماذا لم يحس أحمد بالوحشة اللاذعة التى داخلته وهو يخطو خطواته الأولى إلى مقبرة الصدقة ؟ هل صرفه عنه الشعور بالإجهاد الذي بلغ الغاية حتى أوشك أن يصرح به ، أم استغرق برغمه فى حوار متقطع مع الظلمة والصمت والطرق المتشابكة والغاية المجهولة .

« الآن ، برغم الظلمات ، تستطيع أن تتلمس فى النفس بصيص ضوء ينساب حانيا وإن لم تتكشف بعد المسالك والسارب ، فواضح أن (طارق) ليس إلا دليلا يرشدكم إلى المكان المرجو ، لكن المكان ليس إلا وعاء فماذا تتوقع أن يكون فيه ؟ من الذى يمكنه أن يطلبكم إليه بهذه الصورة البالغة الحذر ، لو كان عضوا عاديا فى الجماعة لأمكن اللقاء به في أى مكان بصورة طبيعية مع اتخاذ إجراءات التأمين الضرورية ، ولو كان مسئول اتصال لما احتاج الأمر إلى كل ما تم فضلا عما قد يتم ، إنه إذن قيادة فى الجماعة ، عنصر قيادى له وزن خاص ، فلماذا يطلبك ولماذا يكون الطلب فى هذا الوقت بعينه ؟ هل الأمر مجرد مصادفة أن تُطلب عقب يوم حافل تفجرت فيه قضايا عديدة في المهرجان الذى شهد محاوراتك الساخرة والجادة ؟ لكنك تعودت ألا تجعل للمصادفة دورا في تحليلاتك ، لأن التفسير بالمصادفة إقرار بالعجز عن فهم الظروف واستيعاب دلالاتها ، عليك أن تبدأ إذن

بتحديد الوقائع تمهيدا لتحليلها : أنت مطلوب ، هذه واحدة ، والذي يطلبك مستوى قيادى ، هذه الثانية ، بعد نشاط مكثف ، هذه الثالثة ، وهو نشاط علنى هذه الرابعة . فما السبب فى ضوء هذا التحديد ؟ هل السبب هو النشاط أو العلنية ؟ لقد مارست من قبل نشاطا واسعا فى حلقات التثقيف الكوادر التنظيمية تمثل فى التدريس المباشر ، وفى التلخيص ، وفى التدريب ، ولكن هذا النشاط كله كان سريا ، إذن ليس النشاط وحده هو سبب اللقاء ، وإنما هو بالضرورة العلنية . إنك مطلوب لتحذيرك من خطورة النشاط العلنى ، وهو ما أدركته فى الفترة التريبة السابقة من خلال تحليلاتك لبعض الوقائع والأحداث ، لقد كنت على حق تماما حين ناقشت بوضوح مع بشرى ضرورة الانتقال إلى مرحلة العمل التنظيمى المنضبط .

- ما شأن بشرى ؟

= إنها أخت مخلصة تشاركنا جهادنا .

- مخلصة لمن ؟

- لماذا ؟

- مادوافعها ؟

= دوافعها هى دوافع الإنسان الذى يستهدي بقيم يتمثل فيها إنسانيته فى الخير والنور والحرية ويناضل من أجل الحق والعدل.

- أهذا تقييم مسئول الجامعة فى جماعتنا !

- لعله حديث محب !

= لست أخجل من علاقتى بها ، إنها علاقة نظيفة فى ضوء الشمس، ولعلها تمثل دائما آخر لها الجهاد والنضال .

- كلماتك لا تعجبني .

- لايعجبني ما وراء الكلمات .

- صبرا يا إخواني ، دعونا نفهم ، لماذا لم تشر إلى هذه العلاقة في تقييمك ؟

= لأن إنسانية الإنسان من الرحابة بحيث تسع كل ما جعله الله فيه وما فطره عليه ، فهي أمر طبيعي لا تحتاج إلى إيضاح .

- أنت تعرف أن أباها ماركسي قديم .

= أعرف .

- وأمها ؟

= أعرف .

- وأنها أيضا كانت طوال حياتها الدراسية يسارية متشددة ؟

= أعرف .

- لعلها كانت نائمة ثم استيقظت !

- بل ربما كانت غائبة عن الوعي ثم أفاقت !

- ربما ضربها على رأسها فرد إليها عقلها .

- من يدري ؟ ربما هي الآن غائبة عن الوعي وحين يعود إليها عقلها ترتد إلى ما كانت فيه .

= ما معنى هذا كله ؟

- يا إخواني ، لاتخجلوا أخاكم .

= إنها أشبه بمحاكمة ، إنني لم أفعل شيئا أخجل منه .

- لا تتعجل الأمور يا أخى ، لو كانت محاكمة لعلمت ، وحين تكون محاكمة ستكون على علم .

= ماذا تسمى هذا إذن ؟

- نحن نستطلع أراءك ومعلوماتك .

- بخصوص ؟

- نشاطك فى الفترة الأخيرة وما ألحق بك وبالجماعة من أضرار .

= أنا أوقعت بالجماعة أضرارا ؟ هل هذا معقول ؟!

- هل تجهل أم تتجاهل ؟ إن القوائم المعدة تاخذ طريقها إلـــى التنفيذ ، والعناصر التنظيمية المهمة صارت معرضة للتصفية الجسدية التى بدأت فعلا فى بعض المستويات .

= هذا وارد ، لكن ما صلتى بهذا ؟ أنا لا أفهم ؟

- ربما لأنك لا تريد أن تفهم .

- فكر جيدا ربما تفهم .

- يا أخى لقد تعددت الاحتمالات ، فلم لا تحتمل أن تكون مدسوسة عليك ؟

- يا أخى لا تغضب ، فالغضب يودى بالعقل .

= دعونا يا إخوان من احتمال كونها مدسوسة ، ولنفكر فى الاحتمال الآخر ، أن تكون مخلصة .

= بخبرتى أحكم بذلك .

- وبخبرتك تعلم أن لأجهزة الأمن تقييمها الخاص ، أليس كذلك ؟

= قطعا .

- ألا يعنى نشاطكما المشترك عندهم وجود اتفاق يتجاوز العلاقات الشخصية .

= ربما .

- بل يقينا ، ويفسرون موقفك على أن الجماعة قد قررت خوض معركة لا صلة لها بها .

- إنهم يستدرجوننا الى معركة لا تلائمنا .

- والنتيجة أن الجماعة دون أن تريد تجد نفسها تدفع الثمن دما غاليا من أجل علاقة شخصية .

= أولا المعركة معركتنا جميعا . فكمال البرغوتى رمز يجسد إرادة السلطة فى تعميم النموذج الانتهازى الطفيلى المنحل بين المثقفين ، والسلطة فى هذا منطقية مع نفسها ، لأنها لا تريد إلا هذا النموذج فى جميع المجالات ، فمواجهة النموذج فى مجال مواجهة لإرادة السلطة فى كل مجال . وثانيا نحن لا نستدرج لمعارك ، لسبب بسيط ، لأن السلطة هى التى تقرر منفردة - وليس نحن - الظروف المواتية للمعارك ، وبالتالى يجب علينا ان نكون فى حالة استعداد دائم ، فما قيل يدل على أن نوعا من الارتخاء والتواكل قد حل فينا بدعوى الاستعداد ، ونسينا أننا شئنا أو أبينا مطلوبون فى كل وقت .

- هذا كلام جيد ، ولكنه يغفل عددا من البديهيات ، أولها أن كوننا مطلوبين يجب أن يدفعنا إلى الحذر الدائم وليس إلى افتعال المعارك والمشاركة فيها بسذاجة ، وثانيها أن قرار المعركة لا ينبغى أن يكون قرارا فرديا من الناحية التنظيمية وإلا صارت

الجماعة كلها مرهونة بممارسات فردية غير محسوبة ، وثالثها أن شرف التضحية مرتبط بشرف المعركة ، وأى شرف للجهاد فى سبيل منع الجائزة عن مثقف فاسد وقد استشرى الفساد بين المثقفين ، وأصبح العهر سمة لممارساتهم الفكرية فضلا عن السلوكية ، إنك لو منعت الجائزة عن داعر فسيحصل عليها داعر آخر ، لأن السلطة التى تختار داعرة ولابد أن تعبر عن نفسها فى اختياراتها .

= من واجبنا أن نفضح هذا الفساد .

- لمن ؟

= العامة والخاصة على السواء ، العامة لأنهم مضللون وأصحاب مصلحة فى أن يعرفوا الحقائق ، ونحن قادرون على أن نعينهم على الإدراك الواعى ، والخاصة لأنهم إما سلبيون قد كبلهم الخوف وحين يرون ما نفعله قد يتحررون ويتحركون ، وإما عملاء قد يصيبهم موقفنا بالرعب فيختلون .

- كلمات حالم .

- أحلام وردية .

- أضغاث أحلام .

- هل هذه الغاية تستحق الثمن الذى ندفعه فى سبيلها ؟

= أظن ذلك .

- لا مجال للظن .

= بل لا مجال لغير الظن .

- تريق دمنا من أجل احتمال ضعيف .

- قل من أجل حلم .
- بل من أجل وهم .
= بل من أجل إيقاظ الأمة .
- الأمة فى غيبوبة لا تجدى معها الكلمات .
- أيها الغافل انتبه .
- أيها النائم تيقظ .
- أيها السكران بخمر الأحلام أفق .
- أزفت الساعة وحان الحين .
- حل وقت العمل .
- وآن أوان الفعل .
- دعوه فى غفوته فالظاهر أنه لن يفيق » .

مد عمر يديه وأمسك بساعد أحمد وعضده ليساعده فى النهوض من عثرته بعد أن تعثرت قدمه بحجر فى الظلمة ، وسأله برقة :

- سليمة الحمد لله .

فتمتم أحمد بصوت هامس وهو ينهض :

- الحمد لله .

✍ ✍ ✍

- ٣٣ -

مرة أخرى تلقت أذن أميمة العبارات المسجلة على جهاز الرد الآلى :

- شكرا لاتصالك بمنزل الكاتب ماهر الجندى لكنه ليس موجودا فى المنزل الآن ، ويمكنك تسجيل رسالة له بعد سماع الإشارة ..

فألقت بالسماعة وهى تزفر ، وانتابها شعور غير مألوف تفجر فى أعماقها بركانا اختلطت فيه المشاعر والأحاسيس المتضاربة التى لا يمكن فصل بعضها عن بعض ، الغضب منه ومن نفسها ، والضيق بما يفعله معها وبما تقابل به تصرفاته ، والغيظ منه والرغبة فى إغاظته ، والسخرية مما يفعله معتقدا أهميته ومن نفسها لإدراكها حجم الأدوار المحددة ومعرفتها بالأيدى التى تحركها وعجزها عن مجرد الإشارة إليها أو التفكير فيها ، وشهوة الاتصال به وقد أحست بفتور رغبته فيها ، وتمنى الاستحواذ عليه لتبادر هى بالانصراف عنه ، والطمع بالاستئثار به والذوبان فيه ، والرغبة فى أن تضعه بين يديها وتحت قدميها وتفرض عليه بوسائلها التى تجيدها أن يطلب صفحها ، والسخط عليه وعلى نفسها وعلى الظروف التى ألقت به فى طريقها ، والعجز عن تحديد كل شئ وأى شيئ بعد أن خرج على قواعد اللعب المألوفة بين الذكر والأنثى وندت علاقته معها عن التفسير والفهم .

صبت لنفسها كأسا جديدة من الزجاجة التى أهداها إليها المستشار الثقافى بإحدى السفارات الخليجية تحية لمساعدتها فى تذليل صعوبات سفر بعض عضوات فرقة الرقص الشعبى ممن لهن ملفات فى مكتب الآداب ولكنها لم تشربها ، بل أخذت تتجول فى الشقة وهى بين أصابعها ، إلى أن جلست على الفراش فوضعتها على الكومودينو إلى جوار التليفون وأسندت رأسها إلى قبضتها وأغمضت عينيها كأنما ترقب الحوار الذى يدور داخلها :

– « لقد مارست دورك من قبل في كل ما كلفت به من أعمال بمقدرة تحسب لك ، ولم تتجاوزى ما هو مرسوم لهذا الدور بكلمة واحدة ، ولم تسمحى لنفسك أبدا بأن تتخذى موقفا شخصيا ، ولم تصدرى فى أى موقف فى أى لحظة عن عاطفة خاصة ، فلماذا يختلف الأمر فى هذه المرة ، لماذا تختلط الأشياء فى داخلك ، وتتداخل وتتشابك وتملؤك اضطرابا ، لماذا يتشوش تفكيرك وتتكبل مقدرتك وتذوب براعتك .

– لك الحق فى أن تحسى بالغيظ بلا حدود ، هل الذى حدث ممكن الحدوث لك أنت ؟ معك أنت ؟ بقدرتك وخبرتك وذكائك وجمالك وبراعتك ؟ أيتغير هذا التغير خلال أيام معدودة ؟ لم تدم بينكما عشرة حتى يمل ، ولم يحدث فى الحقيقة أكثر من بضعة لقاءات محدودة يمنحك فى أولها لقب الأميرة ويتهرب فى آخرها عن تحديد موعد آخر وكأن ما كان بينكما لم يكن ، ما السبب ؟ هل كان أداؤك سيئا إلى هذا الحد ؟

– أنت المسئولة لأنك اندمجت ونسيت نفسك وكان عليك أن تجعليه هو الذى يندمج وينسى نفسه ، إنك لست محرومة حتى تتحولى بين

عينيه إلى مراهقة وهى استبدت بها الرغبة فذابت حتى غابت ، جعلته من أن يمتطيها فرسا فلولا أمسك بلجامها فى الوقت الذى غرس مهمازه فيها ... إنه خطؤك وحدك فلا تلومى إلا نفسك .

* ليس الأمر كذلك أبدا فلا تظلمى نفسك ، لا تدمرى المتعة الحقيقية الوحيدة التى لم تحسى بمثلها منذ وقت طويل ، منذ بدأت العمل مع الأجهزة الخاصة ، أنه بالتأكيد يرغب فى لقاءات أخر هو أشد شوقا إليها منك ، لقاءات تمنحه ما منحتيه لأنت له من متع لا يستطيعها سواك ، متع التحليق و الغوص والتوجيه والسيطرة والتحكم وكأنه يحتوى فى جسده قوة عشرة رجال فى كل منهم طاقة عشرة أحصنة برية . سيفتقد هذه المتع ولذلك سيعود إليك ، لأنك وحدك دون نساء الأرض القادرة على أن تعطى شريكها هذا الإحساس الهائل بالرضا .

- أنت تخدعين نفسك ، إنه لم يكن راضيا تماما خلال لقاءاتــــك خصوصا لقاءه الأخير، ألم تلحظى ذلك .

- لا تتوهمى أشياء تفسد عليك حياتك وتشكك فى مقدرتك ، لقــد كان فى قمة السعادة ، ولكنه من النوع الذى يحتفظ بسعادته داخله حتى لايترك لشريكته فرصة لتصور إمكان السيطرة عليه ، إنها خبرة المحترف الذى يهدف إلى إحكام السيطرة .

- ولقد قابلت خبرته بخبرتك !

- منحته أقصى ما استطعت ، جعلته يحس بما لم يحس به أبدا .

- وهذا خطؤك ، فالرجل الشرقى مهما كان تحرره الشخصى إنما يهيم بمن يقودها لا بمن تقوده ، من يملؤها لا من تملؤه ، من

يحس بأنه يفتح فيها وبها آفاقا جديدة ويستكشف لها ومعها دروبا ومسالك .

- أهى النهاية إذن ؟

- إياك أن تشكى فى مقدرتك أو مهارتك ، أنت تعرفين قوة تأثيرك ، إنك تستطعين بيسر أن تشدى إليك الراهب وهو على فراش الموت فينسى نفسه ودينه .

- لماذا عزوفه الواضح إذن ؟

- لأنه اندمج فيما هو مكلف به فنسى نفسه ومشاعره ورغباته ، ماذا تقطين فى أحمق يتوهم أنه فارس ويغرق فى أحلام اليقظة إلى الدرجة التى ينسى فيها أهم ما كان عليه أن يتذكره ، لكن اطمئنى .... حين يفيق مما هو فيه سيعود ثانية لمطاردتك لتعويض ما فاته بكل ما يملك من طاقة ورغبة ... إنها البداية وليست النهاية .

- كيف ؟ وكلماته الجارحة ؟ لقد فقد حتى الرغبة فى أن يغلفها بغطاء من الفكاهة أو المجاملة .

- اندماجه فى العمل يجعله لا يلتفت إلى تعبيراته ... أولى بك أن تفكرى ... هل يمكن أن تساعديه حتى ينتهى مما هو فيه فى أسرع وقت فيعود إليك أشد رغبة ، أعظم لهفة أكثر إلحاحا ، وحينئذ تتخذين الموقف الذى تريدين . سامحيه إن شئت أو ارفضيه .

- سارفضه ، حين يأتى راكعاً سارفضه ... لا بد أن أرفضه .

- حقك

- حذار ... يجب ألا تنسى الحقائق ، كيف يمكن مساعدته وأنت مجرد أداة ؟! أنت لا تستطعين اتخاذ موقف من أى نوع ، تذكرى دائما هذه الحقيقة .

- قد يمكن فى إطار التعليمات عمل شيئ ، أى شيئ ، فكــــــــرى بدقة ... ربما يمكن تزويده ببعض التوجيهات السرية التى لا يعرف بوجودها ، لديك حجة معقولة ، ألم يكلفك الوزير بإعطائه ما يطلب ، وقد طلب هو كل المعلومات الخاصة بالجائزة .

- مرة أخرى حذار .. إنك تجاوزين بكل شيئ ، فالتوجيهات شيىء والمعلومات شيئ آخر.

- ماذا يمكن أن يحدث ؟

- أن تعودي من حيث بدأت موظفة صغيرة لا تستطيع زيادة دخلها لرعاية طفلها وأختها وأمها إلا بعرق جسدها ، معرضة نفسها فى مرات لا تحصى لسخافات ضباط الآداب وابتزازهم .

- وهل تغير الأمر كثيرا ؟ إنك ما زلت تتعرضين لتحكمات لا تقــــل سخفا .

- شتان ... شتان بين ما كنت عليه وما أنت الآن عليه ... بين المحترفة المطاردة بالخوف والذل والحاجة والسيدة المتسلطة على كل من حولها حتى على الملبون العفن الجالس فوق الكرسى ، أنت فى نعمة يحسدك عليها من يعرفك ومن لا يعرفك فلا داعى للتهور ، ولا مبرر أصلا له ، فأنت لا تحبينه ، وليس فى معجمك

هذه الكلمة ، فلم كل هذا الاضطراب ، اللعنة عليه وعلى اليوم الذى رأيته فيه .

- *ليتك لم تريه أبدا .*

- *بل ليت كل ما كان لم يكن » .*

لم تكن نائمة حين دق جرس التليفون طويلا بالطريقة الخاصة في الموعد المحدد دون أن تجيب لكنها لا تدري لماذا لم تمد إليه يدها لتلتقط السماعة ، وحين عاود الجرس الرنين مرة أخرى بعد فترة أهملته ثانية حتى حانت منها التفاتة إلى المنبه المجاور له فمدت يدها إليه كارهة فأتاها الصوت المألوف كأنما يلومها :

- تأخرت فى الرد .

تسلل إليها إحساس بوجل من ارتكب إثما وقالت معتذرة :

- كنت فى الحمام .

فاجأها الصوت متسائلا برقة بالغة :

- أنت متعبة ؟

أدركها لرقته خوف من يجتاز وحيدا منطقة رمال متحركة وتمتمت هامسة :

- مجرد إجهاد .

لم تستطع الرقة أن تخفى عنها صرامة القرار :

- عليك أن تستريحي .

هل توقف قلبها أم جف حلقها ؟ كيف إذن استطاعت أن تحرك لسانها لتسأل برهبة من يرتكب خطيئة لا تقبل المغفرة .

- كيف ؟ والعملية ؟

– لا تشغلى بالك ، ستتسحب منك لأنك فى حاجة إلى الراحة .

« *هل تزيد سكرات الموت عما تحس به ؟ هل تستطيع أن تسأل : لماذا ؟ أهذا إيذان بالنهاية ؟* ».

– لا تفكري فى شيئ ، وعليك أن ترتاحى لتستعدى للعمليات القادمة . « *عودة الروح مرهونة أيضا بالكلمات* » .

– صحيح ؟

– طبعا ، وهل لديك شك فى ذلك ؟!

✍ ✍ ✍

- ٣٤ -

« غريب وقع الأصوات فى عينيك ، مذاق الألوان فى شفتيك ، طعم الماء فى أذنيك ، هل يمكن أن تكون فى غيبوبة حلم أم أنك تستيقظ من أحلام غيبتك ؟ هل ما تجده إيذان بزوال معالم الأشياء أم بشرى بتحديدها ؟ أهو ذوبان مقومات الوجود أم بلورة لخصائصها ؟ أهى انتكاسة قوانين الطبيعة أم انكشافها ؟ هل يمكن أن يكون الجنون وظيفة العقل ؟ والجمود محور الحركة ؟ والتقهقر غاية التقدم ؟ والتردى هدف التطور ؟ هل يمكن أن تكف الظلمات الأبدية الغارقة فى الأضواء الهمجية عن رحلتها الفاجرة :أن تضع بغلا إثر بغل برأس حمار ذى أقدام خشبية فى جماجم بشرية قد تعفنت بعد أن نخرها السوس وصارت فيها . فلتصدح الموسيقى ولترفرف الأعلام ، فلتدق الطبول ولتنطلق الزغاريد ، فلينشد المريدون الأوراد وليمتلئ الكون بأهازيج الذكر فى مناقب السادة الأقنان ، بركاتك يا سيدنا القفاز ، ياقفاز السيد ، فوق رءوسنا قبضتك ، وعلى أجسادنا بصمتك ،

بركاتك أيها الموصول الواصل ، يامن تمتد جذورك فى أى أرض غير أرضك ، مبارك أنت لقوم غير قومك ، محمود أنت بلسان غير لسانك ، عيون أهلك كلمات أخرسها الجوع ، جماجم أهلك أسكرها الرعب ، عذاب أرضك فى قلبك أعذب من كل الألحان ، أنّاتها الفزعة منك أروع متع الأحلام ، شحوب خلاياها الظمأى للقطرة ضوء بهجة روحك ، اركب مولانا وتمتع ، قلامة ظفر خنصر قدمك تميمة ضد العوز ، إشارة نظرتك حجاب سعادة ، حركة شفتيك مفتاح الجنة ، اركب مولانا وتمتع ، فليس لأحد فى أرضك عينان ، ولا لسان وشفتان ، وقد صرفتهم آثارك عنك ، فمنعتهم الفاقة منك ، وقصّر بهم اليأس عن التطاول إليك ، وحجبهم الجهل عن التفكير فيك ، وحملهم التواكل على التسليم لك ».

- ٣٥ -

« هل أنت مندهش مما حدث منه ؟! هل أنت مندهش مما قال لك ؟ إذن فقد نسيته ! إنه هو هو لم يتغير ، متحجر وجامد وغير قادر على فهم ما حوله . ألم يكن يعود مُغْمًى عليه من جلسات استطلاع الرأى بعد أن ينطلوا فيه وبه ما لا يتصوره عقل ثم حين يفيق لا يكف عن الكلمات الحمقى التى تكشف عن سخطه وتعلن رفضه ، وكأنه يستعذب العذاب ويطلب منه المزيد ، ماذا كنت تتوقع وأنت تقبل عليه بشوقنا وبودنا مخلصا فى بشاشتك وموبتك ؟ أن يكون قد تغير ؟! لو كان قد تغير لعرفت لأنه ما كان له أن يسير فى غير الطريق الذى سرت فيه والذى طالما ألححت عليه بدعوته إليه ، لكن من الواضح وقد ظل فى دائرة النسيان أنه متحجر فى موقعه ، فى قوقعته لم يزل ، ربما كان يتشدق بالكلمات الجارحة ولكنه بالقطع يشتعل فى أعماقه حسرة بعد أن أيقن أنه عاجز عن مواجهة التغيرات التى تحيط به فادركه الفزع من الوحدة والرعب من التخلف ، زادهما ما يشهد حوله من صور النجاح والتألق لعناصر طالما استعلى عليها فكرا وسلوكا ، إنه لا يستحق أبدا غير ما هو فيه ، وليس لمثله أن يصبح شيئا

متكورا ، فهو مجرد أكاديمى صمّام متشدّق أقصى ما لديه قدرته على حفظ آراء الآخرين وترديدها والاستشهاد بها وتقرير مقولاتها ، لكن ما فائدة أن تمتلئ رأسك بالآراء وأنت لا تعرف كيف تفيد منها فى حياتك العملية !؟ وما فائدة أن تجعل وظيفتك مجرد الشرح والتفسير والبيان والتطبيق ملتزما ذات القواعد والضوابط والأصول محافظا على ذات الأهداف والغايات القريبة والبعيدة وكأنك راهب فى معبد يتعبد بالنصوص المقدسة ، لو كان ذكيا كما كنا نتوهم لأدرك الحقيقة المطلقة وهى أنه لاقداسة لرأى أوفكرة أو مبدأ بمعزل عن الظروف الموضوعية المصاحبة له ، القداسة الوحيدة التى يمكن الاعتراف بها إنما تكون لعقل الإنسان وحده ، ولايكون كذلك إلا إذا أضاء للإنسان سبل التكيف مع الواقع ومواجهة متغيراته حتى يستطيع أن يتعامل معه أخذا وعطاء ، إضافة وحذفا ، ليتمكن فى النهاية من تطويره فى الاتجاه الصحيح ، إنك أنت الأذكى بلا جدال وبكل المقاييس أما هو ففشله المستمر دليل متجدد على غبائه الدائم ، فكفكف من غضبك وانفعالك ، لقد فعلت معه أقصى ما يمكن فعله في مكان عام وليس ذنبك أنه ميت الإحساس . هل كنت ستصبح أكثر راحة لو ضربته بالحذاء على رأسه ؟ ، لقد قلت له ما هو أقسى من الضرب بالحذاء ، عليك أن تهدأ لتفكر فيما هو أهم فقد اشتعلت المعركة وتأججت نيرانها وعليك أن ترقبها لتصحح مسارها حتى تلحق نارُها بكل الجامدين والجاحدين والحاقدين والموتورين والمعاندين والسفهاء » .

- أنا حامد شكرى ، وهذا هو الاتصال الثالث بكم لإ بلاغكم بالمعلومات التى توصلت إليها فى الموضوع الذى تفضلتم بتكليفى به ، وأنا فى انتظار تحديد موعد لمقابلتكم ...

خطف ماهر السماعة وأوقف الجهاز وقال فى لحظة واحدة .

- أين أنت الآن يا حامد ؟

كانت مفاجأة حقيقية قابلها المسئول بصمت الحائر ، « *هل العبارة جزء من تسجيل أم بدء لحوار حي ، فلماذا إذن لم يجب منذ البداية ؟* » .

تابع ماهر مفسراً :

- سمعتك فى اللحظة التى كنت أدخل فيها من الباب .

فرد حامد بتلقائية :

- حمد الله على السلامة .

واستمر ماهر :

- أين أنت الآن ؟

قال حامد بحذر من يعرف رئيسه وتصرفاته المفاجئة :

- في المنزل .

- أين منزلك ؟

- فى مدينة السلام .

تساءل ماهر بهدوء من يتوقع ما سيحدث :

- ألا يمكنك الحضور الآن ؟

فرد حامد بحرص من يظهر الرغبة فى الاستجابة :

- تحت أمرك ، لكن قد لا توجد وسيلة مواصلات .

صمت ماهر مستخدما وسيلته المثلى فى ابتزاز مرءوسيه ، تجاهل ما قيل وانتظار جديد يقال ، فاضطر حامد أن يضيف :

- سأحاول على أى حال ، وأرجو ألا أغيب .

فاكتفي ماهر بأن يقول وهو يضع السماعة :

- فى انتظارك مهما تأخرت .

« إنه لا يطلبك ثلاث مرات إلا إذا كانت لديه معلومات جيدة ، لقد كنت على صواب منذ البداية حين اكتشفت قدراته . وحين كلفته بمثل هذه الموضوعات التى تحتاج إلى صبر فى جمع المعلومات وجهد فى كشف الخفايا ، ليته يكون قد جمع ما يكفى لتعويضك عما ضاع منك فى هذا البار الحقير ، وإنه لأمر رائع أن تتجمع لديك فى هذه المرحلة كل المعلومات الضرورية عن فاروق ورفاقه من جماعات الثرثرة واللغو حتى تكون جاهزا تماما لحسم المعركة فى الوقت المناسب ».

أخذ ماهر يشغل نفسه فى فترة الانتظار بمطالعة ما قدمته الصحف فى طبعاتها الأولى التي حصل عليها وهو عائد إلى منزله ، لم يلق بالا إلى المانشتات الكبيرة فى الصفحات الأولى واتجه مباشرة إلى قراءة الأعمدة والكلمات الافتتاحية والمقالات المختلفة التى امتلأت بها الصفحات المعنية بالثقافة والرأي العام، وقد أحس منذ الوهلة الأولي براحة تتسلل إليه شيئا فشيئا ، كان ثمة عدد من الايجابيات تلفت النظر ، فقد أخذ يشارك فى الجملة كتاب لم يكن متوقعا إسهامهم فيها ، وعدد من رسامى الكاريكاتير البارزين ، الذين التزموا تلقائيا بالخط المحدد : مهاجمة اليمين الرجعي واليسار الفوضوي ، ورفع شعار الولاء الوطنى ، كما كانت المسألة الموضوع الاساسي الذى دارت حوله معظم رسائل بريد القراء ، صحيح أن عددا غير قليل منها كتبه المحررون بأسماء وهمية لكن كان من الواضح أن الخطة أثمرت ، وأنها اجتذبت بعض من يشتهون رؤية أسمائهم مطبوعة فى صحيفة يومية ، ابتسم بسعادة وهو يعد لنفسه كأسا :

« سيحمل كل منهم الصحيفة التي نشر فيها اسمه ويعرضها بكبرياء ظاهر أو تواضع مصطنع على أسرته وجيرانه وأصدقائه وزملائه ، وسيدور حول ما كتب حوار يدافع فيه باقتناع كامل عن الصحيفة واتجاهها، من حقك أن تبتسم بعد كل ما حدث ، فإن جنودا مجهولين

يتزايد عددهم منتشرين في مواقع شتى قد تطوعوا بإرادتهم ليحاربوا معركتك » .

* * *

استقبل ماهر ضيفه ببشاشة صادقة أنسته عناء الرحلة القاسية التي قطع بعض مراحلها على قدميه ، وبلغت حفاوته به حدا لم تبلغه من قبل حين أراد أن يشركه معه في الشراب وهو الذي لا يشارك أحدا من مرءوسيه فيه ، فتساءل وهو واقف إلى جوار البار الصغير الذي يضم أنواعا منتقاة بعناية :

- ماذا تحب أن تشرب ؟

كشف الصمت عن تردد الحائر « *إنه لشرف له كبير أن يشرب مع أستاذه ومعلمه ، ولكن المرات المعدودة المتفاوتة التي شرب فيها لم تترك له بأنواع الشراب خبرة ولا بآثارها معرفة هل يجرؤ على أن يختار وهو في حضرة خبير مشهور عنه أنه يستطيع أن يحدد نوع الشراب وعمره من غير أن يتذوقه بلسانه ، بمجرد أن تلتقط أنفه رائحة الكأس* » .

- شرف عظيم لي أن أشاركك ما تحب .

- ليس كل ما أحب طبعا .

ورن صدى الضحكة المترعة في سكون الليل فاضطر حامد أن يشاركه الضحك على استحياء وهو يعقب مأخوذا راجيا ألا يكون قد وقع في خطأ :

- منكم نتعلم

صفت الجلسة وكل منهما يمسك بكأسه ، وتجاوز ماهر برقته كل مدى متصور وهو يسأله عن متاعب رحلته في البحث عن فاروق ، ومصادر معلوماته التي أرشدته ، وكلما أمعن حامد في ذكر الصعوبات كلما أيقن ماهر أن النتائج لابد أن تتناسب مع

المقدمات ، وأن المعلومات التي سيحصل عليها بالضرورة بالغة الأهمية ، حتي استبد به الشوق فقاطعه :

- وأخيرا قابلته هو وشلته ؟

- كلا .

« *هل سكر من كأس واحدة ؟ أم افقده التبسط معه الوعى* » .

- ماذا تقول ؟! .

- لم أر أحدا منهم .

قال ماهر بغيظ .

- ماذا فعلت إذن ؟

تصنع حامد الهدوء وإن فضحته لجلجة خفية :

- جمعت كل هذه المعلومات .

جاهد ماهر حتى لا يرتفع صوته وهو يتساءل مستنكرا :

- أي معلومات ؟! لقد كان بوسعى أن أحصل على كل ما ذكرت بمكالمة واحدة .

تردد حامد وهو يقول :

- معلومات الجهاز الخاص قديمة ولم يعد لها قيمة .

قاطعه ماهر باستخفاف :

- ومعلوماتك أنت هى الجديدة !!

فرد حامد بثقة :

- نعم ، ما عندي من معلومات لم يدخل بعد أرشيف الجهاز الخاص .

ودَّ ماهر أن لو كانت لديه القدرة على التخلص من التقاليد البالية التى تمنع المضيف من أن يطرد ضيفه ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يحدث صوتا أنفيا يجمع بين

السخرية والغيظ والاستهانة والاستفزاز ، أدرك حامد ما يعانيه أستاذه وفسره مباشرة بأنه لم يحسن عرض معلوماته بصورة تبرز أهميتها فقرر تلقائيا إعادة بلورة ما قدمه بأسلوب منظم دون أن يخلطه بالمتاعب التي واجهها :

- الفكرة الشائعة أن فاروق يساري متصلب يواصل نقده للأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية في حلقته التي يعقدها بانتظام فى سوق الحميدية ، والتي يرتادها مجموعة من المثقفين من بينهم عدد غير معروف من المتعاونين مع الأجهزة الخاصة وهم يقدمون تقارير متابعة منتظمة عما يدور في هذه اللقاءات .

هز ماهر رأسه ضيقا وهو يتظاهر بإعداد كأس له أملا أن يدرك حامد أن المقابلة قد آذنت بالانتهاء ، ولكن حامد تابع غير آبه بما يرى من مؤشرات :

- للأسف فإن هذه المعلومات قديمة ولم يعد لها وجود لكن عيون الاجهزة الخاصة ما زالت تفتعل تقارير متابعة غير صحيحة تتحدث عن أشياء كانت تحدث من سنوات وكأنها تواصل حدوثها حتى اليوم .

لم يزد ماهر على أن تمتم باستهانه :

- عادي ، فما زال فى ملفى فى الجهاز الخاص أننى يسارى .

واصل حامد متجاوزا ملحوظة أستاذه :

- لم يعد فاروق من رواد سوق الحميدية .

قاطعه ماهر بضجر :

- أعرف .

تابع حامد .

- ولم يعد ذلك اليساري المتصلب .

صرخ ماهر بدهشة :

- نعم ؟

استمر حامد بحماس الواثق .

- لقد أصبح أحد الدعاة المتحمسين للدولة الدينية .

- أنت مجنون ، لا يقول بهذا الكلام عاقل .

ندّت الكلمات من غير تفكير فانتاب حامد الوجوم ، إنه يعرف سلاطة لسان أستاذه لكن أن تصل إلى هذه الدرجة فالأمر يحتاج إلى تفكير جيد لاختيار الرد المناسب ، واصل ماهر كلامه وكأنه لم يحس بما قدمه من إساءة :

- الماركسي الحقيقي لا يكون داعية دولة دينية أبدا ، قد يكون أي شيئ إلا أن يكون داعية من هذا النوع .

هل وجد حامد أن الأسلم أن يتجاوز الإساءة الخاصة ليتناول القضية العامة :

- لم أصدق بدوري أول الأمر ، ولكن المسأله لم تعد قضية نظرية ، إنها حقيقة واقعية.

- على أي أساس ؟

- على أساس المعلومات التي تضافرت لدي من مصادر متعددة ، منها مصادر آثرت مجاهرته بالعداء صراحة بعد أن لاحظت تحوله الفكري .

- لعلها لم تحسن فهمه ، فلقد كان دائما أكثر عمقا ووعيا وأبعد إدراكا وتحليلا من أن تحيط بفكره عناصر كثيرة ، إنه بطبيعته غير جماهيري .

هل كان يأسى أم يسخر حين أضاف :

- إنه المنظر الاكبر .

- لكنه صار الآن جماهيريا يقود حركة نشطة لها شعبية كبيرة في مناطق واسعة من القاهرة والأقاليم .

- مستحيل .

صمتا معا ، كانت جرعة المعلومات من الكثافة بحيث يحتاج ماهر الي وقت لاستيعابها ، وكان حامد علي استعداد لمنحه ما شاء من وقت . إنها إحدى اللحظات القليلة بل النادرة ، التي يضع أستاذه فيها موضع التلميذ .

هل كان ماهر يؤكد موقفه أم يفتح بابا للتراجع عنه حين قال بعد صمت طويل :

- معرفتى الشخصية تجعل مثل هذا التطور غير المتوقع مناقضا لتكوينه ولذلك لا بد من التأكد .

قال حامد بهدوء :

- لقد تأكدت بما يسلمنى إلى اليقين .

قاطعه ماهر وهو ينهض منهيا المناقشة :

- تأكدك لا يغنى عن تأكدى ، أريد أن أتلقى المعلومات من مصادرك مباشرة .

ابتسم حامد ابتسامة غامضة وهو يتبعه قائلا :

- سأحاول .

- فى أقرب وقت .

ظلت الابتسامة الغامضة ترف على شفتيه وهو يكرر عبارته .

- سأحاول .

✍ ✍ ✍

- ٣٦ -

- أرجو ألا تكون الرحلة شاقة .

قالها الأخ القيادى وهو واقف خلف باب المقبرة الحديدى فى تلك البقعة المجهولة من الدويقة محييا القادمين الذين أخذ يتفقد وجوهم بالمصباح اليدوى الصغير الذى حمله فى يسراه مادا يمناه للسلام عليهم ، فتمتم صلاح وعمر وكأنهما ينفيان بينما قال أحمد مجاهدا ألا تظهر نبراته قلقه إذ لم يعرف صوت المتحدث ولم ير معالمه بوضوح :

- الحمد لله

ولما جاء دوره فى التحية أمسك الأخ القيادى بكفه وضغط عليها بحرارة مرحبا وظلت كفاهما متشابكتين وهم يمضون إلى الحجرة الجانبية ، بينما انصرف طارق ليأخذ مكانه المألوف حين يكون واحد من القادة فى المقبرة على رأس الطريق الفرعى عند التقاطع الأول .

جلس الأخ القيادى تحت المصباح البترولى الصغير مباشرة مسندا رأسه وظهره إلى الحائط الذى يحمله ، وأشار بيده فجلس أحمد إلى جواره ، بينما جلس فى مواجهتهما صلاح وعمر . كان ظل الجزء السفلى من المصباح البترولي شبه المعتم يمتد فى شكل مخروطى فيغطى الجالسين تحته ، حتى أن أحمد لم يستطع أن يحدد بوضوح

كاف قسمات الأخ القيادى أو لون بشرته بالرغم من جلوسه إلى جواره ، وإن بدا له فى انطباعه السريع شابا لم يتجاوز الثلاثين ، متوسط الطول، أقرب إلى الامتلاء ، يميل رأسه إلى الصلع بعد أن أوشكت أن تخلو من الشعر إلا ما أحاط بالأذنين فضلا عن شعيرات قليلة لم يعن بترجيلها تحتل مقدمة الرأس .

وما كاد الأخ القيادى يستقر فى جلسته حتى قال بأسى :

– عظم الله أجركم .

أصابتهم الكلمات بصدمة فسقطوا فى بئر الصمت والسكون ولولا العيون الزائغة لظن من رآهم أنهم مجموعة من تماثيل عهد قديم ، تابع الأخ القيادى :

– اقرءوا الفاتحة لأخيكم الشهيد عبد الحميد .

جاهد أحمد حتى لا يصرخ وهو يسأل :

– مسئول التثقيف ؟

– نعم مسئول التثقيف .

« تتفجر فى الأعماق صرخات جزع برغم ما تحرص عليه من صمت وتجلد ، الصبر مجرد كلمات فهل تستطيع أن تخفف النار المستعرة فى النفس وهى تزداد تأججا ، تنتصب فى الظلمة القاتمة القارعة والوجه البشوش المشرق بهاء والشعر المرجل بعناية والبسمة المشرقة بالنور والحركة الموحية بالجلال ، لقد التقيت به مرات ، وفى كل مرة تبهرك فيه أشياء جديدة ، فكره الواضح المنظم ولغته الطيعة المهذبة وإيمانه المطلق بالجماعة ويقينه الثابت بالنصر مهما ازدادت الصعاب وتكاثفت الظلمات ، فى آخر مرة رأيته فيها كان مطمئنا برغم ما تلمسونه جميعا من مؤشرات الخطر ، وبرغم التهديدات المتوالية له ، وظل ثابتا على نظريته فى الأولويات : اليد قبل القفاز ، والعقل

قبل السـاعد . آه أيها الحبيب .... لم يملك عقل ولا منطق . نالتك السواعد الغبية مرتدية قفازاتها القذرة » .

- متى ؟

- أين ؟

- كيف ؟

- من ؟

- لماذا ؟

« كل الأسئلة ساذجة بلهاء بغير معنى ، هل تغير الإجابة شيئا من الواقع ؟ هل يرد إليه الروح أن تعرف أنه قتل منذ ساعات معدودة ؟ تناوشته الطلقات الغادرة وهو بسبيله لزيارة شقيقته المريضة فى الجيزة ، كمنوا له حتى أقبل فقتلوه على بعد أمتار من بابها ، لم يجرؤ أحد أن يمد إليه يدا بعد أن سقط مضرجا فى دمه حتى أقبل القتلة فحملوه إلى المشرحة ليدفنوه باسم مستعار أعدوا سلفا بطاقته ، القتل هو القتل فما قيمة التفصيلات ؟ قتله أعداؤه ، بل قتله أحبابه الذين من أجلهم دفع عمره ، أولئك الذين توهموا أن القانون حكما ، وهل كان القانون يوما غير إرادة الحاكم ؟ مطيته الذلول التى تحقق رغبته بأيسر سبيل ، الخدعة التى ينخدع بها الراغبون فى أن يخدعوا أنفسهم حتى لا يجاهدوا ضد الحكم المطلق من كل قيد ، المهيمن على كل شيئ ، الذى لا يسأل ولا فى الأحلام عما يفعل ، كن حاكما تصبح إرادتك دستورا ورغبتك شريعة وشذوذك قانونا وفسادك نظاما وتخليطك منهاج حياة ، ما قتله إلا العقول المكبلة بالخوف والعيون المشلولة بالهلع والسواعد المبتورة بالرعب ، يا موتي بغير قبور ، الهدف واضح والطريق محدد ولن تفقدوا شيئا غير العذاب » .

- لم نسمع رأى الأخ أحمد .

قالها الأخ القيادى وهو يتطلع إليه ، فرد أحمد وهو يتحول ببصره إليه :

- كنت أفكر .

هل كان الأخ القيادى يلومه حين عقب :

- كأنك لم تسمعنا .

وهل كان أحمد يعتذر حين قاطعه :

- بل سمعت .

- فما رأيك ؟

- وهل هنالك مجال لرأى !! الموقف واضح تماما ، شريعتنا القصاص ، ولكم فى القصاص حياة .

هل كان الأخ القيادى يستفزه أم يوقظه حين قاطعه :

- لا تفقد قدرتك المشهود لك بها على التفكير الدقيق .

وهل أفاق أحمد حين عقّب بهدوء من تلقى الرسالة وحل رموزها :

- نحن ننفذ ما تراه القيادة .

- أمر جيد .

أوشك الأخ القيادى أن يضيف : « *وهل أمرتك القيادة بالدخول فى معارك جانبية لتنبيه الصغار إليك وإثارتهم ضدك لتضيف إلى مشكلاتنا مشكلة المحافظة عليك ؟* » ولكنه عدل وآثر أن يستوضحه مباشرة :

- تريد القيادة أن تعرف بدقة ظروف عملك في الكلية والجامعة .

هل تجاهل أحمد السؤال أم أجاب عنه حين قال بحسم من اتخذ قرارا لارجعة فيه :

- نحن وإن كنا لا نحسن غير القتال بالكلمات فإننا قادرون بعون الله على مواجهة الرصاص .

عقب الأخ القيادي وكأنه يُقَرِّعه :

- لم يقل لى أحد إن حماسك البالغ يتجاوز مداه .

صمت أحمد وقد جالت بخاطره فكرة « *أهى سخرية أم مقدمة ، دعك من المقدمات وادخل فى الموضوع مباشرة ، قل ما عندك* » .

- يبدو أننى سأجد صعوبة معك .

تساءل أحمد بحذر مشوب بقلق من ينتظر :

- صعوبة ؟ فى أى شيئ ؟! .

- فى أن أقنعك .

- تقنعنى بأى شيئ ؟

رد الأخ القيادي بهدوء من يعالج شحنة متفجرة :

- بأن تجمد نشاطك لفترة .

قاطعه أحمد بعجلة :

- لماذا ؟

فتابع الأخ القيادي وكأنه لم يسمع السؤال :

- البديل لذلك أن تختفى تماما إلى حين .

صرخ أحمد مستنكرا وقد تلاحقت أنفاسه :

- أختفى ؟ لماذا ؟ لست أفهم .

- لأنهم قرروا فيما يبدو تصفية العناصر القيادية جسديا ، واستشهاد عبد الحميد مؤشر إلى بدء تصفية مسئولى التثقيف في الجماعة .

استرد أحمد أنفاسه وكأن الأمر أهون مما سمعه فى البداية وقال بصوت أقرب إلى الاستهانة :

- يبدو

هل اضطر الأخ القيادى أن يصرح بما لم يكن يعتزم التصريح به حقيقة حين أضاف وهو يضغط على الحروف :

- نحن متأكدون أن اسمك فى القائمة والمسألة فى تقديرنا مسألة وقت وظروف .

هل سمع أحمد الكلمات أم استغرقته الصدمة والأخ القيادى يضيف :

- إن تجميد نشاطك محاولة لتهدئتهم بعدأن أثارهم نشاطك الناجح فى الفـــــــترة الأخيرة ، وهي محاولة غير مضمونة النتائج ، ولكن الاختفاء هو الحل الأمثل في هذه المرحلة ، والأمر كله بين يديك .

عقب أحمد بصوت بين الجد والسخرية .

- حقا !!

وما هى إلا دقائق حتى استعر الحوار فيما يمكن أن يكون وما يجب أن يكون .

✍ ✍ ✍

- ٣٧ -

فتح السائق باب السيارة الحكومية التى تحمل أرقاما خاصة لتنزل أميمة ، ففاجأته - على غير عادتها - بمبادرته ببسمة لم يلحظ فى غمرة استغرابه لها وبهجته بها أنها شاردة ، ولكن سرعان ما أدركتها عادتها المألوفة ، فأخذت تتهادى مختالة مؤثرة أن تدق بكعبيها الرخام الايطالي الفاخر حتى يصدر عنه ذلك الإيقاع المنغوم ، متجنبة السجاد اليدوى الذى استنفد ميزانية الإصدارات الجديدة من الكتب والمجلات لعام كامل ، لأنه - كما جربته من قبل - يمتص الصوت فلا يصدر عنه إلا ما يشبه النقيق المكتوم ، ويفوح عبيرها وهى فى طريقها حتى ليطغى عطرها على الرائحة النفاذة التى ينشرها بكثافة عامل المصعد الخاص بالسيد الوزير استعدادا لاستقبال معاليه ، ولما دخلت المصعد الذى استقر العرف على أن يسمح لها بركوبه منذ تولت مسئوليتها الخاصة فى مكتب معاليه ألقت آليا نظرة عجلى على صورتها فى المرآة دون أن تخلع نظارتها الكارتييه الملونة العدسات المهداة إليها من مكتب العلاقات الخارجية بالرياسة تقديرا لنشاطها فى إعداد سهرات طيبة وصحبة ناجحة لوفد مرافق لرئيس زائر ، ولكنها كعادتها ربما أرادت أن تتأكد فنحت النظارة جانبا وتأملت بإمعان كل ما عكسته المرآة أمامها : الألوان ، والظلال ، وإيقاع النظرة ، واللفتة المندهشة ، وهزة الرأس الناطقة بدلال ، والخطوط المنحنية البليغة البالغة الإفصاح غير مبالية بموظف

المصعد الذى ألقى ببصره إلى الأرض محاذرا أن تلمح شيئا من نظراته المتسللة ، التى لم تتجاوز ساقيها ، إذ شغله الجورب الشفاف المحلى بالرسوم البارزة حتى أنه لم يلتفت إلى الحذاء الفرنسى المحلى بخيوط السرما الفضية ، تنفست بعمق وقد داخلها الارتياح ، فمضت فى الردهة إلى مكتبها الملاصق لمكتب الوزير ثابتة الخطى لا يستطيع من يراها أن يلحظ فيها تغيرا ، فهزة الرأس المترفعة هى الاجابة المعهودة لتحية الصغار الذين يتنحون فى عجلة عن طريقها ، والبسمة الدافئة المرسومة المشعة هى التحية المتألقة لمن تصادفهم من الكبار فى طريقها .

وصلت إلى مكتبها ففتح لها الحاجب الباب بيسراه رافعا يمناه بحذاء أذنه تحية ، ولكنها لم تدخل مباشرة بل وقفت بالباب لحظات قصيرة ، إنها عادتها منذ دخلت المكتب لأول مرة من سنوات ، لقد تخلصت منذ ذلك الوقت من كل ما فيه ومن فيه ، الأثاث والديكور والستائر والألوان والتحف والتجهيزات والبشر ، ولكنها لم تستطع ان تتخلص من تلك الوقفة القصيرة المتأملة التى تحاول - برغم سرعتها - الإحاطة بكل شيئ ، وتحركت بعد برهة قصيرة متجهة إلى المكتب الفاخر لتعلق خلفه حقيبتها المصنوعة من جلد الفهد المرقط ، التى أهداها إليها مسئول بسفارة إفريقية لدورها فى إعداد سهرة خاصة برئيسه عند زيارته للقاهرة ، وهمت أن تجلس كعادتها وتمسك بسماعة التليفون لتمارس هوايتها فى استطلاع الأخبار الشخصية العاجلة من الأقسام المختلفة ، ولكنها دون ان تدرى سببا وجدت نفسها تضع السماعة فى مكانها وتتجه إلى النوافذ المحكمة الإغلاق لتقف وراءها مستطلعة من خلال الستائر المخملية البارزة النقوش معالم الحى الراقى الذى تحتل الوزارة موقعا متميزا فيه ، ثم أخذت تتنقل فى الحجرة متأملة بإمعان كل مافيها ، متذكرة أحيانا بعض ما صحبها من أحداث : الستائر الفاخرة ، اللوحات الأصلية التى لم تدرك أهميتها إلا بعد أن بدلت عددا منها بهدايا شخصية محدودة القيمة ، اللوحات المقلدة التى حلت محل لوحات أصلية ، نماذج القطع الاثرية التى مهما قيل من أهميتها فإنها لا تستطيع أن تستسيغها ولكنها تحتفظ بها لقدرتها على جذب بعض الأجانب المهووسين باقتنائها ، وتوقفت طويلا عند ساعة الحائط الفاخرة الطلاء

التى استبدلتها أخيرا بتمثال كئيب من الحجر الجيرى يرجع إلى عهد الأسرة السادسة عشرة يمثل رأس طائر وجسم حيوان ، غمرتها من جديد الفرحة لرؤيتها ، فوجود هذه الساعة شهادة متجددة بذكائها ، فما قيمة تمثال لا معنى له يستطيع أن يصنع خيرا منه أى طفل فى مدرسة ابتدائية عند مقارنته بهذه الساعة الرائعة ، « *يقول الحمقى إنها تقليد كوري لأصل ياباني هو بدوره مقلد ، وما الضرر في ذلك ، الا تمثل أحدث ما في العالم من إنتاج ، وهل من الضرورى أن تكون سويسرية حتى تحظى بالإعجاب*».

غمرتها مشاعر دافئة ، مزيج من الرضا والمتعة والثقة بالنفس ، فعادت الى مكانها خلف المكتب لتدق الجرس طالبة قهوتها المعتادة ، وبدأت تمارس بحنكة الخبير عملها ، تتصل بمديري الإدارات لتسألهم عن أى شئ يعن لها ، لا لكي تجد إجابة ، وإنما ليدور الحديث في الإدارات المختلفة عن وصولها فيسعى إليها من يريد من عيونها وآذانها . لكن عيونها لا تستجيب وآذانها لا تسمع فتبدأ الأغوار البعيدة فى النفس تتلقي قطرات من توتر انتظار غير معهود موشى بقلق غير محدد ، « *هل جد جديد ؟ لم يتغير شيئ مما حولك ، ها هو ذا مكتبك كما اردت له أن يكون بأناقته المفرطة التى تعكس ذوقك فيشع سحرا وإبهارا ، وها أنت ذى في موقعك الذى يشد العيون والقلوب رغبة ورهبة ، فلم التوتر وكل شئ كعهدك به لم يتغير ، اطمئنى* » لكن من أين لها أن تطمئن ، لقد طال الانتظار وخلا المكتب علي غير العادة من القاصدين ، كما لم تشهد الحجرة الصغيرة الملحقة به تلك اللقاءات السريعة المعهودة فى مثل هذا التوقيت كل يوم « *لا تقلقى وحاولي أن تطمئنى ، ربما تعود غيبتهم إلى أنه لا جديد يستحق أن ينقلوه إليك* » ولكنها برغم محاولتها أن تتناسى ما يحدث لاتنساه « *لقد كانوا يتلهفون على الحضور بمجرد معرفتهم بحضورك ، حتى من لم يكن منهم يحمل جديدا كان يحضر لمجرد ان يحظى بشرف الحديث إليك ، فما الذى يحدث ؟!*».

يتواتر فى الاعماق القلق فإذا هو مع الانتظار أوتار مشدودة بخوف مبهم يزداد إذ حضر الباشا فلا يستدعيها كعادته القريبة لتكون أول من يلقاه ويلقى إليه مزيجا محكما من الأخبار والتوجيهات ، فتبادر هى كعادتها البعيدة إلى السعى إليه فإذا به ليس وحده ، لقد كان معه سكرتيره الشخصى ، متى جاء ؟ لماذا ينظر إليها هذه النظرية الباردة ؟ لقد أحسن صنعا إذ انسحب خارجا وهو يقول بصوته المعطوب كأن في فمه ماء:

- أوامر معاليكم .

لكن الباشا يكتفى بالإشارة إليه بإصبعه ، ملتفتا إليها برقة ، مبتسما لها ابتسامته المعهودة التى حارت دائما فى تفسيرها ، وبرغم ذلك أحست لها فى هذه اللحظة بتأثير كالسحر فإذا بالسعادة تغمرها « *إنه هو هو لم يتغير* ».

ظلت فى مكانها لحظات خالتها دهرا ، لاتسعفها قريحتها بما تقوله ، فليس لديها جديد تقدمه ، هل كان الباشا يتوقع موقفها فبادرها هو على غير عادته معها :

- أميمة ، أحب أن أشكرك .

« *إنه ينطق اسمك الرسمى عوضا عن اسم التدليل الأثير لديه مع أنكما منفردان* » أرسلت إليه من خلال الأهداب المصبوغة بعناية بقلم الماسكرا الباريسى الجديد نظرة استطلاع كأنما قد دهمها خاطر ، فاستمر :

- أنت تقومين بعملك بصورة ممتازة تستحق التقدير .

برقت الثنايا المتألقة من خلال الشفاه الناطقة وإن تابعت العينان إشارة الاستفهام .

- أنا دائما فى خدمة معاليكم .

- سأصدر اليوم قرارا بمنحك مكافأة .

« *علام المكافأة ؟ ولم ؟* » .

- مكافأتي رضاكم معالى الباشا .

- من هذه الناحية اطمئني ، فرضاى عنك لا حد له .

« هل يمكنك بالفعل برغم ما تعرفين وما لا تعرفين أن تطمئني أم يجب أن يستبد بك القلق ، آه لو كان فى استطاعتك أن تستقرى على شيئ ، النفس بندول ساعة جدار يتجاذبها اليأس والأمل فى لحظة واحدة ، أهو أنت أم هى اليد المعهودة ؟ الصوت الخفى الظاهر ، المجهول المعروف ، الذى يغرس فى كل شيئ إصبعه ويزرع فى كل فم لسانه ، ليتك قادرة على أن تصرخى ، على أن تقذفى ما استقر فى جوفك وما لم يستقر ».

- يكفينى هذا معالي الباشا ، رضاكم عنى وسام أعتز به .
- استمرى فى عملك العادي إلى أن يصدر القرار .
- أي قرار ؟
- قرار المكافأة .

كانت قد وصلت إلى الباب الداخلى الموصل إلى مكتبها حين جاءها صوته :

- عموما لن يتأخر ، لكن لا تتحدثى عنه حتى يصدر بصورة رسمية .

فهزت رأسها بدلال من مسته الكلمة وقالت بثقة :

- تأكد دائما معالى الباشا أننى لا أتكلم عن شيئ أعرفه أبدا .

وأضافت عيناها وهى تغادر الغرفة :

« أنت تعرف ، قلم التوجيه » ؟ .

وردت عيناه وهما تتبعانها :

« أعرف ، وهذه ميزتك الكبري التى ربما أفتقدها ، ولكنها الضرورة » .

* * *

« لأول مرة تكونين آخر من يعلم ما يعد لك وأنت التى تصنعين ما يفعل بالآخرين ، فهل آن الأوان لتسألى غيرك عن أمر يخصك وأنت التى تحيط بكل ما يخص غيرك » !! باشرت عملها الرسمى بإجراء اتصالات داخلية وخارجية لترتيب مواعيد وتنظيم لقاءات بعقل نصف يقظ شغله الانتظار والترقب ، متوقعة فى كل لحظة أن يدخل عليها من يبلغها بما لا تعلم ، ولكن انتظارها يطول وتوقعاتها لا تتحقق « كيف لا يسعى إليك حتى الآن أحد لينقل خبرا أو حتى شائعة ، لو كان القرار لك لا عليك لسعوا جميعاً أفراداً وجماعات تتنافس فى الحصول على لفتة أو كلمة » تضيق بالانتظار ويدهم روحها الأسى واليأس فتفيض سخطا على كل شئ: « إنها نكتة أن يضعك ذلك المأبون الشاذ الذى ليس له من الرجولة إلا اسمه فى هذا الموقف فى انتظار الأوامر التى تصدر إليه ليصدرها إليك ، إنهم يلعبون معك لعبة القط والفار ، لكنك لست فأرة يرعبها قط بعد أن أنبتت لك الأيام أنيابا ومخالب » حانت منها التفاتة فى فورة انفعالها المكبلوت إلى الخزانة الحديدية التى تأخذ فى ظاهرها شكل دولاب عادى من الأرو والتى تحتفظ فيها بالوثائق البالغة السرية المتبادلة بين الوزير والقيادة السياسية ، ما الذى دار فى خاطرها وهى تسير كأنها مسيرة إليها ؟ ما الذى حملها على أن تخرج بعض ملفاتها لتبدأ فى تصويرها فى الحجرة الملحقة بمكتبها قبل أن تعيدها إلى مكانها ؟ هل تذكرت ما صنعته بمديرة المكتب السابقة ، حيث سرقت بعض ملفات خزانتها فى غفلة منها فنقلت بعدها إلى أرشيف المتحف لتجتر ذكرياتها ؟

تمتمت لنفسها وهى تضع صور الوثائق فى حقيبتها :

« أعرف كل الحيل القذرة التى ستلجئون اليها فالبنت الصغيرة التي انتقلت من مساكن الإيواء العاجل في زينهم لتصبح السيدة الأولى قد تعلمت الكثير ، وليست مستعدة لأن تتنازل بسهولة » .

✍ ✍ ✍

- ٣٨ -

تلقى الدكتور شوقى طلب استدعاء رئيس الجامعة له لمقابلته فى مكتبه بمشاعر مختلطة ، تتداخل فيها الدهشة والاستغراب والقلق وعدم المبالاة وحب الاستطلاع والضيق ، وقد برزت بعض هذه المشاعر فى ردود أفعاله الأولى حين علم بالخبر من بعض تلاميذه وزملائه قبل أن يبلغه به بشكل مباشر عميد الكلية من خلال مكالمة تليفونية مقتضبة أتبعها برسالة رسمية ، حتى لقد طاف بخاطر شوقى فى لحظة ألا يستجيب للدعوة ، ثم خطر له أن يستدعى أقرب تلاميذه إليه الدكتور شكرى توفيق ليتبادل معه الرأى ، وما لبث لقاؤهما أن فتح له بابا واسعاً تعرف من خلاله على شخصية الحقوقى البارز الذى يشغل الوظيفة الكبرى فى الجامعة .

قال شكرى ضاحكا فور مقابلته له وحتى قبل أن يضع يده فى يده :

- سترى نموذجاً أصيلا للبيروقراطى الذى يقدّس النص ، فعليك أن تقرأ القانون الإدارى ولائحة تنظيم الجامعات قبل أن تقابله .

فعقب شوقى متجهما :

- لست أفهم هذا الهراء فدعك من السخرية وتكلم بوضوح .

ومن خلال الوقائع والمعلومات التى سردها عليه بالتفصيل الممل تلميذه الأثير استطاع أن يكوّن صورة للرجل الذى لم يعرف عنه أبدا أي اهتمام بقضية عامة بالرغم من كونه رجل قانون ، ولم يكن له يوما اتصال مباشر أو غير مباشر بالتيارات الفكرية أو الاتجاهات السياسية ، وظل طوال حياته أسير القضايا الخاصة بزبائن مكتبه الذى اتسع كثيرا بعد توليه رئاسة الجامعة والتحاق عدد ضخم من تلاميذه به .

- ما تقوله ليس غريبا ، لكن كيف تولى إذن رياسة الجامعة ؟

فرد شكرى على سؤال أستاذه بما يشبه الاستغراب .

- ألا تعلم أنه ابن عم سيادة اللواء .
- ومن سيادة اللواء ؟

هل استفز شكرى السؤال حتى يجيب بغضب :

- إنه أحد المسئولين الكبار فى جهاز الأمن الخاص .

لم يفهم شوقى سر غضب تلميذه ، فتابع بهدوء :

- وهل هذا مبرر كاف ؟
- أكثر من كاف .

قالها شكرى بحدة من أزعجته غفلة أستاذه « *ألم يفطن بعد إلى متغيرات الواقع الذى يعيش فسيه* » ، وظل صامتا برهة أحس فيها أن واجبه أن يوقظ أستاذه من غفوة قد تضر فى لحظات فقال ليثير اهتمامه :

- الحق يقال ، لقد أثبت الرجل تميزا واضحا منذ توليه الرياسة .
- كيف ؟
- إنه أحد الذين يرون أن أى حق لابد أن يقرره نص ، فالحقوق محصورة فيما ورد به نص صريح فى القانون واللوائح ، وعدم وجود نص يعنى بالضرورة انعدام الحق

القانونى مهما ترتب على ذلك من نتائج ، وعبارته المأثورة التى يرددها دائما فى مناقشاته مع مخالفيه ويوقع بها قراراته تتمثل فى جملة واحدة : « *يلتزم بصريح النص* » .

قال الدكتور شوقى متعجبا :

- أمر مثير للسخرية .

فتابع الدكتور شكرى مؤكدا :

- وقد أثار بالفعل سخرية كثير من الحقوقيين الذين خالفوه فى الرأى ، ومع ذلك استمر فى موقفه بعد أن وجد أن هذا التفسير مفيد فى حظر أى نشاط فى الجامعة يربطها بقضايا سياسية لا ترضى عنها السلطات العليا ، ومهمة الجامعة عنده محصورة فى التعليم ، وهو لا يسمح لأى مجلس أو شخص أن يخرج عن هذا الهدف، ولايفتأ يردد فى مجالسه الخاصة والرسمية أن وظيفة الجامعات هى تعليم الشباب حتى يتمكنوا بعد ذلك من الحصول على عمل ، وعبارته المفضلة فى لقاءاته المحدودة النادرة باتحاد الطلاب : « *التعليم طريقكم إلى الطعام ، فتعلموا حتى تأكلوا* » .

وما كاد الدكتور شكرى يتم عبارته حتى أدركته نوبة مفاجئة من الضحك الذى أثار أستاذه فنظر إليه لائما وهو يقول :

- أمر يثير البكاء لا الضحك .

فرد شكرى وهو يمسح من عينيه قطرات فجرها الضحك وقال معتذرا :

- لو علمت ما تذكّرته لشاركتنى .

استمر أستاذه صامتا ، فمضى شكرى يتذكر ما أضحكه وقد اكتسى وجهه رداء يتجاذبه الضحك والأسى :

- فى بداية العام الدراسى تجرأ بعض الطلاب على التجمع تحت نافذة مكتبه وأخذوا يهتفون للقدس ، فأرسل إليهم من يقول لهم : يا أولاد ، لا تهتموا إلا بالتعليم حتى تخففوا عن آبائكم أعباءكم فلا تضيعوا وقتكم فى أشياء لا تفيد . فصاح بعض الطلاب معترضا : الخريجون فى الشوارع منذ سبع سنوات ، وعاد مندوب الرئيس لينقل إليه ما حدث ، وما كاد يسمع العبارة حتى انفجر هائجا كبركان قائلا : ما هذا الغباء ؟ وهل عملهم مهمتى ؟ ثم هدأ فجأة كما ثار فجأة كأنما أدرك أن فى عبارته مساسا بجهات أخرى وأضاف وكأنه يعتذر : على أى حال لا يوجد نص يوجب أن يعمل الخريجون فور تخرجهم من الجامعة .

عقب الدكتور شوقى بأسى :

- هذا إذن هو الرجل الذى يقود أكبر جامعات الوطن .

فرد شكرى كأنما يشاركه أساه :

- هذا هو الشخص الذى ستقابله غدا .

واستدرك ضاحكا ، ربما ليخفف عنه :

- ألم أقل لك فى البداية إن عليك أن تقرأ القانون الإدارى واللائحة قبل أن تقابله .

فابتسم الدكتور شوقى بمرارة وقال بسخرية وهو ينهض لمغادرة مكتبه فى الكلية :

- للأسف ليس لدى نسخة من هذه القوانين .

- ٣٩ -

- ألو

« *إنه صوته* » صدحت البهجة فى أعماق بشرى وأذنها تتلقى من السماعة الصوت الرخيم عوضا عن الرنين المعهود بعد انقطاع زرع فى روحها القلق وسقاه ومده وفرّعه حتى أثمر حيرة واضطرابا ، فقالت بلهفة فور سماعها الصوت :

- أخيرا ! أين كنت ؟

وصمتت تستمع بالصوت الذى مسته المفاجأة فبدا فى تعلثمه آية فى العذوبة .

- كنت مسافرا ، هل سألت عنى ؟

ردت بعتاب كأنما مسها لسؤاله غضب :

- اسأل نفسك ، ألم يكن بيننا موعد ؟!

فأجاب بصدق من أدرك خطأه :

- أسف جدا ، كان السفر ضرورة لا تحتمل التأخير .

بدلها أسفه فى لحظة فأدركتها رقة محب يعتذر عن نفسه لنفسه وقاطعته :

- أعرف أنه لا يحول بينك وبين موعدى إلا ضرورة فلا حاجة بك إلى الاعتذار ، المهم حمد الله على السلامة .

« تمقتين الثرثرة حتى النخاع فهى دليل فراغ العقل والزمن ، فكيف تتحول إلى متعة لمجرد أنه الطرف الآخر : أين كنت ؟ متى سافرت ؟ لماذا لم تبلغنى قبل أن تسافر ؟ لماذا لم تطلبنى فور عودتك ؟ هل الأهل بخير ؟ هل الأمور كما تحب ؟ » .

- أحمد ، لابد أن أراك فورا ، أشياء كثيرة حدثت وتحدث وأريد أن أعرف رأيك فيها .

- نفس شعورى ، عندى ما أريد أن آخذ رأيك فيه .

- إذن نلتقى غدا .

ويدركها صمت مفاجئ ، ألم ينبهها فى آخر مرة إلى تغيير أسلوب اللقاء ، فتضيف :

- فى أى مكان تحب .

- فى مكاننا المعهود ، فى المكتبة .

هل أدركتها الدهشة فتسأل ...

- ألم تكن تريد أن ....

فيقاطعها برقة :

- دعك من ذلك ، سنلتقى كما كنا نفعل .

« لماذا غيرت رأيك ؟ هل جدّ فى الموقف جديد ؟ هل أغضبك أنى لم أستجيب لك كما كنت تود ؟ لست ممن يحكمه ردود الفعل فماذا وراء موقفك الجديد ؟ حسبك ، هل ينبغى أن تستمرى فى قلقك سواء

وجدته أو لم تجديه ، ألا يكفى أنكما ستلتقيان ، حين تلتقيان ستعرفين كل شيئ ، ما كان وما سيكون » .

* * *

« عجيب أمر الزمن معك ، إنه يعاندك ، كيف يطول ويطول بغير نهاية ، ها أنت ذى للمرة الثالثة تستيقظين فإذا الزمن ثابت والساعة لا تكاد تتحرك ، وكأن عقاربها مشدودة إلى مكانها لا تبرحه ، ما هذا ؟ هل يمكن أن تكون الدقيقة أعواما والساعة دهرا والليلة أبدا ، فى القلب أشواق تتعجل اللقاء فلم لا يستجيب الزمن ، مخطئ من يظن أن الزمن ساعات ودقائق، الزمن وعى وإدراك وإحساس ويقظة ، قد تحمل الدقيقة عمر سنوات ممتدة بغير عدد ، وقد تصبح السنوات مجرد لحظة لا تدركها إلا الذكرى ، من لى بمعجزة تنزع من جوف الليل الشمس فتتوهج الدنيا بالنور ، من لى بمن يطوى زمنى حتى القاه » .

* * *

ما كادت بشرى تفتح باب حجرة أمها حاملة لها وجبتها الصباحية كعادتها قبل ذهابها إلى الكلية حتى اتسعت حدقتا عينيها دهشة ، لقد كان أبوها يجلس هادئا على حافة الفراش إلى جوار أمها مرتديا ملابس خروجه كاملة ، أربكتها المفاجأة حتى لقد اهتزت الصينية الصغيرة التى تحمل الطعام وانعقد لسانها فلم تستطع أن تلقى تحية الصباح ، إنها لا تستطيع أن تتذكر آخر مرة رأته فيها على هذا النحو فقد مضى على ذلك عهد طويل ، كما أنها المرة الأولى التى تراه فيها مرتديا ملابس الخروج فى مثل هذا الوقت من يوم الأحد ، فقطع أبوها الصمت وقال وهو يبتسم :

- ألا تقولين صباح الخير .

فتمتمت وكأنها لا تصدق ما ترى أو تسمع :

- صباح الخير

« ماذا فى نيتك أن تفعل ؟ هل تنتظر زائرا أو ستخرج ؟ ليس من عادتك أن تستيقظ يوم الأحد إلا فى الظهيرة فماذا وراء هذه اليقظة » .

هل ابتسم أبوها حقيقة أو كان ذلك ما تخيلته وهو يسألها :

- متى تذهبين إلى الكلية ؟

وهل كان ذلك الصوت الهادئ صوتها :

- بمجرد أن غير ملابسى .

- إذن سأنتظرك .

هل كانت الغرابة أو الشك فى معرفته بالأيام هى التى حملتها على أن تعقب :

- لكنك لا تذهب إلى الكلية يوم الأحد .

وهل أدرك ما وراء سؤا لها حين رد وهو يحدق في عينيها :

- عندى موعد فى الجامعة .

* * *

ما كادت تجلس إلى جوار أبيها فى السيارة الصغيرة حتى فتحت النافذة المجاورة لها عن آخرها ليتخللها الهواء فيزيل الرائحة الراكدة التى تحس لها بجيشان توشك معه أن تفرغ ما فى جوفها بالرغم من أنها لم تتناول فى هذا الصباح طعاما ، لكنه ما أن سار بالسيارة دقائق قليلة وأخذ هواء الصباح البارد يداعب وجهه حتى أحس بقشعريرة تتخلل جسده الناحل ، فمد يده تلقائيا وأغلق النافذة المجاوره له ، ولكن إحساسه بالبرودة لم يفارقه وكأنما كانت موجات الهواء الأولى تيارا اخترقه حتى

العظام ، فالتفت إليها فى نظرة خاطفة علها تفهم ، ولكنها كانت مستغرقة فيما أمامها ، فقال بصوت رقيق :

- هل الجو بارد ؟

فجاءه صوتها راضيا وكأنها تستمتع :

- بالعكس ، الجو جميل .

صمت قليلا قبل أن يقول بصوت مرتفع :

- أشعر بالبرد ، فلو سمحت أغلقى النافذة .

قالت وهى تدير الأكرة استجابة لطلبه :

- أرجو ألا تكون بوادر انفلونزا .

ولكنها - مع ذلك - لم تغلق النافذة تماما ، وتركت من الجزء العلوى مساحة كافية يدخل منها الهواء .

وشت نظرتها - منذ اللحظات الأولى لجلوسها فى السيارة - بالترقب ، إذ كانت تتوقع أن يستأنف أبوها ما كان بينهما من حوار عاصف امتد أياما ثم انقطع فجأة دون أن ينتهى إلى موقف واضح ، فليس من عادته أن يترك الأمور معلقة ، ولعلها ظنت حين حرص على أن يصحبها أن توصيلها مجرد غطاء لتتاح له الفرصة ليناقشها خارج المنزل بعد أن أحست فى آخر مرة تناقشا فيها أنه حريص علي آلا يشعر أمها بشيئ مما يدور بينهما ، وجاهدت نفسها حتى تستعد لتقبل ما قد يقول دون انفعال ، فلم تكن لديها الرغبة فى أن تدخل معه فى صراع فى هذا الصباح الذى أحست برغم توترها الداخلى أنه يحمل إليها شيئا من البهجة الخفية ، ولكنه لم يتكلم وظل صامتا معها ، ثم أخذ يكشف بكلماته الحادة التى يقولها لقادة السيارات فى الطريق عن غضب حقيقى ، لقد سمعت منه لأول مرة عبارات بالغة القسوة وهو الذى ما تعود أمامها أن ينطبق بكلمة نابية ، حتى أيقنت أنه يعانى ، وأدركها من أجله إشفاق حقيقى ، وهمت أن تفتح هى

الموضوع المعلق بينهما لتسترضيه ولكنها راجعت نفسها فى آخر لحظة ، لقد كان معنى ذلك أنها تستسلم لإرادته ، ولم يكن لديها استعداد مهما كانت الأسباب لأن تستسلم بحال ، لكن نظرتها المتجهمة ما لبثت أن أخذت تلين شيئا فشيئا ، لقد بدأ الطيف العذب يتخلل ما تراه فإذا هو قريب وكأنه يشكل كل ما أمامها ويتشكل كل ما أمامها فيه ، فأخذت ترقب كل شيئ صامتة تحاوره الأعماق المبتهجة به ، لقد وصل مبكرا عنها ، ولكنها ستفاجئه ايضا بوصولها مبكرة عن الموعد ، وحين يبدأن فى تبادل تحليلهما لمدى تأثر نضالهما المشترك بغيابه يومين كاملين ستكون الرسالة الرقيقة قد وصلت إلى كل منهما بكل ما يحفها من مشاعر أرق وأسمى من أن تنقلها كلمات .

التفت إليها مرة بعد مرة متأملا إياها وقد استغرقتها شواغلها التى لا يعرفها فكأنما أصابه صمتها بشيئ من خيبة الأمل ، لقد توقع أن تغتنم الفرصة فتتبادل معه حديثا يصل برقته ما انقطع ويمسح بشفافيته ما حدث ، ولذلك حين ظلت صامتة أحس فى صمتها بطعنة احتجاج رافض تركت فى الأعماق بصمة أسى ، هل وصلت العلاقة بينهما إلى هذا القدر من سوء الفهم ؟ ، إنها ليست المرة الأولى التى يختلف فيها معها ولن تكون الأخيرة فلم فى هذه المرة تتخذ هذا الموقف ؟ لقد كانت خلافاتهما دائما مصحوبة بذلك الإحساس الدافئ الذى يملؤهما برغم كل شيئ بالرضا ، وهو يقينهما بأن وراء اختلافهما موقفا مشتركا وحرصا مشتركا وحبا مشتركا وأنها خلافات كما علمها دائما فى نطاق التكتيك لا فى الاستراتيجية ، وهى ناشئة عن اختلاف التقدير لا عن سوء الفهم ، فلماذا فى هذه المرة تؤثر تجنب الحوار وكأن ما بينهما قد تقطّع ، أهو أحمد الذى منذ عرفته تزداد بعدا ؟! أو هناك جديد - فى أفكارها - لم يقف عليه بعد ؟ هل كانت حدّته معها سببا فيما حل بينهما ؟ على أى حال حين ينتهى من هذا اللقاء الذى لا يعرف ما وراءه سيفرغ لها ، ولن يستغرق إصلاح ما بينهما طويلا ، فهو يعرف حبها وتقديرها ، ولعل سبب تأثرها إحساسها بأنه كان فى الفترة الأخيرة يهون من قدرتها المستقلة على فهم الأمور واتخاذ الموقف المناسب فيها .

أوقف السيارة قبيل المدخل الرئيسى للجامعة ، فنظرت إليه متسائلة ، فقال لها برقة وهو يشير إلى بائع الصحف الذى افترش الرصيف :

- نأخذ الصحف .

فتلونت نظرتها بدهشة ، لقد ظل لفترة طويلة منذ بدأت الحملة المكثفة للتبشير بفترة الولاية الجديدة لا يهتم بمتابعة ما يدور من خلال الصحف مباشرة ، وإنما يعرف الأخبار المهمة من خلال موجز المساء فى الإذاعة العربية أو الموجز الانجليزى المبكر ، أضاف وهو يمد يده إليها بالصحف اليومية :

- يكفى أن تقرئى لى المانشتات فى الصفحة الأولى ، ودعك من الأخبار الداخلية .

وحين انتهت من قراءتها هز رأسه أسى ، فقد كانت كل الأخبار تتحدث عن المجاعة في موسكو ، وباكو ، والانتظار الطويل من أجل الحصول على شيئ يسد الرمق ، قالت وهى تطوى الصحف وتلقى بها على المقعد الخلفى فى غضب :

- انتشرت المجاعة من إفريقيا إلى الشمال فى الوقت الذى تلقى فيه ملايين الأطنان من المواد الغذائية فى البحر .

هل أحس فى عبارتها بشيئ من العجب اقتضى تفسيرا :

- موقف الغرب مفهوم ، وما يفعله سلاح من أسلحته للانتصار فى الصراع .

استدركت وكأنها تعترض :

- أمر غير مقبول أخلاقيا .

قال مصححا :

- هذه هى أخلاق الرأسمالية .

وسكت منتظرا تعليقها ولكنها آثرت الصمت فأضاف بغيظ :

- لكن الأمر غير المفهوم هو ما يجرى هناك ، فى الجانب الآخر .

استمرت صامتة ، هل كانت عازفة عن المناقشة أم تتأمل كلماته ، فقال بضجر :

– تلك الجماهير التى تعانى من الجوع ماذا يمكن أن تخسر إذا خرجت لتقاتل النظم التى أوصلتها إلى ما هى فيه .

هل كانت تشير إلى ما بينهما من خلاف حين قالت :

– تنتظر الجماهير دائما من يقودها .

وهل كان يحاول تبرير مواقفه السابقة لما عقب :

– يجب أن تكون حركة الجماهير قادرة على إفراز قياداتها .

– هذا دور المثقفين الثوريين .

فقاطعها بغضب :

– النضال الجماهيرى لا ينجح إلا إذا قاده مناضلون من داخله ، مناضلون يملؤهم الإيمان لا التشدق بالكلمات .

همت أن تقول له : *« ألم تكن تؤمن بالجماهير ومع ذلك تحسن الكلمات ، هل كنت متناقضا »* ..

وهم أن يضيف : *« لقد أثبتت التجربة فشل المثقفين الثوريين ، لقد خانوا قضية الجماهير خضوعاً لمؤثرات كثيرة ، بدءا من الظروف الخاصة وانتهاء بالاستجابة للتدمير الموجه من رأس المال وعملائه ، لقد تم استلاب وعيهم بعد استئناسهم وأصبحوا قططا أليفة تلعق الأقدام »* ولكنهما توقفا وقد أيقن كل منهما أنه أمام مزلق خطر . وصمتا برهة قبل أن تقول – كأنما تسترضيه :

– قرأت حديثا عبارة قالها رجل منذ أربعة عشر قرنا أظنها تؤيد رأيك .

استمر صامتا فأضافت :

- قال : عجبت ممن بات جائعا لِمَ لَمْ يخرج على الناس شاهرا سيفه .

صمت برهة متأملا قبل أن يعقب :

- عبارة تكشف عن ثورى حقيقى ، من صاحبها ؟

فابتسمت للمرة الأولى منذ ركبت السيارة وهى تقول :

- واحد اسمه علي بن أبي طالب .

وتابعت بنشوة من حقق انتصارا :

- هناك كثيرون على شاكلته ،وأنا أحاول الآن أن أكتشفهم .

تمتم وكأن الاسم لا يعنيه :

- هذه فائدة دراسة التاريخ ، ولذلك وافقت من البداية على أن تتخصصي فيه .

لكنه لم يسمعها وهى تستعد للنزول قائلة وقد اتسعت ابتسامتها :

- وهل التاريخ محصور فى الماضى وحده ؟

- ٤٠ -

كعادة الدكتور شوقى فى الالتزام الدقيق بمواعيده كان قبيل الساعة المحددة للقائه برئيس الجامعة بدقائق يجتاز باب حجرة السكرتير الخاص ويذكر له فور دخوله اسمه ووظيفته ، فنهض الرجل وتقدمه وهو يردد آليا عبارات التحية المألوفة ليفتح له باب حجرة الرئيس ، توقف الدكتور شوقى فى مدخل الحجرة لحظات وقد فاجأة المنظر غير المتوقع ، هل ما كان مسرفا في الخيال أم فى حسن الظن حين تصور أن الرئيس لابد ان يكون جالسا ينتظره ولذلك كان مفاجأة له أن يرى الحجرة الواسعة مملوءة بحشد من الرجال والنساء الذين ينتشرون فيها متخذين أشكالا مختلفة منهم من يجلس ومنهم من يقف ومنهم من يتحرك متنقلا بين الجالسين والواقفين ، وهم جميعا يتبادلون أحاديث وضحكات بأصوات كان وقعها فى أذنى الدكتور شوقى شديد الارتفاع يفتقد الوقار المتوقع للمكان والهدوء المفترض فيه . شق بصعوبة طريقة بينهم محاذرا أن يصطدم بالأقدام الممتدة والأكتاف المتحركة ليصل إلى الرئيس الذي كان متكئا باسترخاء فوق ذراع كرسى ضخم خلف المكتب في صدر القاعة ، واضطر أن يرفع صوته وهو يقدم نفسه له أكثر من مرة حتى يتغلب على حدة الأصوات والضحكات .

قال الرئيس بتلقائية من تعود آلا يلقى بالا إلى أسماء الوافدين عليه :

– أهلا يا دكتور ، تفضل .

وأشار بيده كأنما يطلب منه الجلوس ، فتلفت الدكتور شوقى حوله فلم يجد مكانا خاليا ، أمتد بصره يفتش عن مكان فالتقط كرسيا خاليا إلى جوار النافذة البعيدة فى الجانب الآخر من القاعة فسار إليه بتؤدة مضاعفة ، فرضتها – فوق العادة المألوفة – الحركات الفجائية للمنتشرين وقوفا من الرجال والنساء ، وما أن جلس حتى أقبل عليه الموظف الأنيق المكلف بخدمة المكتب مستطلعا رأيه فيما يرغب أن يتناوله من مشروبات ، فهز الدكتور شوقى رأسه وهو يلوح بيده رافضا ، ولكن الموظف ظل واقفا كأنه لم يفهم حتى أصابه وقوفه بنذر ضيق مبكر فاضطر شوقي أن يقول لمجرد الرغبة فى التخلص منه :

– أى حاجة .

سأل الموظف دون أن يتحرك :

– قهوة يافندم .

فعاد الدكتور شوقى إلى صمته وكأنه لم يسمع فتابع الموظف :

– مضبوط يافندم .

فهز رأسه دون أن تتحرك شفتاه وقد راحت عيناه تتأملان بإمعان ما يرى .

كانت القاعة برغم اتساعها تبدو مكتظة وقد امتلأت بقطع الأثاث الضخمة التى تنم عن أذواق مختلفة متنافرة ، وكانت الألوان الداكنة تتحالف مع الستائر السميكة المسدلة على النوافذ المغلقة فى إضفاء قدر من العتمة الضبابية التى لم تستطع تبديدها لمبات الفلورسنت المخفية في محاولة مبتذلة لنشر إضاءة داخلية متناقضة مع التكوين الكلاسيكى للحجرة ، وبدت الجدران العالية التى انتشرت فوقها صور الرؤساء كطفح جلدي مثيرة للتقزز ، أدركته كآبة حقيقية فأغمض عينيه لحظات ، ولكن ما لبث أن وجد نفسه يفتحهما محاولا تتبع مصادر ما يسمع من حوار ظل فى البداية غير مفهوم ، إلى

أن أدرك من العبارات المتقاطعة أنه يتناول أحداث مسلسل تليفزيونى أمريكي استنتج من المناقشة أنه ما زال يعرض ، وبدا له مما سمع من تعليقات ان الحاضرين يحفظون المسلسل عن ظهر قلب ، أحداثه وعباراته وحركاته وأزياء ممثليه ، فقد كانوا يتبادلون تصويب عبارة قيلت أو لفتة وقعت ، كما كانوا يعرضون لتفسير شخصياته وسلوكهم بعبارات يمثل الاستنكار إطارها الخارجي الذي يحمل في داخله انبهارا غير محدود ومتعة الحلم بالتوحد والحلول ، حمله ما يسمع إلى إحساس بالغربة ما لبث قليلا حتى أسلمه إلى شعور عميق بالدهشة عندما أخذ الحاضرون يتناولون بالتحليل ما تضمنه المسلسل من تجارب جنسية متنوعة دون أن يجدوا حرجا من وجود نساء في الجلسة ، وتوقع للحظة وقد رأى الرجال يمارسون باستمتاع فج العبارات الصريحة أن تنسحب النساء ، ولكنه – لعجبه – فوجئ حين رأى بعضهن يشاركن في المناقشة بصراحة مثيرة ، وأخريات اكتفين بالمشاركة بخجل مصنوع أكثر قدرة على التأثير بكلماته المقتضبة وضحكاته الموقعة .

– لكن مع ذلك العربي أحسن .

التفت كما التفتوا فوجد أحد الجالسين إلى جوار الرئيس قد بدأ يتحدث وقد غمرته النشوة :

– هل رأيتم ليالى الأنس أو عيد الميلاد .

تراوحت الاجابات بين النفى والإيجاب ، ولكنها أجمعت بأساليب مباشرة وغير مباشرة علي الحث على الكلام ، فالتفت الرجل إلى الرئيس مستأذنا :

– بعد إذن معالى الرئيس .

فأذن له بإشارة من يده ، وهو يبتسم قائلا :

– بشرط ألا تذكر المشاهد الخارجة .

فارتفعت بعض الأصوات كأنها تحتج ، وأضاف بعضهم مستظرفا :

- نحن جميعاً نرجوكم معالى الرئيس .
- ينبغى أن نتعلم شيئا .
- التعليم شعاركم معالى الباشا .

أشار الرجل بيده فلزموا الصمت وتوقفت الحركة انتظارا لحديثه :

- في ليالى الأنس كما في حفل عيد ميلاد الفنانة سحر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب واحد منكم .

كان يوقع كلماته بخبرة محترف مدرب على الاستيلاء على الأسماع ، وما لبث أن أخذ يصف المشاهد وصف من لم يعد يملك إلا متعة الكلام وقد فقد متعة الفعل . سأل الدكتور شوقى الموظف الذى حمل إليه القهوة مستفسرا :

- من هذا ؟

فنظر إليه مستنكرا جهله به :

- ألا تعرفه ؟ إنه أستاذ الشريعة وعميد كلية الحقوق .

شيئا فشيئا تحول المتحدث إلى فارس متمكن يمتطى كلماته ويحسن قيادها ويملأ بالالوان والظلال حناياها فتصبح الأحداث مجسدة فى العيون فتنتقل إلى حالة بين الحقيقة والخيال وتمس الحاضرين بوله من لايجد ووجد من يجد وتبدأ التعليقات تتوالي يعبر بعضها عن دهشة حقيقية ويبدى بعضها دهشة مصنوعة ولكنها لا تخلو من تسجيل الإعجاب الظاهر بالمتحدث والحديث وإن أضاف بعضها إليهما الإعجاب الخفى بالأحداث والمشاهد .

- لكننا لم نسمع رأى الدكتور .

صمت الدكتور شوقى فلم يكن يتخيل أن الملحوظة موجهة إليه ، وصمتوا وقد تحولت إليه نظراتهم فى انتظار رده ، فلما تبين أنه المقصود أحس بمهانة من تبادره داعر بدعوة آخر وهو بين فخذيها ، تحول إحساسه فى لحظة واحدة من الترفع

والاحتقار والتقزز إلى الغضب ، وتصاعدت الدماء إلى رأسه « *كيف يجرؤ هذا البغل المتد طولا وعرضا ؟ كيف تجرؤ هذه الهوام الجوفاء ؟ كيف تخيلوا أن* ... » نهض مربد الوجه وقد آذنت الثورة المكبوتة بانفجار غير محسوب ، هل كان رئيس الجامعة يرقب رد فعله أم كانت مجرد مصادفة أن يعاجله قبل أن يتكلم .

- ليس الدكتور فى حاجة إلى ابداء رأيه لأن رأيه معروف .

ونهض واقفا فنهض لنهوضه الجالسون ولكنه أشار إليهم ببقائهم كما كانوا وسار يتبعه عميد الحقوق إلى أن وصل إلى الدكتور شوقى فأمسك بساعده مبتسما وقاده إلى غرفة الاستراحة الخاصة الملحقة بالمكتب وهو يقول :

- أحب أن نجلس معا بضع دقائق .

والتفت إليه فور أن أغلق باب الحجرة الصغيرة عليهم وحتى قبل أن يجلسوا فى شبه زاوية منفرجة رأسها الرئيس :

- أظنك تعرف الدكتور عبد القادر ، عميد الحقوق والمستشار القانونى للجامعة .

هل كان الدكتور شوقى جادا أم ساخرا وصوته يحمل نغمة تشارك بسمته فى غموضها :

- تشرفت بمعرفته اليوم .

وهل كان الدكتور عبد القادر يبادله الإحساس حين قال موجها حديثه إلى الرئيس وابتسامة عريضة تملأ وجهه :

- أما أنا فأعرف الدكتور شوقى جيدا .

هل ظن الدكتور شوقى أنه يستدرك عليه لما قال بهدوء :

- أظن أننا لم نلتق من قبل .

أحس الدكتور عبد القادر بالرضا وهو يقول بثقة :

- وهل من الضروري أن نلتقي حتى أعرفك ؟!

هل فطن الرئيس إلى أن دلالة الحوار المركبة قرينة على وجود رغبة غير معلنة في مواجهة غير مطلوبة فأراد أن يقطع عليها الطريق ، أم أنه لم يكن يثق في قدرة أحد الطرفين على الاستمرار في اللعبة مما قد يسلم إلى إحساسه بضعف يفسد ما يريده من سلاسة اللقاء فشاء أن يطوي المرحلة حتى يظل كل منهما متوازنا ، فقال برقة :

- أنا سعيد جدا بهذا التقدير المشترك ، فكلاكما أهل له .

ثم نظر إلى الدكتور شوقي بإمعان وهو يضيف :

- لقد كنت حريصا على أن نلتقي معا من قبل فأنت واحد من الأساتذة المعدودين في الجامعة ، وواحد من قادة الفكر البارزين في الوطن ، ولكن ظروف العمل التي تعلمها لم تتح لي هذا اللقاء .

وتوقف برهة كأنه يستكشف رد فعل كلماته ، ولكن الدكتور شوقي لاذ بالصمت ، فأحس بأن التمهيد ما زال في حاجة إلى إضافة أخذ يفكر فيها ، وهو يمد يده بعلبة السيجار الهافاني قائلا :

- هذا النوع جديد بالتجربة ، وستجده ممتعا جدا فهو طازج تماما .

وابتسم ابتسامة واسعة وهو يضيف :

- إنه من المنتج إلى المستهلك رأسا ، فقد أحضرته معي في رحلتي الأخيرة إلى أمريكا اللاتينية .

قال الدكتور شوقي دون أن يحرك يده :

- لا أحب أن أغير .

وقال الدكتور عبد القادر ، وهو يتفحص سيجاره قبل أن ينزع غلافه :

- أظنه من كوبا .

فرد الرئيس ضاحكا :

- لا يفوتك شيئ .

وتابع باعتزاز :

- إنه من النوع الذى يشربه الرئيس كاسترو ، ولكنك لا تستطيع أن تجده فى كوبا نفسها لأنه إنتاج خاص للتصدير .

ظل الدكتور شوقى ينتظر ، ولكن حديث الرئيس امتد وتشعب دون أن تتضح ملامحه ، هل كانت وراءه الرغبة فى اكتشاف مفتاح مناسب أو الاستجابة التلقائية للأسئلة الاستطرادية التى يلاحقه بها الدكتور عبد القادر مظهرا اهتمامه ، فبدأ شوقى وقد تملكه الملل يفقد حماسه للإصغاء وإن لم تبدر منه بادرة تشى بانصرافه عنه ، وأخذ يمارس هوايته التقليدية في تحليل النمط السلوكى للشخصية وإعادة تشكيلها على نحو يتسق مع ما يراه من خصائصها « ***ماذا كان سيصبح الرئيس لو لم يضل طريقه إلى الجامعة*** » ؟ شدته حركة اليد ونغمة الصوت وإشارة الحاجب ، وغمزة العين وصبغة الشعر ولزوجة التعبير وسطحية الإدراك ، فانتهى إلى أن الرجل كان مؤهلا لوظيفة واحدة ما كادت تتبلور فى ذهنه حتى ابتسم راضيا : « ***لو كان خياط سيدات لعله كان سيصبح أكثر فائدة*** » .

ربما كانت البسمة المفتاح السحرى الذى يبحث عنه الرئيس إذ فسرها على أن الدكتور شوقى صار أكثر استجابة بعد القدر الكبير الذى رواه من الطرائف وأنه لا حرج بعد ذلك من الانتقال إلى بعض الموضوعات الأساسية :

- أنا من المقتنعين بأن للديمقراطية سلبياتها ، وأظنك معى فى ذلك .

هل مسته العبارة بغضب أم هزته فكرة أن يكون فى خندق واحد مع سلطة لا تحظى بالاحترام طارت البسمة التى رفت على الشفاه التى أخذت شكلا صارما وهى تلفظ كلمة واحدة :

- كيف ؟

مضى الرئيس متلطفا مؤثرا أن يمثل بمشكلة عملية بدلا من الدخول فى متاهة نظرية فربما توصل إلى فهم كامل وتعاون منشود :

- مثلا فى الترشيح لجائزة ما نبدأ من الأقسام فالكليات ، ونحن فى الجامعة لا نفعل أكثر من تأييد ترشيح بعض الكليات ، وقد لا يكون ذلك صوابا بالرغم من أنه الأسلوب الديمقراطى .

- لماذا ؟

- لأن من الجائز أن يكون هنالك آخرون أكثر استحقاقا للجائزة لم ترشحهم كلياتهم لسبب أو لآخر .

صمت الدكتور شوقى فتابع الرئيس :

- لذلك يجب ما دمنا حريصين على الديمقراطية أن نتجنب سلبياتها .

تساءل الدكتور عبد القادر باهتمام :

- ماذا تقترح معالى الرئيس :

فأجاب بهدوء :

- لم أنته إلى تصور محدد بعد ، لكن لابد أن تكون هناك وسيلة لتجاوز آراء الكليات فى مثل هذه الموضوعات .

وصمت برهة كأنما يفكر قبل أن يسأل الدكتور عبد القادر :

- هل فى اللائحة نص يوجب على الجامعة أخذ رأى الكليات .

فرد الدكتور عبد القادر بتلقائية :

- طبعا ، النص صريح .

قال الرئيس بصوت داخله الحزن والحزم والأمل :

– إذن لابد من تغيير النص ، اكتب هذا ضمن مقترحات الجامعة فى هذا الشأن .

فعقب الدكتور عبد القادر بهدوء الواثق :

– ربما لا نكون فى حاجة إلى تعديل النص يا معالى الرئيس .

– كيف ؟ .

– لأن النص وإن أوجب أخذ رأى الكليات فإنه لم يوجب الأخذ بهذا الرأى .

قال الرئيس ضاحكا كشأنه حين يريد أن يمنح نفسه فرصة أوسع للفهم :

– قدم مذكرتك التفسيرية .

قال الدكتور عبد القادر وهو ينفث دخان السيجار باستمتاع المعلم :

– لأن أخذ الرأى يعنى الاستطلاع ، فهو نوع من التعرف على الآراء ، ولايقتضى معرفة الرأى وجوب الأخذ به . وبالتالى إذا كان من الواجب أن تأخذ الجامعة آراء الكليات فى قضية ما فإنه ليس واجبا عليها أن تلتزم بآرائها ومن حقها أن تقرر ما تراه وإن كان مغايرا لما رأته الكليات مجتمعة .

عقب الدكتور شوقى وقد أصابته الدهشة :

– هذا رأى عجيب .

وعلق الرئيس برضا :

– هذا تفسير جيد .

فقال الدكتور عبد القادر بسعادة مظهرا تواضعا زائفا :

– أنا لم أضف شيئا من عندى ، إننى ألتزم بظاهر النص .

تساءل الرئيس :

– لماذا إذن كنا نلتزم بما يرد من الكليات ؟

فقال الدكتور عبد القادر :

- لأنها التقاليد الجامعية .

أحس الدكتور شوقى بقشعريرة تخترق جسده ولكنه تماسك ليقول كأنه يعترض :

- للتقاليد أيضا قوة اللائحة .

فقاطعه الدكتور عبد القادر :

- بالطبع لا .

فتابع الدكتور شوقى وقد اربد وجهه :

- إنها على الأقل تفسر ما قد يكون من غموض في نصوص الائحة .

أشار الرئيس بيده قبل أن يفتح الدكتور عبد القادر فمه معترضا ليقول وكأنه يحسم ما بينهما من خلاف :

- لكل تقليد دائما سابقة يبنى عليها ، ومن حقنا أن نضع سابقة تكون أساسا لتقليد جديد ما دام ليس هناك نص يمنع من ذلك .

تابع الدكتور شوقى ما دار وقد انتابه مزيج من مشاعر الترفع والاحتقار والحزن والألم والأسى واليأس ، وما لبث أن استغرقه السؤال : « *ماذا يريد هذا الرجل ، إنه بالقطع لم يحضرك إلى هنا لمجرد أن يسمعك هذا الهراء ؟* » .

أضاف الرئيس :

- لو كنا قد انتبهنا إلى ذلك فى الوقت المناسب لكان لنا موقف آخر .

والتفت إلى الدكتور شوقى مبتسما فى مودة ، ولكن شوقى ظل مستغرقا فى تفكيره دون أن يبدو عليه استجابة ، فتابع الرئيس وكأنه يحثه :

- أتعرف يا دكتور ، حين وصلتنى الترشيحات هذا العام ولم أجد اسمك استغربت ، ولكن العميد أبلغنى بأن الكلية التزمت بقرار القسم .

وصمت مستطلعا وقع كلماته ، فلما لم ير لها تأثيرا أضاف وهو يحدق في عيني الدكتور شوقي :

– بوسعي الآن أن أعرف مرشح الجامعة لنيل جائزة الدولة التقديرية في العام المقبل .

فحت أذنا شوقي بالنار كأنما مستهما أفعى ، وجاست العينان فلم تريا الوجه الذي فاض بشرا إذ تلقتا عوضا عنه قناعا منحوتا من حجر صلد ، كيف لم يفطن طوال الجلسة إلى الشبه الواضح بينه وبين كمال البرغوتي ، وعاد من جديد السؤال القديمة ماذا يريدون برشوتهم الرخيصة ؟!

نظر الدكتور عبد القادر إلى الدكتور شوقي بإمعان ، هل كان ما لاح في عينيه حين رأى وجهه ينضح بالعرق لمحة شماتة أم ازدراء : « *إنه يمارس معك لعبته الأثيرة التي يخطم بها الناس من أنوفهم ، الوعد الواضح الغامض بحسب الطرف الذي ينظر إليه ، ستتصور أيها الأحمق أن ترشيحك قد أصبح أمرا واقعا لا ينقصه إلا الزمن ، ولن تعلم أنها مجرد كلمات بلا معنى إلا إذا سعيت عاتبا كما فعلت أنا من قبل في منصب النائب لتعرف أنك أنت الذي أساء الفهم ، وأنه لم يكن قط وعد صريح ولا غير صريح* » .

أخرج الرئيس ولاعته الذهبية وأشعل سيجاره من جديد واضعا ساقا على ساق ، وهو يرسل إلى الدكتور شوقي نظرة إشفاق : « *لا تحاول المقاومة فليس هناك من يستطيع أن يقاوم ، إنك تعاني من الرفض والتجاهل والإحساس بضياع العمر سدى وليس أمامك إلا الطعم لتأكله بعد أن جفت بحيرتك الراكدة* » .

نهض الدكتور شوقي وهو يقول كأنه يستأذن :

– سيادة الرئيس يسعدني حقا أن أشكرك لأنك أتحت لي فرصة معرفتك عن قرب .

فأشار إليه الرئيس بيده ليجلس وهو يقول بآلية :

– وأنا أيضا سعيد لأنى عرفتك .

« هل استدعيتك لأقول لك هذا الكلام ، إنك لأحمق حقا » ، وجالت فى خاطره فكرة حملته على الابتسام : *« لقد أخل الطعم بقدرته على التفكير وما علينا إلا أن نواصل ، فاللحظة مناسبة »*.

قال الرئيس :

– هناك بعض الموضوعات التى أريد أن آخذ رأيك فيها .

– تحت أمركم .

« أخيرا ، اكشف عن أهدافك » .

– سأكتفى فى هذا اللقاء بموضوعات أولادنا من الطلاب والمعيدين وأنت تعلم أن الجامعة لا تقصر فى حل مشكلاتهم .

– . . .

« أعرف ، فقد رفعتم رسوم الإقامة فى المدينة الجامعية عشرة أضعاف » .

– نحن نمنح مساعدات مادية وعينية .

– . . .

« لن تستخدمونهم عيونا » .

– ونعطى دعما للكتاب .

– ...

« للمقربين » .

- وتشجع النشاط الرياضى والاجتماعى .
- . . .

« *الصفوة* » .

- ونسمح لهم بممارسة النشاط الثقافى .
- . . .

« *باستبعاد المثقفين الحقيقيين* » .

- ومع ذلك توجد مشكلة تطرف بعض الطلاب والمعيدين .

واستدرك الرئيس ليصحح :

- صحيح أن القاعدة سليمة ، لكن توجد قلة منحرفة وهى قادرة برغم قلتها على الإثارة والتهييج .
- . . .

« *ليت أحدا يستطيع بعث الحياة فى الأغلبية الصامتة ، إنها ميتة* » .

- نحن نعرفهم جميعا ، ونستطيع عقابهم .
- . . .

« *طبعا ، ألستم سدنة القانون* » .

- لكننا حريصون على مستقبلهم ، لأنهم فى النهاية أولادنا .

أخذ الرئيس نفسا عميقا من السيجار احتفظ بدخانه فى فمه يلوكه بلسانه قبل أن يطلقه باستمتاع ظاهر ، ثم نظر إلى الدكتور عبد القادر كأنه يسأله :

« *هل وصلته الرسالة أم تحتاج إلى إيضاح* » فاستجاب الدكتور عبد القادر وبدأ يتكلم بثقة من يشرح حيثيات حكم تم إصداره بالفعل :

- أنا من رأيي معالي الرئيس أن نفرق بين الطلاب والمعيدين فالطلاب يمكن فصلهم طبقا للائحة دون مشاكل قانونية ، وهم في الحقيقة لا يستحقون غير الفصل ، لأن معظمهم حثالة من بيئات اجتماعية منحطة ومن الخطأ فعلا أن يستمروا في الجامعة ، لكن أمر المعيدين مختلف ، لأنهم معينون ، وبالتالي فإن فصلهم يحتاج إلى إجراء قانوني طويل نسبيا .

تساءل الرئيس مع أنه يعلم ما سيقال :

- كيف ؟

- إنهم جميعاً طلاب دراسات عليا يحضرون لدرجات علمية إذا لم يحصلوا عليها في وقت محدد فصلوا من وظائفهم ، والحل هو ألا يحصلوا على هذه الدرجات في الوقت المحدد .

تساءل الدكتور شوقي مستنكرا .

- كيف ؟

فبادره الدكتور عبد القادر بسؤال بدلا من أن يجيبه :

- هل أنت راض عن المستوى العلمي للباحثين الآن ؟

والتفت إلى رئيس الجامعة وأضاف :

- مستوى الباحثين الآن ردئ جدا ، ونحن نجيز معظم الأعمال رأفة بهؤلاء الأولاد لا لأنها تستحق . ولكن ما من عمل علمي - حتى وإن كان مكتملا - إلا يمكن إعادة النظر فيه وإعادة صياغته أكثر من مرة ، والمسألة كلها بيد المشرف ، وهو لن يفعل أكثر من الالتزام بالقيم العلمية .

هل أغرت الرئيس نظرة الرعب في عيني الدكتور شوقي فظن أن الثمرة دانية ليس بينه وبينها إلا خطوة يخطوها :

- هذا إجراء طويل ، ثم إنه يفقد عنصر الردع .

وهل كان الدكتور عبد القادر يطمع فى أن تكون كلمته هى التى تسقط الثمرة لما أضاف :

- أمامكم معالى الرئيس إجراءات أسرع من خلال عمليات الجهاز الخاص .

كيف وقف الدكتور شوقى دون أن يشعر ؟ كيف عرف طريقه إلى الباب وقد فقد الإحساس بالمكان ؟ كيف استطاعت أذنه أن تلتقط كلمات الرئيس وقد أدركه الغرق ؟

- لا تنزعج فبشرى مازالت بعيدة عن الخطر وإن كانت فى حاجة إلى أن تقرص أذنها حتى لايورطها هؤلاء السفلة .

✍ ✍ ✍

- ٤١ -

ظلت بشرى مشدودة إلى مدخل قاعة المكتبة وهى جالسة فى مكانها المألوف ، لا تكاد تقرأ بضع كلمات فى الكتاب الذى أمامها حتى تنتقل عيناها لا إراديا إلى المدخل آملة أن تصافح وجهه ، إلى أن داهمها لفرط توترها القلق ، فأخذت تراوح النظر مضطرة بين المدخل والساعة والكتاب ، لم يكن قد مضى بعد الموعد المحدد إلا دقائق قليلة ولكن القلق أخذ يعصف برأسها حتى اضطرت أن تنحنى على المنضدة أمامها واضعة ساعدها تحت ذقنها مركزة بصرها فى المدخل لئلا تتحول عنه . . . لقد تأخر ... هذه هى الحقيقة التى عليها أن تواجهها ، كان من عادته ألا ينتظر حتى يحل الموعد بل أن يسبقها إليه ، حتى حين كانت تقرر بينها وبين نفسها أن تسبقه كانت تفاجأ به قد سبقها ، تراه منذ اللحظة الأولى التى تخطو فيها من الباب جالسا فى موقعه المعهود ينتظر ، لماذا تغيرت هذه المرة عادته فلم ينتظر ؟

« لابد أن يكون أمرا خطيرا هو الذى أخره ، أمر لا يستطيع دفعه عن نفسه ... إذا كان الخطر يحف بك فأنا شريكتك ، فلا تحاول بغيابك عنى إبعادى عنه فسأكون معك فى القلب منه ... الآن فقط لا مفر من أن تعترفى لنفسك دون تردد ، إنكما شيئ واحد ... تواجهان

معاً وتحلمان معا وتفكران معا ... الخطر حولك يمسنى مهما نأيت عنى ... لا أتصور أن تتأخر عمدا وفى وسعك الحضور دون عائق ... هل يعقل أن تفعل انت ذلك ... كلا ... مستحيل . تلك تفاهة تحتاج إلى فراغ وقت ونفس ... وأنت مشغول طول الوقت بالقضية المشتركة التى نحارب من أجلها ... وحتى لو كان ذلك ما فعله فما الضمير فيه ... الا يدل على رغبته فى أن تعرفى حقيقة مشاعره تجاهك ... الا يعنى أنه يريدك أن تحسى به وقد أحس بك ، أن تحتويه فى أعماقك وقد احتواك ، أن تتشرنق مشاعرك حوله ... إنه لم يصرح لك بشيئ أبدا إجلالا فلا أقل من أن يتخذ وسيلة أخرى ... هل تلومينه وهو الذى لم ينظر إليك نظرة واحدة تثير الخجل ، ولم يقل أمامك كلمة واحدة تخلو من الاحترام ... حتى لو تأخر بإرادته هل كان أمامه سبيل آخر للتعبير عن نفسه ... آه أيها العزيز ... لقد وصلت رسالتك ... احضر وسترى أنه لن يمنعنى شيئ أبدا من التصريح لك ».

الانتظار قطعة من العذاب ، وانتظار ما نحب هو العذاب نفسه ، تمضى اللحظات ثقيلة بطيئة تحرق القلب جزعا وتملأ النفس كآبة وتزيد العقل ارتباكا ... فلتذهب ... فلتبق ... فلتقرأ ... فلتتذكر ما كان ... فلتتأمل ما يمكن أن يكون . .. لاشيئ أبدا يمكن أن يعوضنا عن رؤية من نحب ، مجرد احتمال الحرمان منه يشعل الرغبة العارمة فيه ، فإذا هو وهج الحياة ونورها ، بدونه تطبق الظلمات ، ومن غيره يكون الجنون .

– أسف جدا .

ارتفعت العينان الباسمتان تحتضنان الوجه الرقيق وهما على وشك أن تتصنعا نظرة عتاب ، وأوشكت الشفاه العطشى للحوار أن ينهمر من بينهما كلمات سخط مفتعل ، لكنها توقفت فجأة ، فقد راعها الوجه الممتقع والنظرة الزائغة والعرق الغزير والأنفاس المضطربة ، قالت بلهفة :

- ماذا حدث ؟

- لاشيئ .

قالت عيناها : « لماذا تكذب ؟ » ونطق لسانها :

- هل تظن أنني لست أهلا لتحمل المسئولية ؟

- أبدا

تابعت بنبرة يشوبها العتاب والحزم :

- هل ترانى طفلة صغيرة يجب أن تخفى عنها الأنباء السيئة ؟

رد مؤكدا :

- ليس الأمر كذلك .

مضت وكأنها تقرره :

- أليس من حقى أن أعرف كل شيئ ؟

أجاب وكأنه يبرر موقفه :

- بلى ولكن أريد أن أجنبك متاعب لا داعى لانغماسك فيها .

ردت بغضب :

- هذه محاولة لتهميش دورى وأنا أرفضها .

قال مفسرا يسترضيها :

- موقفى نابع من حرصى على ألا أزعجك .

فاستمرت فى غضبها .

- كحرص الأم على طفلها ، ذلك معناه أن ما بيننا ما زال غير قادر على مواجهة العواصف ، خسارة أن يكون هذا رأيك .

صمت وقد مسّته الكلمات فأحس لوقعها بوخز ، هل يقول لها ؟ « *ألا يكفيها ما تتحمله من عناء ؟ ما ننبها حتى يثقل كاهلها بمزيد من الأعباء* » .

قالت كأنما تحثه على الكلام :

– ألا تدرك أن علاقتنا قد تجاوزت هذه المرحلة ، لقد جرت فى النهر مياه كثيرة كما يقول المثل .

قال باقتناع :

– هذا رأيى .

مضت برقة وكأنها تعترف لتشجعه :

– أتعرف ... فى البداية كان تصورى أن كل ما بيننا أننا نكوّن جبهة ... نوعا من التحالف المرحلى لتحقيق هدف معين ، ويبقى لكل منا ثوابته ، منهجه وتفكيره ومنطلقاته ، ولكن الإضافات الكمية أسلمت دون أن ندرى إلى تغير كيفى .

نظر إليها مستطلعا ، لو كان فى ظل ظروف نفسية أخرى ربما دفعته كلماتها إلى التهكم ، لكنه لم يستطع إلا أن ينتظر ، فتابعت :

– الأيام القليلة الماضية جعلتنى أدرك حقيقة لعلها كانت مفاجأة لى ، وإن كنت أظن أنها مفاجأة لك .

استمر صامتا ينتظر ، فأضافت بخجل غير معهود استشعره فى نظرة عينيها ونبرة صوتها وشحوب وجهها :

– لقد تجاوزنا مرحلة التحالف ، لم يعد ما يربطنا مجرد الهدف الواحد ، أصبحت على يقين من أننا صرنا نصدر عن إيمان مشترك .

ظل صامتا يجيل فى رأسه الكلمات منتظرا المزيد . لكنها توقفت كأنما مسّها غضب .

همّ أن يقول لها : « *لم أفهم* » فلم يكن مستعدا لأن يتصور أنها قد اقتربت بالفعل ، كان اقترابها أكبر من أحلامه ، وأسرع من أن يصدقه .

وهمّت أن تقول له : « *ماذا لا تفهم ؟! ، لايخونك ذكاؤك أبدا فلماذا يتخلى اللحظة عنك ؟! ، أو أنك تستمتع بما تسمع فترغب في سماع المزيد منه ؟! كلا لن يكون* » .

قطعت الصمت لتقول وكأنها تغير الموضوع :

- هل مازلت مصمما على ألا تقول لي ماذا جرى .

رد كأنما يهيئ نفسه لاعتراف :

- لا أحب أن أضايقك بمشكلاتي .

ارتفع صوتها وهي تقول بحدة من يعاني غيظا مكتوما :

- ثانية ؟ تكرر عبارتك ولا تحس بالخطأ مرة أخرى ؟ بعد كل ما قلت ؟ .

هل تعجلت ؟ هل أصابته حدتها فاستنكف أن يعترف بضعف ؟ قال وقد تشبث بالهدوء حتى لا يكشف انفعاله :

- ليس رجلا من يحمّل غيره أعباءه .

قالت وقد تملكها الغضب :

- هكذا إذن .

وصمت برهة قبل أن تضيف :

- لن أسألك عن شيئ ، ولكني مستعدة أن أسمع ما عندك إذا أردت .

ظلا صامتين فترة خالتها أمدا طويلا ، آملة أن يتغلب على نفسه فيتكلم ، وكانت به حاجة لأن يفتح قلبه فيتكلم ، لكنه كان يفكر : من أين يبدأ . كانت نفسه تموج بالمشكلات المتداخلة ، ولم يتعود أن يترك نفسه علي سجيتها ، لقد حكمته دائما رغبته في أن ينظم

فكره وينسق أخباره ويصوغها فى عبارات دقيقة تشف عن تماسك نفسى مهما كانت الضغوط والمخاطر ، لكنه فى هذه اللحظة غير قادر على ذلك ، فكيف له أن يتكلم .

هل تعجلت حين نهضت قائلة وفي صوتها عتاب حزين :

- أنت تعرف أين ستجدنى إذا أردت أن تتكلم معى .

وسارت بخطوات قصيرة شديدة الهدوء هل كانت تحاول أن تخفى بمبالغتها فى الهدوء المشاعر المتباينة التى تأجج في الأعماق نارها ؟

- ٤٢ -

التفت ماهر متأففا وهو يخوض فى مياه المجارى الراكدة محاذرا أن يصيبه رذاذ الأقدام وسأل حامد فى ضجر :

- المكان بعيد ؟

فرد حامد مهونا :

- مسافة قصيرة .

قاطعه ماهر :

- من نصف ساعة وأنت تقول مسافة قصيرة ومع ذلك ما زلنا نخوض فى هذا المستنقع .

قال حامد محاولا تهدئته :

- بضع دقائق نجتاز فيها حارة الششنجى فنجد أنفسنا فى درب ملوخية . وفى آخره مباشرة زقاق عجور الذى تتوسطه القهوة .

زفر ماهر مغيظا فليس أمامه سبيل إلى التراجع وقد شارف الوصول إلى الهدف ، ولكن المسافة امتدت تحت وطأة الحركة الحاذرة والخطوات القصار ، فشرع ماهر من

جديد يبدي ضيقة بصوت مسموع وقد بدأ ينمو فى أعماقه سخط على مرشد رحلته ، الذى ما كاد يسمع رغبته فى أن يقابل مصادر معلوماته حتى تلقف الفكرة ليحضره إلى هذا المكان القذر ، وما لبثت دائرة السخط أن امتدت ونمت « *هؤلاء المحررون أوغاد ، لاتكاد تطلب من أحدهم شيئا حتى يتفان فى حملك على دفع الثمن بشكل غير مباشر ، بدءا من رغبته فى نشر اسمه على الأخبار التى يقدمها أو التعليقات التى يكتبها إلى كلمات التقدير التى يستجديها ، وحين يعجز يظل يتأوه ليشعرك بمدى ما يعانيه ... والآن هذا الحيوان يجرك وسط الحوارى والأزقة الغارقة فى محيط المجارى البشع ليفرض عليك الاعتراف بجهوده* ».

انفجر غيظا إثر ضربة قدم غير محاذرة تركت على بنطلونه آثارا مباشرة :

- ألم تكن تستطيع أن تجعل اللقاء فى مكان آخر ؟

مست أعماق حامد نسمة من الراحة برغم الرائحة : « *ألا تحتمل أن ترى مرة واحدة مدى كما نعانيه* » ورد بهدوء :

- لقد رفض تماما .

وتابع كأنما يسرى عنه :

- فى أول الشهر كنت فى الأسكندرية لأحضر مهرجان الأفلام التسجيلية ، وقد اضطررنا لكى نصل إلى السينما المقام بها المهرجان أن نعبر وسط أمواج متلاطمة من مياه المجارى .

زفر ماهر فاستمر حامد :

- من حسن الحظ أنه لا تمر هنا سيارات ، لك أن تتصور حالنا أمام السينما ونحن ننتظر كبار المسئولين وسيارات الحراسة تسير بسرعتها المعروفة لتغرق الواقفين .

وضحك بسعادة حقيقية وقد تذكر ما حدث فصاح به ماهر مؤنبا :

- هل قلت ما يضحك ؟

رد ماهر وكأنما استسلم لما تراه ذاكرته :

- أعترف لك . . . لقد فكرت ساعتها ماذا يحدث لو أن أحد الكبار سقط ولم تحمله قدماه ، وانفجرت فى الضحك وأنا أتخيل المنظر .

قاطعه ماهر مغضبا :

- اطمئن ، أنا لا أسقط أبدا .

فاستدرك حامد وقد أدرك المطب الذى وقع فيه :

- كنت أتحدث عن الاسكندرية لا عن حارة الششنجى .

وتابع فى سره : « *تتوهم أنك لم تسقط بعد ، ما الذى إذن رفعك ؟* » وآثر الصمت حتي لا يفلت لسانه بخطأ غير مقصود . واستكان ماهر للصمت تعبيرا عن رفضه واستعلائه معا حتى أشار حامد إلى مصباح مضاء بعيد وسط الظلمة المحيطة به من كل جانب وقال :

- لقد وصلنا .

فأخذ ماهر يركز بصره علّه يتبين ما في نقطة الضوء وقد أخذ يتضح شيئا فشيئا بتتابع الخطوات .

* * *

لم يتمالك لاعب الطاولة المنهمك نفسه بعد أن وافاه الزهر بلعبة غير منتظرة فصاح مبتهجا :

- هَبِيك .

ولم يفطن فى غمرة انفعاله إلى من وقف بجواره يتأمله ، ولما شرع فى تحريك قشاط الطاولة تلقت أذناه فيما يشبه الهمس وكأن شخصا يخاطب نفسه :

- أنت أنت لم تتغير .

فأكمل تحريك نشاطه والصوت يترك فيه أثرا غير واضح ، إنه مألوف وغير مألوف ، فالتفت يستكشف المتكلم وما كاد يتبينه حتى غمرته الدهشة فصاح وهو جالس في مكانه :

- مَنْ غير ماهر الجندي يستطيع أن يقولها .

وسلم عليه بحرارة ، ولكنه ما كاد يفلت يد ماهر ليسلم على حامد شكري حتى قال :

- لكن أحكامك أصبحت متسرعة .

فعلا وجه ماهر امتعاض ظاهر ، هل تجاهله الرجل امتعاضه أو لم يفطن إليه وهو يصفق طالبا كراسي لضيوفه البارزين ، الذين ما أن أجلسهم حتى شرع يتحدث متناسيا من حوله كأنما أعادته رؤية ماهر الجندي إلى دوره الأثير في حلقة التثقيف في ذلك العهد القديم :

- علميا لا شيئ يثبت على حال .

عبس حامد شكري وعقد ما بين حاجبيه دهشة ، وأحس بأنه شخصيا على مشارف أزمة غير متوقعة ، لقد كان واضحا أن الرجل لم يستقبل ماهر بما يستحقه من احترام يليق بكاتب لامع تتابع أجهزة الإعلام نشاطه ، وأسلمته خبرته بتفكير أستاذه إلى أنه سيحمله النتيجة وسيجعله دون أن يصرح له بشيئ يدفع الثمن مضاعفا ، مرة لأنه كان السبب في حضوره ، ومرة لأنه شهد بنفسه هذا الاستقبال ، فأخذ ينقل بصره بين الرجلين قبل أن يقول وكأنه يعتذر :

- لم يخطر ببالي أبدا أنكما تعرفان بعضكما .

ونظر إلى أستاذه وهو يضيف :

- لم يقل لي الأستاذ فضل إنه يعرفك معرفة شخصية .

قال فضل مبتسما :

- ربما لو قلت لك لما أسعدنا الأستاذ ماهر بحضوره الليلة .

ورد ماهر بسرعة :

- بالعكس ، يسعدنى أن أقابلك .

والتفت إلى حامد وقال بأناة من يختار كلماته بدقة غير عادية :

- الأستاذ فضل مناضل قديم لا يجهله أحد ، وهو جزء من تاريخ هذا الوطن . وأنا سعيد جداً لأنك توصلت إليه .

لماذا عقب فضل بضحكة مترعة بدلا من أن يتظاهر بالخجل وهو يستمع إلى الكلمات ، هل نكرته بالرشاوى اللغوية الصغيرة التى كان ماهر ينفقها بسخاء فى حلقات التثقيف حتى يغضّوا الطرف عن سطحية وعيه . وقال بصوت موشى بسخرية لا يدركها إلا خبير :

- لماذا لم تكمل ؟ هل نسيت أننى أنا الذى جندتك ، وأننى أنا الذى عمل على تصعيدك .

والتفت إلى حامد وهو يضيف :

- الأستاذ ماهر كان أحد الرفاق المهمين قبل أن . . .

وصمت لحظات قبل أن يقول :

- قبل أن يأكله الذئب .

وصدحت من جديد ضحكته مجلجة ، فصرخ حامد دهشة :

- الذئب .

وانتابه فور سماعه صوته إحساس بالكآبة ، فقد أدرك أنه وقع فى خطأ لم يغتفره لنفسه ، وظل طوال الجلسة نادما عليه ، لقد كانت كلمته المفتاح لم يتردد فضل فى استعماله:

- كانت لدى مؤشرات على أنك توشك أن تسقط بين براثنه ولكن ....

وصمت من جديد فتمنى حامد أن يغير الموضوع ، بعد أن رأى الانفعال واضحا على وجه أستاذه ، ولكنه تابع :

- ماذا أقول . . . لقد كنت محسوبا علينا .

وأضاف بأسى :

- ربما لو كنت نبهت إلى توقعاتى ولم أهملها لما حدث ما حدث .

وتوقف لحظات ساد فيها بينهم صمت ثقيل تعددت أسبابه ، صمت حامد دهشة ، وصمت ماهر حيرة ، وصمت فضل حزنا ، لا يقطع الصمت إلا صوت كركرة الماء في الشيشة التي شد منها نفسا طويلا أعقبه بكحة متتابعة اهتز لها صدره ولكنها لم تمنعه من أن يقول :

- على الأقل لما حدث ما حدث بالسرعة التى حدث بها ، لقد كان هذا خطأ فادحا ، أعترف بذلك .

خرج ماهر من صمته مضطرا ، فلم يكن على استعداد لأن يسمع تلميحات تمس ماضيه أمام واحد من تلاميذه ، ولجأ تلقائيا إلى الأسلوب الأمثل فى التشويش : الاتهام بالعمالة ، فقال بهدوء من يعد نفسه لمعركة طويلة :

- الخطأ الأساسى هو سوء الفهم ، لقد وقعنا جميعا فى هذا الخطأ ، وأنا أعترف أيضا بوقوعى فيه ، فقد انتابتنى فى تلك الفترة نفس الأفكار تجاهك .

قال فضل باستعلاء :

- تجاهى أنا ؟

فتابع ماهر بثقة :

- كان إصرارك على التعميل بالرغم من كونك مثقفا وحجم احتياجاتك التى أعرفها . . .

فقاطعه فضل بحدة :

- لقد كان التعميل ضرورة ، لم يفسد الحركة سوى الانتهازيين الذين منحوا أنفسهم لقب المثقفين الثوريين . لقد كانوا يجهلون الواقع تماما ومع ذلك اعتبروا أنفسهم أوصياء على حركة الجماهير .

استمر ماهر وكأنه غير مبال بما يسمع :

- كنت أعرف أنك محترف ، ولكننى كثيرا ما تساءلت : كيف يكفى مبلغ الاحتراف القليل شخصا مثلك له أعباؤه الكثيرة .

فقاطعه فضل ساخرا :

- هذا ما يسمى بالتضحية فى سبيل المبادئ ، لكن يوجد دائما من لا يصدق إمكان وقوعها لأنه لا يستطيعها .

كان التعريض المتبادل من الوضوح بحيث فزع منه حامد ، فهذه هى المرة الأولى التي يجد فيها أستاذه فى موقف اتهام مباشر وممن ؟ من رجل بدا واضحا أنه يعرف الكثير عن مرحلة كان ماهر حريصا على عدم إعطاء معلومات دقيقة عنها ، فلا يعرض لها إلا بعبارات فضفاضة تعطى انطباعا لمستمعيه بأنه كان فى طليعة المثقفين المناضلين من أجل الحريات ، دون أن يقدم أى معلومات عن ارتباط صريح باتجاه فكرى أو انتماء تنظيمي ، وتفجر فى أعماق حامد برغم الدهشة رغبة طاغية في أن يعرف ما كان ، وأنه إن لم يعرف الآن فربما لن يعرف أبدا ، فالصدام الذى لاحت ملامحه كفيل بإثارة لا مجال معها لتحفظ أو مجاملة .

قال ماهر كأنما يمنح محدثه مؤشرا لرغبته فى إنهاء الموضوع :

- ألم أقل لك . . . لقد وقعنا جميعا في أخطاء مشتركة .

هل استجاب فضل حين تابع وكأنه يسخر من نفسه :

- كنت حسن النية ، بصراحة كنت مغفلا ، كانت لدى كل المؤشرات وكنت مهتما

بتحليل الفرق بين الخطأ فى الاستراتيجية والخطأ فى التكتيك ، ولم أكن أفطن إلى أن من أخطاء التكتيك ما يفوق فى تأثيره المدمر خطأ الاستراتيجية .

قال ماهر كأنه يسايره ويهون عليه فى الوقت نفسه :

- على أى حال ذلك عهد مضى بكل ما فيه .

فقاطعه فضل كأنه يستنكر :

- هل هذا صحيح ؟ ألا نعيش الآن آثاره ؟

اكتفى ماهر بأن يقول :

- بشكل ما ... ربما .

وأعاد فضل مبسم الشيشة إلى فمه ليأخذ نفسا جديدا يملأ به صدره قبل أن يقول كأنه يبلور الدرس المستفاد :

- حين يصبح الاحتمال ماسا بأمن الطليعة يكون حسن النية خطأ استراتيجيا .

- وصمت لحظة ليضيف بأسى :

- إننى معترف بخطئى .

كيف أعادت العبارة البسمة إلى وجه ماهر مع أنه أدرك ما وراءها ؟ كيف استطاع أن يعبر مشاعره ليقول بهدوء :

- دعك من كل هذا ... إنك حتى هذه اللحظة لم تقدم التحية لنا . متى تعلمت البخل ؟

فرد فضل بتلقائية :

- وهذا خطأ آخر .

وصفق مستدعيا الجرسون .

استقر ترمومتر الانفعال الداخلى عند حامد بعد تذبذب حاد ، فقد تراجعت المؤشرات الدالة على الانفجار القريب وانطفأت الشعلة التى بدا فى بعض اللحظات أنها توشك على التوهج لتضيئ الظلمات . فقال لنفسه وهو يطلب فنجان القرفة الذى سبق أن اختاره له فضل فى اللقاء السابق : « *لم يعد الا ما جئنا من أجله* » وظل فترة صامتا ينتظر .

وطال الانتظار ، فقد شغل الرجلان بمشروبهما وبالتعليق عليه وامتد التعليق ليشمل المشروبات التقليدية والمستحدثة ، والمقاهى الجديدة والقديمة ، والتطور الذى لحق بالجرسونات ، إذ أصبح عدد كبير منهم من خريجى الجامعات والمعاهد العليا .

قال ماهر بعفوية وكأن الموضوع لا مجال فيه لتفكير :

– هذا تطور جيد . فبدلا من نموذج البلطجى الجاهل تتعامل الآن مع نموذج آخر متعلم ومتحضر نسبياً .

فرد فضل وهو يضغط على الكلمات :

– لست معك ، فدلالة هذا التطور بالغة السوء .

رفع ماهر كوبه ليشرب آخر رشفة فيه معطيا نفسه مهلة للتفكير في حين واصل فضل :

– إنها ببساطة بطالة حقيقية . فالشباب لم يتعلم خمسة عشر عاما أو أكثر ليصبحوا آخر الأمر غير منتجين . واضح أنه تدمير منظم للموارد المتاحة ، ولا أستطيع أن أفصل بين ذلك وبين سياسة التهميش التى أوصلتنا فى النهاية إلى التبعية المطلقة للإمبريالية .

نظر إليه ماهر محنقا ، وراوده خاطر : « *لماذا لا يتوقف هذا الرجل عن الكلام وقد توقف عن الحركة* » لكن فضل استمر :

– كل قوة حقيقية فى هذا البلد يتم تحجيمها ثم تهميشها ، الشباب ، الإنتاج ،

الثقافة ، القيمة الإنسانية للمواطن ، حرية التعبير ، المنظمات السياسية الحقيقية ، المنظمات العمالية ، حتى رأس المال الوطنى .

قال ماهر بحذر من يرغب في تحاشى الصدام :

– لا داعى للتحديد فالقائمة طويلة .

ثم أضاف كأنما عنّ له خاطر :

– إنه ميراث ثقيل ، ثمرة عهود طويلة من الخطأ السياسى والاقتصادى .

رد فضل وهو يحدق فى عينيه :

– بالعكس ، الذى يحدث تدمير كامل لكل ما ورثناه .

ألجم ماهر رغبته فى التعقيب مفكرا فى التعبير المناسب فاستمر فضل :

– لم يحدث فى تاريخ هذا البلد منذ الفتح العثمانى هجمة بمثل هذه الشراسة .

قال ماهر بحذر من يسير على سلك مشدود على ارتفاع شاهق :

– أنت إذن لا ترى فى الظلمات شمعة واحدة مضيئة .

فقال فضل ساخرا :

– إذا رأيت شمعة فأخبرنى لأحتفل بها .

هل أراد حامد وقد أحس بمدى ما يعانيه أستاذه أن يحتسب لديه نقطة حين قال موجها حديثه لفضل :

– يظهر أنك نسيت أنك قلت لى فى لقائنا السابق إنك ترى فى الظلمات شموعا .

فالتفت إليه فضل كأنما يؤنبه وهو يقول :

– يظهر أنك أنت الذى نسيت ، لقد كنا نتحدث عن فاروق السيد والحركات الجديدة... وربما لم أكن واضحا تماما . وربما لم تفهم أنت ما قصدت إليه بتعبير الشموع السوداء .

وصمت برهة قبل أن يضيف بصوت يقطر حزنا ولوعة :

– أما شموعنا كلها فقد انطفأت <

قاطعه ماهر منفعلا وقال بصوت جمع بين الدهشة والغضب والاستنكار :

– هل تعنى أن فاروق شمعة تضيئ .

فرد فضل وقد استعاد صوته إيقاعه الهادى :

– الكلام عن فاروق يطول ، فهل أنت مستعد لسماع ما لاتحب ؟

تساءل ماهر بسخرية :

– وماذا كان ما سمعته إذن ؟

فأجاب فضل ضاحكا :

مجرد مداعبات خفيفة بالمقارنة بما هو آت .

وأضاف فى أول محاولة للمجاملة كأنه يسترضيه :

– اعتبره نوعا من النقد الذاتى الذى لم تمارسه أبدا وأننى مارسته بالنيابة عنك .

ضحك ماهر كأنما تقبل المجاملة وهو يعقب :

– لقد مارسته أنت نيابة عن التنظيم كله ، وإن كانت لى تحفظاتى على ما سمعت .

جلجلت ضحكة فضل وهو يسمع اللازمة المعهودة التى لم يسمعها من زمن طويل حتى دمعت عيناه ثم تمتم بأسى :

– لقد كانت أياما عظيمة بالرغم من كل شيئ .

✍ ✍ ✍

- ٤٣ -

هل كان ما أصاب أميمة دهشة المفاجأة أم صمت الذهول وهى تتلقى بدون وعى تهنئة موظفة الأرشيف السرى حتى أنها استجابت من غير أن تحس لقبلاتها الحارة على وجنتيها وهى التي لا تسمح أبدا بأن تقترب أنثى من مكياجها ؟ هل كانت وظيفة « *وكيل الوزارة* » أكبر من أحلامها وهى التى وضعت نفسها ببراعة فى دائرة الضوء اللامع بين أبرز موظفى الديوان العام ، وفرضت عليهم بقدراتها أن يستسلموا لوضعها المتميز بعد فترة قصيرة من مقاومة غير منظورة عبّرت عن رفض قصير الأمد ، إذ ما لبث أن تلاشى فأصبح وجودها بينهم أمرا طبيعيا ، فلم يشعرها أحد من رؤساء القطاعات بأنه أرقى منها ، وإن ظلت من جانبها حريصة في تعاملها معهم على ألا تتجاوز حدودها . أم أنها كانت قد وصلت إلى حافة اليأس بعد أن مر يومان طويلان كئيبان أحست فيهما كما لو طوقا من العزلة غير المفهومة مضروبا حولها حتي باتت على يقين بأن أمرا يدبر لها .

أوشكت دموعها أن تنهمر وهى تتلقى التهنئة ، وهمت أن تدخل على الباشا تقدم له شكرها وقد انتابها إحساس حقيقى بتقديره والاعتزاز به والامتنان له لولا أن ألحت عليها الموظفة أن تؤجل شكرها إلى أن يتم إبلاغها رسميا ، مبررة إلحاحها بأن الأوامر الصادرة أن يظل القرار سرا لا يعرفه أحد إلا في الوقت الذى يحدده الوزير ، وأنها ما

خالفت هذه الأوامر إلا لحبها لها حتى تكون أول من يبشرها ويقدم التهنئة إليها ، وأنه لا يرضيها أن تضارّ بسببها . وما لبث أن مالت أميمة للاستجابة لرغبتها بعد أن راودها خاطر ملأها بهجة « *إنه يريد أن يجعل قراره مفاجأة لك ، ومن الظلم أن تحرميه من متعة يريدها ، ويمكنك ان تستغلى معرفتك المبكرة فى التفكير فى رد الفعل بحيث يكون مناسبا حين تأتى اللحظة التى يقرر أن يفاجئك فيها* » .

مارست أعمالها خلال ما تبقى من وقت قبل عودتها إلى المنزل وهى لا تفعل فى الحقيقة غير الانتظار ، أجرت بعقل نصف واعٍ اتصالاتها ، وأودعت بأصابع باردة بعض الخطابات الموقعة فى ملف العرض بدلا من إرسالها للتنفيذ ، واستقبلت بعض الملحقين بالسفارات الخليجية وقد حضر كل منهم فى موعده المحدد ولكنها لم تكن قد أعدت نفسها للاستقبال بإعداد البيانات الخاصة بالتعامل الثقافى مع دولهم كما جرت بذلك عادتها . وحين طلب بعضهم استضافة فرق راقصة حققت نجاحا فى موسم سابق لم تجد الرغبة فى أن تعقب بما تعلمه عن نوع الضيافة المتوقعة فى ضوء تقارير المتابعة السرية الرسمية والشخصية التي وقفت عليها ، ولما حرص بعضهم على أن تضم بعض الفرق أسماء معينة استجابت دون مناقشة مخالفة بذلك أسلوبها التقليدى فى تصعيب الاستجابة إلى أن يعترف الجانب الآخر صراحة أو ضمنا بما وراء الطلب فيكون الاعتراف مقدمة ثمن يحدده حجم الرغبة وحجم الراغبين معا ، لقد كانت تفعل كل شيئ وذهنها مشدود فى انتظار لحظة إعلان المفاجأة ، ولم تكن مستعدة لأن يصرفها عن هذه اللحظة شيئ مهما كان ....

وظلت تنتظر . . .

ولما طال الوقت عنّ لها أن تتصل ببعض من ترتاح إلى التعامل معهم وتحس بأن بينها وبينهم مودّة ، ولكنها عدلت على الفور ، فقد خشيت ألا تستطيع الاحتفاظ بالسر فتحرمه من متعة مفاجأتها ، وتحرمها من متعة مفاجأته بالشهقة الناطقة بالدهشة والنظرة الحبلى بالشكر والشفاه الولهى بالتقدير المتوج بلمسة الاعتراف الدافئ في اللحظة المواتية بأنها كانت وستبقى أسيره رعايته وعطفه إلى آخر لحظة من عمرها ..

فأخذت تشغل نفسها بالاطمئنان علي زينتها ، تفقدت في مرآة الحجرة الخلفية ظلال عينيها ، وانتشار أهدابها وتألق خديها ، ودقة تحديد شفتيها ، وخصلة الشعر اللاهية علي جبينها ، ومست بخفة بالبوردة الشفافة العاكسة رقبتها وأذنيها ، وجددت عطرها ... .

وظلت تنتظر ... إلى أن جاء الوقت الميت فى الديوان العام .

قبيل الواحدة ، قبل الموعد الرسمى لانتهاء العمل بساعة أو أكثر ، يبدأ الموظفون فى التسلل مغادرين مكاتبهم حتى لا يبقى منهم عند حلول الموعد الرسمى إلا عدد قليل فى كل إدارة مهمته مجرد إثبات الوجود فى حالة الضرورة القصوى ، وهى حالات نادرة ، وهذا الوقت هو الفترة المثلى للعمليات الخاصة بتنفيذ القرارات الإدارية الحساسة التى يرادلها أن تتم فى أسرع وقت وبأقل قدر ممكن من الإعلان ورد الفعل ، إذ لا يعلم بها أثناء التنفيذ إلا عدد جد قليل ، ولكنه كفيل بأن يجعل اليوم التالي للتنفيذ يوما أقل لغطا .

ووقعت المفاجأة.

فبعد الواحدة بدقائق كان مدير مكتب الوزير للشئون الإدارية يدخل من الباب المفتوح والابتسامة تغمر وجهه المقطب عادة ، وعبارات التهنئة تنهال منه دون توقف مقترنة بنسخة رسمية من القرار صرفها عن النظر فيها بإمعان بكلماته المجاملة التي لم تتوقف لحظة واحدة ، هل كان سعيدا من أجلها وهو الذى كان كثيرا ما يسر لخلصائه بالشكوى من تدخلها وتأثيرها ، أم كان سعيدا لمعرفته مضمون القرار الذى يعنى فى جوهره زوال خطرها . وختم تهنئته بنقل تهنئة الوزير إليها قائلا قبل أن ينسحب خارجا ليترك لموظفى مكتبه فرصة تهنئتها :

- كان معاليه يرغب فى أن يبلغك بنفسه ، ولكنه خرج فى مهمة عاجلة وأسند إلىّ أمر التنفيذ .

فى دقائق كان الخبر قد انتشر ، فظلت في مكتبها تتلقى التهانى من الوافدين عليها . لاتخرج مجموعة حتى تحضر أخرى ، دون أن تتمكن من أن تخلو بنفسها أو

تنفرد بأحد من عيونها أو آذانها ، حتى تجاوزت الموعد المعتاد لانصرافها ولم يعد فى الديوان العام إلا من تتطلب طبيعة عملهم البقاء فيه . كانت تلقى نظرة على صورتها فى المرآة وهى تتأهب للانصراف حين أقبل عليها باسما مدير الشئون الإدارية تصحبه فتاة بدا جمالها الطبيعى واضحا وإن كانت خبرتها بإبرازه محدودة وقدمها إليها :

- الآنسة منى ، موظفة وثائق بالمكتبة ، جاءت لتقدم التهنئة .

فابتسمت أميمة وأعادت تأملها وهى تصافحها ، هل كانت على وشك أن تقول شيئا حين قال الرجل برقة مبالغ فيها :

- أرجو آلا تحرمينا من اتصالك ، فنحن لا نستغنى عنك .

فالتفتت إليه فى دهشة فأضاف كأنه يفسر :

- ليس معنى نقلك لهيئة الكتاب أن تقاطعينا .

كيف واتتها في لحظة القدرة على أن تبتسم وتقول بهدوء :

- طبعا ، وهل تشك فى ذلك .

وكيف استطاعت أن تظل متماسكة وهو يضيف :

- ستتسلم الآنسة المفاتيح لأن المفروض أن تتسلمى عملك هناك غدا .

كيف أمكنها أن تقول بصوت خلا من الانفعال :

- ربما يستغرق ذلك بعض الوقت لأننى سأسلم كل شيئ بمحضر رسمى .

وكيف استطاعت أن تضحك وهى تضيف :

- معلهش يا أستاذ سند ، ستتأخر معنا قليلا .

فعقب الرجل وقد عادت اليه تقطيبته المعهودة :

- لا تشغلى بالك بالمكتب وتجهيزاته سأوقع أننى استلمت كل شيئ ، المهم هو الوثائق .

قالت أميمة بهدوء :

- الوثائق عندى منظمة تنظيما دقيقا فى ملفات وسأسلمها ملفا ملفا فلا تحمل هما .

قالت منى في وجل :

- سأساعدك فى عمل كشف حصر بكل شيئ .

ونظرت إلى الأستاذ سند وكأنها تستنجد به ، فأضاف موجها حديثه إلى أميمة :

- جهزى أنت الملفات وسأتولى أنا إملاء البيانات .

✍ ✍ ✍

- ٤٤ -

عاد أحمد من الكلية لا يستطيع أن يستعيد توازنه تحت ثقل إحساس كثيف اختلطت فيه المشاعر المتباينة ، مزيج مضطرب موار من الحزن والأسى والجزع والألم والعجز والرفض والهوان والاستهانة والاستسلام والتمرد والانسحاب والتصميم والكآبة والخوف والتوقع والثقة والانهيار والثورة . حاول عبثا أن يستوضح مشاعره ويستقرئ أفكاره ، لكنه في نفس اللحظة التي كان يحس فيها بأنها توشك أن تتحدد وتتبلور في اتجاه إذا بها تنفجر متناثرة في كل اتجاه ، فتصبح النفس أعمق ظلمة وأكثر تمزقا وأشد إيلاما وأبشع عذابا . حاول أن يلجأ إلى النوم لعله يحقق شيئا من هدوء يمكّنه من أن يتأمل ما كان ليفكر فيما يمكن أن يكون لكن النوم جفاه حتى صار بدوره رافد عذاب . . . الأعماق لهيب مستعر لا يستطاع معها غفلة ولايقظة ، لاسبيل لها إلى حركة أو سكون ، لانفع فيها لصحبة أو خلوة ، لامجال بها لوعي أو ذهول ، لا طاقة لتصبر أوصراخ ، لارجاء في احتمال . . . .. إنها مؤشرات جنون .

لم يبق إلا الصلاة . . . وشرع يصلى . . .

بدأ صلاته مشدودا إلى مشاعره الحرى ، متلبسا بأفكاره المائجة . فمس حركاته الاضطرابُ وذاكرتَه النسيانُ . . . ويكى وعيناه تضرع مغمضة وروحه تنادى : اللهم

اكفنى شر ما يريدون ، وجنبنى كيد ما يدبرون ، وخفف عنى سوء ما يصنعون ، والطف بى فيما يكون .

واستمر يصلى . . .

وابتهل إلى الله وهو ساجد يسأله السكينة والسلام ، فأى شيئ هين إلا أن تتمزق نفسه بددا ، فذلك هو عذاب السعير .

وظل يصلى . . .

وأحس بالخجل إذ أصابه النسيان لحظات ، ومن جديد انهمرت دموعه غزيرة من غير صوت ، وهتفت الأعماق سائلة المغفرة .

وظل يصلى . . .

وأسلمه الخجل من النسيان إلى الخجل من النفس إذ غمرها الموج الصاخب فحل بها اضطرابا .

وظل يصلى . . .

وقاده الخجل من النفس إلى الخجل من الله ، كيف يظن أن ابتلاءه بلاء ، كيف يدعى الإخلاص فيه وهو إلى غيره مشدود الوثاق .

وظل يصلى . . .

ويرقى به خجله من الله إلى الخجل أمام الله ، ويسمو إلى حيث يرقب ، فإذا هو يخف ، وإذا بأحماله لا تشده إلى الأرض بل تطلقه فى الآفاق العليا ، وإذا بإنهاك جسده يصبح طاقة اقتراب ، وإذا به شفيف لطيف ، عذابه متعة فى الأفق الأسنى ، وبقدر ما ازدادت قتامة سطع الضياء ، وبقدر ما تداخلت الطرق وتشابكت المسالك اتضح الطريق ، وبقدر ما تفجر الحزن وفاض العذاب حلت السكينة وأشرق الأمل .

وظل يصلى . . .

وإذا بوجدانه يهتف شوقا بغير لسان :

« اللهم إن كان ما يحل بي سبيلا إليك فلا تمنعه ، وإن كان واصلى بك فلا تقطعه ، وإن كان عذابى يقربنى منك فلا ترفعه ، وإن كان موصولا برضاك فزدنى منه .

اللهم لا تشغل قلبى عنك ، ولاتقصّر يدى فيك ، ولاتُخْرس لسانى عن ذكرك ، ولاتصرف قدمى عن طريقك .

اللهم أنت الرجاء ، فيك الطلب ، إليك الغاية ، معك الصحبة .

اللهم إنى لك ، فاجعلنى بك ، فإنه ليس إلا أنت .

سبحانك » .

وغشيه النعاس .

ثم أدركته اليقظة وكأنما بدل شخصا آخر ، نهض نشيط البدن صافى الذهن هادئ النفس يمارس ما ألزم به نفسه من عاداته المتبعة برضا وبود وهو الذى انقطع عنها في أيامه الاخيرة ، وزار عمه وتقبل عتابه وسمع له وتحدث إليه وتحمل عنه ، وترك فى مشاعره تلك اللمسات الحانية التى يتركها فى كل مرة يزوره فيها من الحب والرعاية والثقة ، ولكنه يتجاوزها في هذه المرة فيحس العم على غير العادة بقسط كبير من الطمأنينة والأمل فيفترّ ثغره عن ابتسامة صادقة ويرتفع صوته بضحكة صافية وهو الذي ضاعت ابتسامته ولم يعرف غير الأنين منذ وصله إخطار خوف الحاجة وذل السؤال . ثم يغادر عمه ليعود إلى منزله فيحس برغبة فى الطعام فيمضى خفيف الخطا إلى الحسين ويقرر أن يتناول وجبته المفضلة التى لا يتناولها إلا فى المناسبات قائلا لنفسه وهو يقضم بأناة لقمة الخبز المغموسة فى سلاطة الزبادى منتظرا قطعة النيفة المطلوبة : « قل من حرم زينة الله التى أخرج العباده والطيبات من الرزق » ، وينتقل ليشرب الشاى الأخضر مستمتعا بكل رشفة فيه ، وتهب عليه نسمات الليل الندية

فتغريه بأن يسير مستمتعا فينهض ليسير وكأن كل ما كان مجرد ذكرى قديمة قد طوى النسيان تفاصيلها ولم يبق في الذاكرة منها إلا معالم باهتة ، ولم يعد يربطها بالنفس إلا رباط التأمل في محاولة لاستخلاص الدرس المستفاد :

ولكن شيئاً في أعماقه يحذر :

« إنهم يراقبونك منذ اللحظة التى خرجت فيها من المنزل ، وأغلب الظن أنهم سيظلون وراءك إلى اللحظة التى تعود فيها إليه كما فعلوا معك فى الصباح ، ها هو ذا أحدهم على بعد ذراع عن يسارك ، والآخر على بعد خطوات خلفك ، إنهم كما ترى يمارسون عملهم دون محاولة لسترموقفهم كأنهم يعّبرون عن التزام بتنفيذ الأوامر أكثر من اقتناع بطبيعة العمل ، إنهم مساكين فلا تحاول أن تجهدهم كما فعلت معهم فى الصباح فقد أدركهم الإجهاد ، لقد نلت قسطا من الراحة أما هم فعناؤهم ظاهر » .

توقف أحمد فجأة وقد أغرته الفكرة التى هبطت عليه فالتفت إلى الرجل الذى يسير خلفه وابتسم ، تجاهله الرجل وأشاح بوجهه عنه ومضى لا يتوقف ، ولكن أحمد مس ذراعه برفق فالتفت إليه مستنكرا فقال أحمد :

– إذا كنت قد تعبت فأنا مستعد لأن أجلس قليلا حتى تستريح .

بُهت الرجل وألجمته الدهشة فتابع أحمد :

– لا داعى للانزعاج ، أنا لا أطلب منك أن تتوقف عن عملك وإنما قصدى أن أريحك .

هل ظن الرجل أنه يسخر منه فردّ بغضب :

– امش في حالك ، لا شأن لك بى .

فتابع أحمد بهدوء وكأنه يشرح ليطمئنه :

– يا أخى لماذا أنت خائف ؟ أنا أعرف أنك ورائى ولا أريد بك شرا .

تردد نظر الرجل بخوف حقيقي بين أحمد ورجل آخر كان يسير بعيدا عنهما ، ولكنه أخذ يتلكأ حين اقترب منهما ربما بدافع حب الاستطلاع ليسمع ما يدور من حوار ... ترى ... هل سمع العبارة التى قالها الرجل الذى استوقفه أحمد مغيظا وهو يترك أحمد مسرعا :

- ستخرب بيتى الله يخرب بيتك .

توقف أحمد لحظات وقد شعر بدهشة قبل أن يمضى في طريقة مفكرا : « هؤلاء ***الغلابة ماذا يريدون ؟ إنك لم تعرض عليه جريمة وليس بينه وبينك شيئ شخصى ، فلماذا أصابه الرعب لمجرد الحديث معك ؟!*** » .

لم يشغله السؤال الذى عبر بخاطره إلا فترة وجيزة ، فقد قفز إلى ذهنه فور ذلك خاطر آخر : « ***ليس السؤال الصحيح ماذا يريدون ؟ وإنما السؤال الصحيح ماذا يريد من أرسلهم خلفك ؟ هل يريد أن يجعل منهم كلاب الصيد فكلفهم بك أم كلاب حراسة تحافظ عليك حتى تحين ساعتك*** » هل كان ما أدرك أحمد وهو يفكر الإشفاق عليهم أم التعجب لهم : « ***أمر بشع أن يحول السلطان رجاله إلى كلاب يطلقها على خلق الله ... فلم يخلق البشر ليكونوا كلابا*** » . وما لبث أن استسلم بتفكيره فى سؤال جديد : « ***كيف السبيل إلى ردهم بشرا أسوياء كما خلق الله ؟*** » واستغرق فى تفكيره حتى كاد يتجاوز الزقاق ، لولا أن رأى الرجل يتلكأ بعد أن اقترب من مدخله فأدرك أنه وصل ، والتفت الى الرجل مبتسما وكأنه يشكره ويعده : « ***لا تظن أن ماكان هو المحاولة الوحيدة ، ستحاول مرة أخرى*** » تحاشته نظرات الرجل المرعوبة الضارعة أن يمضى صامتا ، ولكن أحمد أتبع ابتسامته بالتحية بصوت خفيض :

- سلام عليكم .

ولم تكن إلا خطوات محدودة كان بعدها في مدخل المنزل ، فلم ير الرجل يبتلع ريقه بصعوبة وهو يتلقي التوبيخ على سلوكه غير المنضبط مصحوبا بالتهديد برفع تقرير عنه،

ولم يشهده وقد تماسك بعد أن ألهمه التهديد بفكرة لمعت في ذهنه كبارقة أمل : « *إنه هو الذي سيسبق بالتبليغ عما حدث ، أليس محاولة واضحةلشرائه من يدري ماذا يكون وراءها ؟!* » .

ظلمة المدخل عادة متبعة فليس في استطاعة أحد من السكان أن يتحمل تكلفة مصباح يضاء ، لكن أحمد يعرف طريقة جيدا حتى وهو مغمض العينين ، ويستطيع أن يجتاز الدرجات المكسورة متحاشيا أن يلمسها ، ويمكنه أن يمد يده بالمفتاح إلى كالون الباب دون أن يحيد عنه شعرة ، لكنه يحس وهو يفتح بشيئ غير مألوف ، هذه الهسهسة الغريبة التي تبدو كما لو كانت تحاول لفت نظره ، يتوقف طرفة عين يتسمع ، ثم يستمر فى فتح الباب ولكن صوتا شديد الخفوت لا يكاد يسمع يخاطبه :

- أحمد .

فتتجمد يده بينما يستمر الصوت :

- أنا عمر .

ويدخلان .

هل كان أحمد فى حاجة لأن يقول له عمر فور دخوله :

- اجلس كما لو كنت وحدك ، ولاترفع صوتك .

أيقن أن شيئا خطيرا قد وقع أو هو على وشك الوقوع . خفق قلبه وهويضيئ المصباح وبادر إلى المائدة التي رصت فوقها الكتب على غير نظام فمد يده تلقائيا ليسوى الأوراق المتناثرة لرسالته التى ألقاها فى فورة يأسه عند عودته فى الظهيرة قبل أن يلتفت إلى عمر متسائلا :

- تشرب شايا .

فيرد عمر بهزة خفيفة من رأسه إيجابا . هل كان ما يحتاجه فى الحقيقة كوب الشاى ليخفف من انفعاله أم الوقت الذى يستغرقه صنعه ليستعيد هدوءه حتى يستطيع

أن يؤدى مهمته . همس عمر عاتبا وهو يرقبه يضع إناء الشاي فوق السخان الكهربائى الصغير :

- تأخرت كثيراً ، انتظرت إلى أن أصابنى الهلع .

رد هامسا .

- تمشيت بعد العشاء .

تساءل عمر :

- وقبل ذلك ؟ لقد حاولنا الاتصال بك مرات فلم تكن موجودا .

هل ابتسم أحمد أو هذا ما ظنه عمر فغمغم كأنما يحدث نفسه :

- الحمد لله ، خشيت أن يكون قد أصابك مكروه .

وضع أحمد كوب الشاى على المنضدة الصغيرة بجوار عمر ، ثم رفع كوبه إليه وأخذ رشفة صغيرة أتبعها بإعجاب :

- الله .

هل استفز الإعجاب عمر فعدل عما اعتزمه من مقدمات وآثر أن يكون كلامه مباشرا وطلبه واضحا :

- مطلوب منك أن تختفى فورا .

نظر أحمد متسائلا كأنما أصابته الدهشة ، فتابع عمر :

- لقد تم تدبير كل شيئ ، وما عليك إلا أن تصحبنى إلى حيث أوصلك لأحد الإخوة ، ولاداعى لأخذ أى شيئ معك حتى لا تلفت نظر أحد .

رفع أحمد كوبه إلى شفتيه وكأنه غير مبال بما يسمع فأضاف عمر متبرما :

- الوقت ضيق .

قال أحمد بصوت هادئ مستفسرا :

- هل جد جديد ؟

أحس عمر أنه قد أخطأ إذ بدأ من النهاية ، فليس أحمد بالذى ينفذ دون أن يقتنع ، أخذ يحاول أن يتدارك ما كان وأن يبدأ من البداية :

- طبعا تعرف أنك تحت المراقبة .

- وهل هذا جديد ؟

تابع عمر بهدوء :

- لدينا الآن معلومات مؤكدة أنك ضمن الأهداف المحددة .

- للاعتقال ؟

رد عمر بصوت يجمع بين الحزن والسخرية :

- وهل يحتاج الاعتقال إلى مراقبة ؟! للتصفية الجسدية طبعا .

تساءل أحمد بهدوء من لم يدرك الخطر :

- لماذا ؟ لقد توقف نشاطى فى الأيام الأخيرة توقفا تاما تقريبا .

أجاب عمر بتلقائية :

- لم يعد مهما أن يتوقف نشاطك أو أن يستمر ، قرار التصفية لا شأن له بالنشاط .

استمر أحمد فى تساؤل من لم يفهم :

- لماذا التصفية إذن ؟

- لأنك ضمن العناصر التى قرروا تصفيتها طبقا لخطة العملية « *فالكون* » الخاصة بالضربة الوقائية .

نظر أحمد إليه بإمعان دون أن يفتح فمه ، فتابع عمر :

- أظنك تعرف أن الجهاز الخاص قد استعان بعدد من خبراء الموساد والسي أي إيه للمساعدة فى وضع خطط تصفية القوى المضادة ؟

- أمر طبيعى .

- لقد انتهوا من عملهم وقدموا توصياتهم وتم وضع الخطط التفصيلية وصدرت الأوامر بالبدء فى التنفيذ ، وبدءوا فعلا .

ظل أحمد ينظر إليه منتظرا فأضاف عمر :

- خلاصة ما توصلوا اليه أن الاعتقال فى هذه المرحلة أمر غير مستحب لأنه يترك آثارا سياسية ضارة بسمعة النظام ، وأن الاجراء البديل هو التصفية الجسدية للعناصر الحركية على أن تختار بعناية كافية .

هل كان ما دفع أحمد إلى السؤال هو القلق أم حب الاستطلاع :

- ما هى هذه العناصر ؟

- طبقا للخطة هناك أولويات ، ولكن الهدف النهائى هو تصفية جميع العناصر المؤثرة .

عقب أحمد بحسم :

- مستحيل ، لايستطيع نظام فى الدنيا أن يغتال الآلاف .

قال عمر بهدوء :

- لا تقاطعنى واسمعنى إلى النهاية . . لقد استهدفت الخطة عزل القيادات المعارضة وشل فاعليتها تمهيدا للقضاء عليها ، وذلك يقتضى فى المرحلة الأولى تصفية العناصر المؤثرة بحيث تفقد هذه القيادات صلتها بالواقع ، وبالتالى يمكن القضاء عليها من غير مضاعفات .

- لم تقل ما هى هذه العناصر .

- عناصر التنظيم والتثقيف والاتصال .
- هكذا إذن .

واستغرقا فى الصمت فترة ظنها عمر كافية ليجيل أحمد فى ذهنه المعلومات الجديدة ، وليستعد لتلقى الاضافة الحاسمة ، فقطع الصمت ليقول بأناة وهو يضغط على الحروف :

- رصدت الجماعة بعض عناصر الاغتيال في الجهاز الخاص تتبعك .

هل كان سؤال أحمد لمجرد أن يقطع صمته أم محاولة لكى يستوعب الخبر :

- لماذا ؟
- ربما كانوا يتعرفون عليك ويدرسون الظروف المحيطة بك .

هل كان أحمد يعقب أو يتمنى حين قال :

- ربما كانوا مخبرين عاديين ، لقد لاحظت بعضهم .

وهل كان عمر يسخر أم يؤكد حين سأله :

- وهل تتوقع أن تكون على رؤوسهم ريشة ؟! .

وتوقف لحظات ثم سأله :

- أخبار مزعجة ، أليس كذلك .

تمتم أحمد بهدوء :

- الأعمار بيد الله ، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

هل غاظته الإجابة الهادئة فقال بانفعال :

- علينا أن نأخذ بالأسباب .

واصل أحمد هدوءه وهو يقول باستسلام :

- أين نفر من قدر الله ؟

فواصل عمر غضبه وهو يرد :

- نفر من قدر الله إلى قدر الله .

وران الصمت فترة قطعها عمر بقوله :

- لسنا في مجال مناقشة نظرية ، نحن في حالة ضرورة .

ظل أحمد صامتا فأضاف عمر كأنما ينبهه :

- لقد تأكدنا من كل شيئ ، لم يعد تجميد النشاط مفيدا ولا مفر من الاختفاء .

تمتم أحمد كأنما يتساءل .

- ألا يمكن أن أخذ فرصة للتفكير ؟

فرد عمر بسرعة :

- وهل يمنحونك هم هذه الفرصة ؟!

وأدركهما الصمت من جديد ، ثم قطعه عمر فقال وهو ينهض ناظرا إلى ساعته :

- حتى لو كان الأمر مجرد احتمال فمن واجبك ألا تعرض نفسك للخطر .

لماذا لم ينهض أحمد ؟ ماذا كان يقول لنفسه وهو ينظر إلى عمر كأنه يعتذر ؟ هل أرهقه التفكير فى الموقف فأراد أن يغير الموضوع ؟ ما الذى جعله يتذكر ما حدث فى الصباح ؟ لماذا كان صوته أقرب إلى السخرية وهو الذى كان لحظتها مفعما بالغضب ؟

- هل تعلم أن المشرف استدعانى فى الصباح ورد إلى الرسالة طالبا إعادة صياغتها من جديد بعد أن حذف منها فصلا كاملا ، قال إنه ألصق بموضوع زميل آخر .

قال عمر ، بصوت يجمع بين الاستنكار والدهشة :

- أهذا ما يشغلك الآن ؟!

تابع أحمد وكأنه لم يسمع سؤاله :

- الغريب في الامر أنني حين عدت لم أجد الفصل المحذوف .

قاطعه عمر وقال بحسم وهو يحدق فى عينيه :

- الآن لم تعد المسألة احتمالا بل صارت يقينا ، إنهم يريدون أن يبقوك تحت نظرهم حتي تتم تصفيتك .

ابتسم أحمد لأول مرة منذ التقى بعمر ، وعقب وهو ينظر إليه عاتبا :

- يارجل ، لا تكن سيئ الظن إلى هذا الحد .

ومد يده ليسلم عليه وهو يصحبه الى الباب قائلا :

- لا أستطيع أن آخذ قرارا الليلة ، وإن كان في العمر بقية سأتصل بكم إن شاء الله خلال يومين .

فتح عمر ذراعيه ليحتضنه وضمه بقوة إلى صدره وغمغم بصوت مفعم بالحزن :

- أستودعك الله .

وفتح الباب وأغلقه بسرعة حتى لا يرى أحمد قطرات الدمع الجائلة فى عينيه وهى تسيل على خديه .

✍ ✍ ✍

- ٤٥ -

دق فضل المائدة بقبضته وقال :

- خسارة أنه لم يقتنع وخلط بين المواقف الاستراتيجية والتكتيكية .

نطق العبارة بحزن حقيقى وهو يعيد مبسم الشيشة إلى فمه فعقب ماهر بحماس وكأنه يؤيده :

- لقد كنت دائما أرى أنه ممن يخلطون الأوراق .

أبعد فضل المبسم غاضبا وقال بحدة :

- من فضلك ابق خارج الموضوع . إنى أتناول بالتحليل موقف مثقف ثورى حقيقى مخلص لنضال الكادحين ، ولكنه ضل لما رأى حركة النضال مضطرة فى ظل الظروف الداخلية والخارجية إلى المهادنة .

« *ماذا يريد هذا الرجل أن يقول ؟* » ظل السؤال يلح على حامد دون إجابة وهو يرى فضل يواصل حديثه الطويل عن الظروف الموضوعية التي تحمل مثقفا ثوريا مثل فاروق على أن يسيئ فهم الموقف التكتيكى لقيادة النضال الطبقى ويتهمها بالاستسلام العملى للدكتاتورية المعبرة عن تحالف الانتهازيين والطفيليين والعملاء اكتفاء

بإطلاق الشعارات التي تتحدث عن الجماهير وهي في نفس الوقت منفصلة عنها عاجزة عن الالتحام بها وبناء وعيها . استمر حامد يتأمل فضل وهو يتكلم دون انقطاع ، كان حزنه الثقيل يتجلى فى كلماته وينعكس فى نظراته وتنطق به حركاته كلما تذكر كلمة أو عبارة في المحاورات الطويلة التى دارت قبل أن يقرر فاروق الانفصال . هل كان يحس بالذنب لفشله فى إقناعه بموقف القيادة أم لفشله في إقناعه بالالتزام التنظيمي أم يتعذب لإدراكه بأن طاقة متجددة قد أهدرت في مجرى مغاير ؟

- هل كان ما شاهده في قريته بالفيوم عاملا أساسيا في هذا التحول ؟ ربما . لأنه عاد بعدها يطلب إصدار بيان يندد بما حدث ، ولما رفضنا قال ساخرا اعتبروا قرية كحك إحدى قرى بناما أو شيلى أو نيكاراجوا ، ولما قيل له إن ما يحدث فى الفيوم صراع بين بورجوازيين غضب وقال إن الذين قتلوا فيها كانوا من الكادحين الذين لا يجدون قوت يومهم ، ولما قيل له والذين قتلوهم أيضا هم من الكادحين الذين لا يجدون قوت يومهم ولولا وجودهم فى الأمن المركزى لماتوا جوعا ولأن علينا أن نسلك الطريق الطويل وهو النضال لبناء الوعي الطبقى حتى يمكن إنهاء الصراع لصالح الجماهير ، ثار وقال ان النضال لا يكون عن طريق تقديم تفسيرات جاهزة لكل ما يحدث وإنما يكون بالالتحام الحقيقى بالجماهير لصنع ما يجب أن يحدث ،. وصمم على إصدار بيان .

قال ماهر بحذر :

- أظنكم أصدرتم بيانا .

تابع فضل :

- كان موقفه قويا فأصدرنا بيانا متوازنا ، ولكنه احتج فور إصداره ورأى أنه بيان هزيل يغازل السلطة ويخون نضال الجماهير التى تسحقها الديكتاتورية فى كل مكان ، فى حلوان والمحلة وعين شمس والكوم الأحمر والفيوم ، وصمم على عقد اجتماع طارئ للجنة المركزية .

تساءل حامد متعجبا :

- من أجل البيان ؟

رد فضل وهو يرمقه بنظرة استخفاف :

- بالطبع لا ، وإنما ليعرض عليها خطته التى أطلق عليها : « *الاستراتيجية : الثوابت والمتغيرات* » .

هَم حامد أن يسأله :

- وهل اجتمعت اللجنة ؟

ولكنه تنكر نظرته إليه فآثر الصمت ، هل أحس به فضل فتابع :

- ولم يكن عقد اللجنة المركزية ممكنا .

لم يجد حامد هذه المرة حرجا في أن يسأل :

- لماذا ؟

فرد فضل وهو يردد بصره بينه وبين ماهر :

- لأسباب كثيرة ، منها ما يتصل بالظروف الأمنية ، ومنها ما يتصل بمدى أحقية كادر معين فى طلب عقد اجتماع على هذا المستوى ، ومنها ما يتصل بطبيعة الموضوع المطلوب عقد الاجتماع من أجله .

واصل حامد النظر إليه مستفسرا فواصل فضل :

- لم يكن ممكناً مثلا أن تجتمع اللجنة لكى تبحث تخلى الكوادر عن الخط العلمى بدعوى أن التحليل الموضوعى يثبت تاريخيا وواقعيا فشل هذا المنهج فى إدراك الواقع وعجزه عن احتوائه .

هل أخطأ حامد حين سأل :

- لماذا؟

فلماذا إذن غضب فضل والتفت إليه قائلا بحدة :

- حدد موضوع سؤالك .

صمت وكأنه لم يفهم ، فأضاف فضل :

- هل موضوع سؤالك الاجتماع أو الموضوع .

لم يجد حامد مفرا من الإجابة فقال بحذر من يتحسس طريقه :

- الأمران معا .

رد فضل :

- على المستوى الشخصى كان رأيى أن الاجتماع إذا كان ممكنا مقبول أما القضية فمرفوضة .

هل كان يشرح موقفه القديم حين قال بحسم :

- لقد كان تقبّل الفكرة الدينية يحتاج إلى مقدرة هائلة على اجتياز الثوابت التى لا تقبل عندى مناقشة .

هل أراد ماهر أن يشعره بمشاركته له حين قال :

- لم يكن كل هذا مبررا لكى يرتمى فى أحضان أعدائنا من الرجعيين .

اكتفى فضل هذه المرة بالنظر إليه ساخرا وكأنه يسأله : « *منذ متى كان للانتهازيين أعداء ثابتون ؟!* » وغرق فى الصمت . تبادل ماهر وحامد النظرات وهما يتأملان وجهه الذى كان يعكس بوضوح عناء لم تخففه الأيام وعيونه تحدق فى الفراغ وكأنهما يتساءلان : هل يستعيد ما كان أم يتأمل ما يكون .؟ :

- كثرا ما ألح علىّ سؤال : كيف يمكن لمثقف ثورى مناضل أن يصبح داعية لقيام دولة دينية .

لم يتمالك ماهر نفسه فقال :

- إنها الانتهازية .

فلم يتمالك فضل نفسه وقال بسخرية :

- الانتهازية نعرفها جيدا ، أن تمالئ السلطة لتحقق بها ومن خلالها تطلعاتك ، لكن أى انتهازية فى أن تقف فى مواجهتها وتتصدى لضرباتها ؟

قال ماهر بغضب :

- إنهم يتملقون الجماهير ليركبوا موجتها .

فتابع فضل دون أن يتخلى عن إيقاعه الساخر :

- وما الضرر في أن يلتزم المثقفون بالتعبير عن تطلعات الجماهير وأن يتبنوا إرادتها .

تمتم ماهر بصوت يجمع بين الغيظ والدهشة والذهول :

- كأنك تؤيده .

فاكتفى فضل بإحداث صوت أنفى تعبيرا عن الاستخفاف والسخرية .

هل أراد حامد نجدة أستاذه فسأل :

- فما رأيك أنت ؟

قال فضل بعبوس حائر :

- حتى الآن لا أجد جوابا ، فى البداية قلت ربما كان موقفا تكتيكيا يحاول أن يحقق به من خلال الجماهير الواسعة المؤمنة بالدين ما عجزنا عن تحقيقه بالايديولوجية المؤمنة بالعلم ، واسترحت لهذا التفسير حينا ، ولذلك كنت كلما سمعت عن قدرته على تحقيق انتشار جماهيري ازددت إعجابا لدرجة أننى فكرت فى مرحلة من المراحل أن علينا أن نعيد النظر في تكتيكاتنا في ضوء هذه التجربة ، إلى أن قابلته فأدركت أننى كنت واهما ، وأننى لم أكن أحلل ما يحدث بقدر ما كنت أعبر عن رغبتى فيما أحب أن يحدث .

وصمت فضل من جديد قبل أن يضيف بلوعة :

- مرة أخرى أعترف بخطئي .

هل أصابته لمجرد التذكر رعدة ؟ ارتجفت يده وأوشكت القهوة ان تنسكب لولا أن سارع بوضع الفنجان أمامه بعد أن سقطت بضع قطرات أصابت رداءه و سارع جليساه بإخراج المناديل الورقية وقدماها إليه ليجفف الرداء .، ولكنه تجاهل أيديهما ونظر فى الفراغ بقسوة وهو يضغط على أسنانه فكفا عن الحركة ، والتزما بالصمت واكتفيا بالنظرات المرسلة . هل كان ما أصابهما من وجوم سببه الاحترام أم الترقب ؟

- لم يكن فاروق الذي عرفته ، لقد تغير فيه كل شيئ .

كيف استطاعت نبراته أن تبدد الوجوم في لحظة واحدة وهو يضيف ضاحكا :

- حتى شكله تغير .

والتفت إلى حامد يسأله :

- تعرف فاروق ؟

فهز رأسه نفيا فتابع فضل موجها سؤاله إلى ماهر :

- ألم تصفه له ؟

رد ماهر باستهانة :

- شكله آخر ما يمكن التفكير فيه .

عاد فضل إلى حامد :

- كان أسمر نحيفا أقرب الى القصر .

أضاف ماهر محدثا حامد كأنه يفسر :

- طول عمره يعانى من سوء التغذية .

والتفت إلى فضل ليضيف ضاحكا :

- لعله تضخم الآن من أكل الفتة و . . .

أشاح فضل بيده فتوقف ماهر بينما استمر هو :

- خيل إلى لحظة أن قابلته أنني لا أعرفه ، ازداد هزالا إلى الدرجة التي بدا فيها أكثر طولا ، وأحاطت لحيته التي وخطها الشيب بوجهه كما لو كانت إطارا يحدد مجال الرؤية فأصبح أكثر إشراقا ، وشفتاه الرقيقتان ظهرتا أقل صرامة مما تعودنا أن نراه ، وشعت عيناه علي عكس ما ألفنا بنظرة ود أقرب الي الابتسام برغم الهالات السوداء ، وصوته العميق ..

قاطعه ماهر :

- كان صوته دائما مستفزا .

فتابع فضل وكأنه لم يسمع اعتراضه :

- صار صوته أكثر عمقا ، يتسم بتلك القدرة الغريبة على السيطرة على آذان سامعيه ولحظة بعد لحظة تدمن الآذان نبراته وإيقاعاته المتميزة فيصيب مستمعيه شيئ كالنشوة ، حتى لقد خيل إلى أن من يملك هذا الصوت يستطيع أن يسحر المستمعين ويفقدهم الوعى ، بينما الحقيقة .. .. وا أسفاه ... أنه هو الذى فقد وعيه .

تساءل ماهر باهتمام :

- كان يهذى ؟

فأجاب فضل بجزع :

- بالعكس كان كلامه شديد الترابط والإحكام ولكنه مخالف لكل القوانين التي نعرفها .

كاد ماهر يتابعه بالسؤال بعد أن رآه يصمت لولا أن وجده يعود إلى ضغط فكيه حتى يصدر عنهما صرير واضح قبل أن يصفق مستدعيا الجرسون ، وهو يشير اليهم ليطلبوا ما يريدون ، هل كان حريصا على أن يحملهم على التفكير فى شيئ ما بعيدا عن

تأمل انفعالاته ؟ وهل كان الجرسون يعى ما يراد منه حين أخذ يطيل فى ذكر أنواع المشروبات التى عنده مما لم يجربوه ويشرح فائدة كل منها ؟ وهل أحس أنه أدى ماعليه فانصرف فور أن طلب منه فضل شراب الينسون بالنعناع لهم جميعا من غير أن يعبأ بتحفظ جليسيه ؟

التفت حامد إلى ماهر مبتسما وهو يقول :

– لم أكن أعرف أنك تشرب الينسون .

فقال ماهر ضاحكا وكأنه يقدم نصيحته :

– عليك دائما مع الأستاذ أن تسمع وتطيع .

ابتسم فضل معقبا موجها كلماته إلى حامد :

– لابد أن أستاذك راض عنك ، فهو يمنحك نصف سره المقدس .

هل صدق حامد العبارة فسأل باهتمام :

– والنصف الاخر ؟

قهقه فضل وهو يقول :

– أنت طماع فعلا .

وتابع وهو ينظر إلى ماهر بإمعان ربما ليستفزه :

– أتمنى أن أعرف ، ولكنى أظن أنه لن يسمح لأحد أن يعرفه أبدا .

هل كان ماهر يرد على الاستفزاز حين قال بسخرية :

– كيف وأنت أول من علمنا ، ولكن الزمن يترك أثره حتى على العباقرة .

صاح فضل باستنكار ممزوج بالدهشة :

– أنا ؟

فتابع ماهر بنفس النغمة :

- ألم تكن تقرر دائما أهمية مبدأ التكيف مع المواقف المتغيرة حتى يمكن استيعابها وتوجيهها ، إننا لم نفعل غير التطبيق .

هل كان اليأس هو الذى حمل فضل على أن يقول بهدوء :

- ربما كان العيب في التطبيق لا في المبدأ ذاته .

أم كانت الرغبة في أن يحظى بلحظة تأمل : « *كيف لمبدأ علمى أن ينتج نتائج متناقضة ؟ ألم يتهمك فاروق أيضا بالجمود الفكرى والعجز عن التكيف مع الواقع ؟! كيف يدعي كل منهما التوافق مع الواقع وهما علي طرفى نقيض ، أحدهما دعى انتهازى عميل محوره نفسه لا يرى في الكون غيره والاخر مجنون يسعى للموت واعيا لما يفعل مؤمنا به من أجل قيم غيبية طالما انكرها* » .

قال حامد بسرعة محاولا استباق خلاف لاحت بوادره :

- لم تكمل كلامك عن فاروق .

قطب فضل كأنما أعادته العبارة الي ما لايريد وهو يقول :

- لاشيء يستحق الذكر ، أصبح مجنوننا تحكمه فكرة واحدة ، أن حكم الدين قادم ، وأن الدين وحده هو القادر على بناء حضارة جديدة ، وكلما حدثته عن الظروف الموضوعية التى تجعل حركة التطور فى اتجاه مضاد للدين فسر هذه الظروف بما يجعل الدين هو المستقبل ، وكلما شرحت له الصعوبات العملية التى تجعل حكم الدين مستحيلا أفاض فى ذكر الاحتمالات حتى لايدع مكانا إلا جعل قيام الحكم الديني فيه أمرا واردا ، مرة لأنه يلبى حاجة المتخلفين ماديا ، ومرة لأنه يلبي حاجة الضائعين روحيا ، مرة لانه يعبر عن تجربة حدثت وأثبتت نجاحها في بناء حضارة عظيمة لم يصبها الانهيار إلا لأن أصحابها قد تخلو عنها ومرة لأنه يمثل تجربة يجب أن تحدث بعد أن فشلت الحضارة المادية في تحقيق أهدافها الإنسانية .

قال ماهر بصوت يجمع بين السخرية والرضا :

- أنا سعيد لأنك أخيرا عرفته بعد أن كان يبهرك بقد راته العقلية .

ومد يده مسلما وهو ينهض ، فسلم عليه فضل بوجه جامد من غير أن يحاول النهوض .

أخذ فضل يتأملهما وهما يمضيان وقد بدأ ماهر في تقييم ما توصل إليه من معلومات ، كان فضل علي يقين من أنه سيبدأ بعبارته المأثورة :

- لى تحفظاتي علي ما سمعت .

ولكن ماهر كان قد افتتح تعليقه لحامد بقوله مغلفا غضبه بالسخرية :

- ألم تجد غير هذا المجنون الذى لم يعد يحسن حتى الكلمات ؟ لقد مات من وقت طويل .

ظل فضل يتبعهما ببصره حتى غابا في الظلمة قبل أن ينادى الجرسون ليقول برقة :

- يا ابني آن أوان العودة ، فقدمت من التعب .

فنادى الجرسون زميله ليحمل معه الكرسى الخشبي الذى يجلس عليه العجوز العاجز ، ومضيا بخطى وئيدة محاذرين التعثر إلى أن ابتعلتهم الظلمات .

✍ ✍ ✍

- ٤٦ -

التفتت أميمة إلى منى فى مدخل الوزارة وثلاثتهم يقفون فى انتظار السيارة الحكومية وقالت برقة جهدت حتى جعلتها طبيعية :

– إذا احتجت لأى شيئ فلا تترددى فى طلبى ، سأكون كما تعلمين وكيل الوزارة فى هيئة الكتاب .

غمغمت منى بصوت غير واضح وقد أصابها الارتباك ، فبادر الأستاذ سند وأشار إليها أن تركب السيارة التى توقفت أمامهم ثم التفت إلى أميمة ليقول قبل أن يتبع منى إلى السيارة :

– كان يسعدنى أن أوصلك يا مدام لولا أننا مرتبطون بموعد مهم لا يحتمل التأخير .

هل تمرست أميمة بالمفاجآت اليوم فلم تتأثر بالمفاجأة الجديدة ، أم كانت تستعيد تجربة قديمة فأيقنت أن أى تعبير على وجهها سيكون محور حديث يقبل التعليق والتفسير والحذف والإضافة ، فقالت وصوتها كوجهها يحاول أن يخلو من الانفعال:

– لا تحمل همًّا يا أستاذ سند ، التاكسيات هنا كثيرة .

وحرصت على أن تلتفت إلى السيارة وهى تمر بها لتمنح ركابها بسمة شدّتها إلى

وجهها ، ولكنها لم تتماك نفسها بعد أن اجتازتها السيارة فأرسلت خلفها بصقة اشمئزاز .

« أبدا لن تكونى مثل الأخريات ، لن تملأ عينيك الدموع وتهرفين بعبارات الاستغراب والدهشة ، وتتساطين بإلحاح عن سبب استبعادك ، وتستجدين البقاء فى موقعك ، أبدا لن يحملوك متعتهم أياما بغير عدد ، ينقلون كلماتك ويقلدون صوتك ويمثلون حركاتك وينفّس كلّ منهم عن حقده وعجزه وذلّه بابتكار حركة أو إضافة كلمة ، أبدا لن تكونى ، فإن من يُستبعد من هذا المكتب لا يعود إليه ، تلك هى الحقيقة التى كانت والتى ستظل ، حتى لا تتاح لأحد الفرصة ليؤمن نفسه بالحصول على الأسرار التى يريدون إخفاءها ، حتى لو رغب المأبون الذى يتجهان إليه ليلقاه بما تم كما لو كان هو صاحب القرار الحقيقى . أنت تعرفين بخبرتك أنه لا يقودها إليه إلا لكى تراه عن قرب فتكسر حاجز الرهبة فلا يصيبها الفزع الذى يغزوها وأمثالها لمجرد ذكر منصبه ، حتى تكون قادرة على أن تألفه وتتعامل بسلاسة معه ، فتصبح فى أقرب وقت - كما كنت - الواسطة الجيدة فى كل شيئ ، هل نسيت ما كان وأنت ما زلت غارقة فيه ؟ !

لماذا لم تتوقف لتستوقف سيارة برغم ما هى عليه من إجهاد ؟ لماذا لم تحس بجوع مع أنها لم تتناول حتى فى الصباح طعاما ؟ لماذا عدلت عن الشوارع الرئيسية إلى الطرق الجانبية الصغيرة المتداخلة المتقاطعة ؟ كيف ترى ولا ترى ؟ كيف تسمع ولا تسمع ؟ كيف تتوقف إلى جوارها سيارة بعد أخرى ولا تحس ؟ كيف تحملها قدماها ولا تشعر بهما ؟ كيف وصلت إلى النيل ؟ أهى تلك الجالسة تتأمل الأضواء الغارقة فيه ؟ كم مضى عليها حتى التفتت إليها أنظار متسكعة ؟ كيف استطاعت أن تتماسك وهى تركب التاكسى ؟ كيف نزلت أمام منزلها مع أنها لا تعى ما حولها ؟ أهى التى تصعد الدرجات تجرجر أقدامها ؟ هل هى التى تحاول فتح الباب فتخطئ وضع المفتاح مرة بعد مرة ؟

أهى التى لا تكاد تدخل حتى تسند ظهرها إلى الباب وتنفجر فى البكاء فتعض شفتها السفلى حتى لا تصرخ ؟ كيف تمكنت أن تصل إلى فراشها لتدفن فيه وجهها وتطلق برغمها صرخاتها ؟

« اصرخى ، اصرخى ما شئت ، فهذا هو المكان الوحيد الذى لن يراك فيه أحد » .

« آه لو تنامين ، لكن هل تستطيعين أن تنامى ؟ لو أدركك النوم ربما خلف عنك بعض ما فى قلبك ، لكن كيف يأتى والمشاهد تتواثب وتتداخل وتتقاطع حية أمام عينيك لم تزل ؟ كيف تنامين والذاكرة تنزف ما كان وكأنه كائن ؟ كيف يمكن أن تنامى وأنت ترين من جديد الجزئيات الصغيرة والتفصيلات الدقيقة التى ظننت أن الذاكرة قد نسيتها إلى الأبد تبعث لتملأ قلبك حسرات ؟ كيف ترين فى لحظة واحدة المشهدين معا : البداية والنهاية ، ها أنت ذى تدخلين المكتب الفاخر خائفة وجلى تتلمسين خطواتك الأولى فيه بثقة كاذبة وإرادة مصطنعة وعقل مستعار وقلب ظلله اليأس ، وها أنت ذى تخرجين منه مطرودة ذليلة يحرص القواد على أن يركب سيارتك أمامك تشفيا ومع ذلك لا تملكين إلا الابتسام ... كيف تتجاور هذه اللحظات مع تلك المشاهد الأخرى التى سطع فيها نجمك فى الديوان العام وكلما صعدت فى سلم الأمل درجة امتد أمامك رحبا مرحبا ، لا ترين فيه حاجبا ولا تحسين بحاجز ، الأمر حيث كنت بيدك ، حتى بتّ واثقة من بقائك حيث تريدين كما تريدين ، لا يملك أحد أن يمس لك موقفا أو يقول عنك كلمة أو يتجاهل لك رغبة ، يحكمهم الرعب إذ يتوهمون أنك تستندين إلى الجالس فوق الكرسى فأى مساس بك مساس به ، وأنت واثقة من أنه حتى الجالس فوق الكرسى لا يملك لك شيئا ، لأنك كنت تستندين إلى الحقائق لا الأوهام ، الحقائق التى تصنع الكرسى والجالس فوقه .

سنوات لم يستطع أن ينال منك شيئ بعد أن حفظت قواعد لعبتهم جيدا ، وأثبت براعة فى تنفيذها . فماذا إذن حدث ؟ أهى رغبتهم فى التغيير أم خطؤك حين استسلمت واستكنت لوهم أنهم لا يستطيعون إيجاد بديل لك ، أو لو تنامين » . لكن النوم الشحيح الأصم ما يلبث أن تلده الظلمة والخوف والإنهاك فيحل فى الجسد مواتا يستلب السمع والبصر والعقل ويلد أشباحا تتمايل وتتداخل وتشف وتتكاثف فتهطل مطرا أسود تنشق الأرض الجرداء له فتخرج ثمرا عجيبا لا تكاد تمتد إليه يدها حتى يصبح فيضان دم يغرق الأحياء فإذا بهم أموات ويغرق الأموات فإذا بهم يخرجون من قبورهم يرتدون أكفانهم البالية تساقطت جلودهم وتمزقت أحشاؤهم وتكشفت عظامهم يرتادون الطرقات يتكففون تاركين فى كل مكان مروا به بعض بقاياهم يلتهمها الدود نهما حتى لكأن لأكله صوتا أشبه بعزف ريح ، الصوت يتصاعد ويلمع فاذا هو سكين يهوى على الجسد المسجى طولا وعرضا وينفجر من موضع كل طعنة دم أسود لزج عفن الرائحة يمتد خيوطا بغير عدد تتجمع وتتوالى وتترابط حتى تصبح فى ومضة بحيرة تحيط بها من كل جانب ، اصرخى ... اصرخى ... اصرخى ... لكن الصرخات كلما ازدادت كلما شدتها إلى الأعماق اللزجة حتى تأتى اللحظة التى يمتلئ فيها الفم والعين والأذن بالدم الخارج منها والداخل إليها معا .

تستيقظ وكأنها كانت مصلوبة طول الليل ، زاد الجسم همودا والعقل خمودا وفاضت الروح كآبة ويأسا فتدركها تلقائيا رغبات متنازعة ، أتذهب لتسلّم عملها الجديد أم تبقى حتى تستعيد تماسكها ؟ ، تظل حائرة لا تستقر على شيئ زمنا طويلا ، تمد يدها أكثر من مرة إلى التليفون لتتصل بهيئة الكتاب لكنها فى كل مرة تتوقف ، *« عليك أن تمضى فى الطريق الذى لا بديل عن اجتيازه ، لقد حققت أمس بتماسكك نصرا أفسد ما خططوا له فلا يصح أن تسمحى لضعفك أن يمحو ما حققت وأن يتيح الحاقدين متعة التشفى ، إنك فى الهيئة ضمن دائرة الذروة ، فليس فيها من يشغل درجتك الجديدة التى رقيت*

إليها إلا عدد قليل ، ولذلك ستكونين في موقع يسمح لك بأن تدّعي ما تشائين تفسيرا لذلك ، هيا ، احسمي ترددك وتسلحي للذهاب ، وأخذت تستعد بما تملكه من أمضى الأسلحة : المكياج البالغ الروعة ، والعطر الشديد الجاذبية ، والتايير البادي الفخامة ، والاكسسوار الذي يستمد سحره من انسجام عناصره جميعا وتلاؤمه مع الزي والمكياج أيضا . وألقت على صورتها في المرآة وهي في طريقها إلى الخروج نظرة رضا ، برغم ما تمور به الأعماق من انفعالات .

* * *

لم تكد تدخل حجرة السكرتير الخاص لرئيس الهيئة حتى قالت بصوت مفعم بالثقة :

- أميمة سعد ، وكيل الوزارة بالديوان العام ، أريد مقابلة الدكتور .

فرد الموظف الصغير وهو ينهض مخالفا التعليمات التي لديه باستقبال بارد :

- أهلا يا فندم ، شرفت الهيئة . لكن الدكتور ليس موجودا . هل يمكن أن تقابلي الأستاذ وكيل الهيئة .

ردت بتلقائية شابها شيئ من ترفع :

- لا مانع

- تفضلي يا فندم

فسارت خلفه بخطوات وئيدة وقد انتابها إحساس غير عادي . إنها تدرك من خلال تجاربها أن اللقاء الأول تحفظه الذاكرة أياما طويلة ، وأن الانطباع الأول يظل يحكم العلاقة إلى حد بعيد ، وهو ليس أكثر من واحد ممن هم في درجتها ولا ينبغي أن يحس فيها ذرة ضعف ، إنها ستبدأ من القمة ، وعليها أن تواصل البقاء فيها مهما كانت الظروف .

فى اللحظة التى رفعت عينيها إليه وهى تخطو خطواتها الأولى فى حجرة المكتب كانت عيناه تحدّقان فيها ، وظل جالسا خلف المكتب الضخم المغطى سطحه بالملفات المتعددة الأشكال لم يتحرك حتى صارت على بعد خطوة واحدة فنهض متكاسلا ليقول وقد شد على وجهه ابتسامة بدت لها بغير طعم :

- أهلا يا مدام ، شرفت .

ومد يده مسلما مشيرا بالأخرى إلى كرسى أمام المكتب لتجلس عليه . حين سحبت يدها من يده لتجلس انتابها شعور بضيق لم يمنعها من أن تتبادل معه كلمات مألوفة فى انتظار المشروب الذى أصر على تقديمه ، ولكنها مع ذلك ظلت تلقى إليه نظره بعد أخرى محاولة استقراء قسماته فبدا لها محيرا ، كان يظهر فى جلسته خلف المكتب أكثر ضخامة مما كان حين وقف يستقبلها ، وكانت صلعته اللامعة التى استوعبت نصف رأسه يغطيها النمش البنى فبدا أقرب إلى أولئك المفكرين الذين تشغلهم دائما قضايا لا صلة لها بالواقع ويملئون أفواهم بكلمات يلوكونها مستمتعين وكأنهم يمتصون منها رحيق الحياة الأبدية . ولكن عينيه الحادتين الصغيرتين اللتين علاهما الحاجبان الكثيفان المتدان فى قوس متصل من الأذن إلى الأذن وشاربه الكثيف المنطلق فى خط مستقيم فاصلا بين نهاية الأنف المتورمة المحمرة كثمرة برقوق فجة والشفاه الغليظة السوداء كانت توحى بعكس ذلك ، إذ تعطى انطباعا بأنه واحد من المهرجين الرسميين فى فرق الفنون الشعبية ممن استمد خبرته من العمل فى موالد الأقاليم .

لم تمد يدها إلى فنجان القهوة الذى وضعه فراش المكتب على المنضدة الصغيرة أمامها ووجدت نفسها تنتقل تلقائيا إلى الموضوع :

- الحقيقة أن العمل فى مكتب الوزير مرهق جدا ، خصوصا بالنسبة لى لأنه كان يعتمد علىّ فى كل شيئ ، ومنذ مدة وأنا ألح على الباشا فى إعفائى منه ولما وافق أخيرا بعد أن لمس مدى إجهادى خيّرنى فى المكان الذى أحب الانتقال إليه ، فاخترت الهيئة .

- ونحن سعداء جدا باختيارك .

قالها الرجل وقد علت وجهه ابتسامة غير محددة الدلالة . هل كانت ترحيبا أم سخرية ، ثم أضاف بهدوء :

- وجودك معنا كسب كبير ، لكن هناك بعض الإجراءات الروتينية التى تعرفينها .

قبل أن تفتح فمها لتقول شيئا كان يستدعى مدير شئون العاملين الذى لم يلق إليها أكثر من نظرة سريعة مصحوبة بهزة رأس خفيفة وتفرغ ليستمع إلى الوكيل وهو يقدم إليه السيدة ويطلب رأيه فى الموعد المناسب لتسلمها العمل ، فطلب صورة قرار الوزير قبل أن يصدر فتواه ، ثم تأمله بإمعان قبل أن يقول موجها حديثه إليها :

- مبروك على الترقية يا فندم ، لكن هناك مشكلة إدارية تمنع تسلم العمل .

نظرت إليه مندهشة فأضاف مفسرا :

- لا توجد وظيفة وكيل وزارة خالية فى الهيئة ، وقرار النقل لم ينص على نقل الدرجة من الديوان العام .

تساءل وكيل الهيئة بهدوء من يحيط بالموضوع ولكنه يرغب فى إحاطتها به :

- ما معنى هذا ؟

فرد مدير شئون العاملين وهو ينظر إليه :

- معناه أنه إما أن يتم تعديل القرار إلى الندب بدلا من النقل وإما أن يصدر قرار آخر بنقل درجة وكيل وزارة من الديوان العام إلى الهيئة لكى تشغلها المدام .

هل كان وكيل الهيئة يلمّح إلى شيئ حين قال وكأنه يلومه :

- لِمَ لم تطلبوا فى الميزانية ؟

وهل كان مدير شئون العاملين يؤكد ما يلمح إليه الوكيل حين رد :

- طلبنا بالفعل يا فندم ثلاث درجات يستحقها موظفون بالهيئة منذ أكثر من خمس سنوات ، ولكن الوزارة رفضت .

- وما الحل ؟

قالت العبارة بهدوء من يكظم غضبا مكبوتا . فالتفت إليها مدير شئون العاملين وهو يجيب بثقة :

- الحل فى الوزارة .

تساءل وكيل الهيئة :

- ألا تستطيع أن تسلم المدام العمل إلى أن تنتهى إجراءات نقل الدرجة .

فرد مدير شئون العاملين بتلقائية من يضيف عقبة مرسومة سلفا :

- بالرغم من أن هذا خطأ إدارى فهناك مشكلة أخرى ، وهى أن كل الاجراءات المالية ستتوقف لحين نقل الدرجة .

هل كان وكيل الهيئة يشرح أم يسخر حين أضاف :

- كأنك تريد أن تقول إنها ستجد نفسها آخر الشهر بدون مرتب .

همّت أن تقول معقبة :

- نكتة سخيفة .

ولكنها تمالكت نفسها فاستمر الرجل قائلا وكأنه يهوّن عليها الأمر :

- على كل حال ليس استصدار قرار جديد من الوزير على المدام بأمر عسير .

ونهض مادا يده وهو يقول :

- لقد سعدت حقيقة بلقائك ، ونحن فى انتظار إتمامك للاجراءات .

تجاهلت اليد الممدودة وظلت جالسة والتفتت إلى مدير شئون العاملين لتقول بحسم لم يكشف عن ذرة من غضبها :

- سيصدر طبعا القرار الذى تريده ، لكن ما دمت قد حضرت اليوم فسأكتب إقرار القيام بالعمل ليوقعه الأستاذ الوكيل .

رد الرجل مفزوعا وكأنه يعترض .

– والإجراءات المالية ؟

فبادرت بهدوء مهوِّنة عليه :

– دعك من هذه المسألة ، فمن الطبيعي أن أصرف مرتبي هذا الشهر من الوزارة .

ألقى مدير شئون العاملين نظرة استغاثة إلى رئيسه ، هل تخلَّى الرجل عنه أم أحس بأن الرسالة المتفق على إبلاغها إليها قد وصلت بالفعل فقال :

– ما دام الأمر كذلك اكتب إقرار القيام بالعمل لتوقعه المدام .

ثم التفت إليها ليضيف :

– وسأحتفظ به في مكتبي إلى أن يحضر الدكتور ليوقعه بنفسه .

قالت أميمة متصنعة هدوءا مبالغا فيه :

– لا مانع عندي .

والتفتت إلى مدير شئون العاملين لتضيف بصوت غلَّفته نغمة ظاهرة السخرية :

– أظن أنه لا مانع لديك من هذا الحل الذي يرضي جميع الأطراف .

- ٤٧ -

لم تكن المصادفة هى التى جعلت الدكتور شكرى يوقف سيارته الـ ٢٨ إلى جوار فولكس أستاذه الدكتور شوقى أمام مبنى الكلية مخالفا عادته فى وضعها بجوار المبنى الملحق ، ولم تكن مصادفة أن يذهب فور وصوله إلى الكلية إلى حجرته بالقسم لينبه الساعي بأن يبلغ الدكتور شوقى إذا رآه برغبته فى أن يراه لأمر بالغ الأهمية وأن يسرع إليه ليبلغه فورا حتى لو كان مشغولا بالمحاضرات ، ولم تكن مصادفة أن يعود بعد إحدى محاضرتيه إلى القسم مستطلعا قبل أن يواصل محاضرته الأخرى ليخرج منها عجلا إلى حيث ترك سيارته ليطمئن على أن سيارة الدكتور شوقى لم تزل فى مكانها . فيدرك أنه ما زال فى الاجتماع . فقد كان قلقه يتصاعد إلى درجة بالغة الحدة . هل كان يحس بالذنب بالرغم من أنه كان مقتنعا بأنه قد بذل أقصى ما يستطيع فى شرح المستجدات فى الجامعة لأستاذه ؟ ، لقد كانت المسألة فى تقديره أكبر من مجرد موقف يمكن أن تفيد فيه بعض المعلومات ، فالرجل بحكم ظروفه الموضوعية لم يكن على استعداد للتسليم بما قاله له ، حتى لو استوعب دلالته ، قال شكرى لنفسه بحسرة من يحس بأنه أمام كارثة يعجز عن دفعها : « *ليس سهلا أن يستطيع رجل كالدكتور شوقى عاش مترفعا عن الصغائر أن يتعامل مع الأذكياء الصغرة الذين قننوا الفهلوة وجعلوها علما يزرى بذكاء مكيافيللى* » .

وحين مل من الانتظار فى القسم وإرسال الساعى لاستطلاع السيارة فى موقعها مرات متعددة تركت آثارها عليه فتذمرت تلكؤا آثر أن ينزل بنفسه إلى الساحة الفاصلة بين الكلية وإدارة الجامعة ليراه فور خروجه من الاجتماع . ولكن شوقى تأخر أكثر مما توقع فأخذ شكرى يقطع المسافة من موقع السيارة إلى مدخل الإدارة القريب جيئة وذهابا وذهنه مشدود إلى القاعة الفسيحة التى يتخذ منها رئيس الجامعة مكتبا حيث يفترض أن يتم الاجتماع . ولما حل به الإعياء جلس فى سيارته ينتظر متظاهرا بالانهماك فى قراءة بعض ما فى حقيبته من أوراق ، وعيناه لا تكفان عن التطلع إلى المدخل الذى يقع فى مرمى البصر بحثا عن أستاذه فيمن يهبطون درجاته القليلة ، وتوتره يزداد مع مضى الوقت لحظة لحظة ، لم يكن يريد لأستاذه الذى يحبه ويجله أن يراه أحد وهو فى حالة غير لائقة إثر لقاء كان شديد الثقة بأنه لابد أن يكون عاصفا بصرف النظر عن الموضوع الذى يبحث فيه ، تمتم فى أسى وهو يلقى ببصره إلى السلم من جديد « ***لتجاهل الواقع دائما محاذيره ، من المؤكد أنه عاجز الآن عن فهم ما يرى وما يسمع*** » ورويدا رويدا عادت إلى الذاكرة ذكريات الأيام الخوالى ، منذ أكثر من عشر سنوات ، حين التحق بالكلية وتعرف على الدكتور شوقى فى قاعات الدراسة فانبهر به ، وزاده انبهارا شموخه وسيطرته وأعتداده وترفعه وتمكنه حتى لكأنه منح قدرة خارقة على التحليق الدائم فى الآفاق الرحبة التى لا تحدها قيود مما أهّله لكى يطلق عيه صفوة تلاميذه (جوبيتير) تعبيرا عن إعجاب بلغ حد الهوس ، ولكنه لما اقترب منه بعد ذلك ليتابع تحت إشرافه دراساته العليا أحس بأن شموخه وتساميه يصدران عن رغبة حقيقية فى تجاهل الواقع ومحاولة الابتعاد عن مشكلاته ، وبينما كان يستبد به وببعض زملائه الذين يحبونه الغيظ لما يلمسون من تعمّد تجاوزه والاعتداء على بعض ما ما له من حقوق طبقا للتقاليد الجامعية كان يقابل موقفهم بنوع من الامتنان الصامت دون أن يتجاوز ذلك إلى المواجهة والتصدى ، مكتفيا بتفسيراته الساخرة بأن الصغار دائما تحكمهم الرغبة فى تجاهل الكبار فى محاولتهم إثبات الذات ، وأن على الكبار أن يدركوا ذلك وإلا كانوا بدورهم صغارا . وقد مضت مدة طويلة قبل أن يستسيغ شكرى

هذا السلوك ، حين فهم الأسباب الإنسانية التى جعلته نهاية طبيعية لقصة نضال درامى شديد القسوة ترك آثاره النفسية الرهيبة عليه فأسلمه إلى اليأس ، ولكنه كان فى يأسه جليلا لم يسقط فى شَرَك التكيف مع الواقع كما حدث لكثيرين مثله ، وإنما على العكس من ذلك فرض على نفسه ستارا حديديا صارما لا تتخلله ثغرة واحدة يمكن أن يتسلل منها الضعف ، ورفض باستمرار أن يُستدرج إلى المشاركة فى أى عمل يمكن أن يُفهم منه إقراره للأمر الواقع ، حتى الأعمال ذات الطابع الثقافى كعضوية اللجان الفنية ، مبررا موقفه بعبارته المأثورة التى كان يتداولها تلاميذه فى مواقف كثيرة : « *كل هذه محاولات مكشوفة لتجميل الوجه القبيح لثقافة سقطت فى الوحل* » وحين كان يعترض عليه ضمن المعترضين من خلصائه المقربين بأنه إذا شارك سيحقق من الداخل ما لا سبيل إلى تحقيقه من الخارج كان يرد بأن هذا مجرد وهم يتعاطاه الراغبون فى تخدير أنفسهم ، لأن الثقافة الرسمية تعبير مباشر عن توجهات السلطة ، والسلطة إفراز تلقائى للوضع الطبقى ، مكتفيا بعد ذلك بعبارته ذات الوجهين : « *أظنكم لستم فى حاجة إلى أن أشير مجرد إشارة إلى من تنحاز السلطة ، وهذا يفسر كل شيئ* » فهل فى وسع رجل على هذا النحو أن يلتقى بأى صورة مع النمط السلوكى الذى يفرضه العصر للقيادة فى مجتمعنا ؟ إنها لمأساة حقا .

– أنت هنا ؟

التفت فرأى أستاذه الذى طال انتظاره له يخاطبه وقد توقف أمام باب سيارته ، كيف لم يره حتى وصل إليها ؟ دفعه إحساس مركّب تداخلت فيه مشاعر متباينة من الخجل والفرحة والتوتر والطمأنينة والقلق والرغبة فى الاستطلاع إلى أن يقفز من سيارته مغمغما بصوت لم تتميز فيه الحروف :

– كنت فى انتظارك .

ولم يشأ أن يزيد حتى لا يثير حساسيته المفرطة فى لحظة يعرف مدى حاجته إليه

فيها ، ولذلك لم يرغب أيضا فى أن يتأمل وجهه الذى كان يفيض بأحاسيس مضطربة إن عبرت عنها قسماته ضمنا فقد هتفت بها عيناه صراحة .

– لماذا ؟ ماذا تريد ؟

هل كان شكرى يتوقع السؤال إذ أجاب بعجلة من أعد الاجابة سلفا فى حين أنه لم تخطر بباله الفكرة إلا فى هذه اللحظة :

– كنت أعيد أمس قراءة بروميثيوس مرة أخرى وألحت على أفكار كثيرة أحببت أن أناقشها معك .

نظر إليه أستاذه مليا وقد استند بجذعه إلى مقدمة السيارة « *وصلت رسالتك يا بنى ، إننى أدرك أنه ما حملك على الانتظار إلا حرصك على ، ولن يحملنى على التظاهر بتصديقك الآن إلا حرصى على أن يظل أستاذك النموذج الأمثل الذى تتطلع إليه أعماقك ، آه أيها العزيز ، إن مثلك هو الذى يمنح الانسان القدرة على مواصلة الحياة* » .

قال الدكتور شوقى بصوت لم يخطئ شكرى فى لمس نغمة الحزن والتأثر فيه :

– لست راغبا فى الذهاب إلى القسم ، فما رأيك فى أن تتبعنى لنذهب إلى أى مكان قريب نتحدث .

كاد شكرى يهتف بالموافقة لولا أن خطرت بباله فكرة :

– أقترح عليك اقتراحا آخر ، أن أصحبك فى سيارتك لأننى أخشى أن تتوقف سيارتى .

نظر إليه أستاذه مستطلعا فأضاف :

– إنها تحتاج إلى كهربائى .

واستمر كأنه يعابثه :

- على كل اطمئن لن تضطر لإعادتى إلى الكلية ، وتركها هنا أفضل من أن تتوقف فى الطريق .

ظل أستاذه ينظر إليه وكأنه يفكر فأكمل يحثّه :

- إنها كثيرا ما تفعلها معى ، وهنا على الأقل مكان آمن .

هل اقتنع أستاذه بالمبررات حين مد إليه يده بالمفتاح وهو يقول :

- موافق ، ويمكنك أيضا أن تقود .

فرد شكرى بحب حقيقى وهو يفتح لأستاذه الباب المجاور لعجلة القيادة :

- بل القيادة لك دائما .

تمتم الدكتور شوقى وهو يتجه إلى الباب الآخر :

- بل ستقود أنت .

وما كاد يجلس فى السيارة حتى أطلق زفرة حرّى خالها شكرى لفرط شدتها مصحوبة بلهيب فتحاشى أن ينظر إليه حتى لا يقتحم مشاعره التى أحس أنه على وشك الانغماس فيها غائبا عما حوله ، ولكن السيارة ما كادت تتحرك حتى التفت شوقى إلى تلميذه ليقول :

- ماذا تتوقع أن يكون قد دار فى الاجتماع ؟

هل جاء السؤال مفاجأة لشكرى فلم يستوعبه أو آثر أن يظل صامتا وقد أيقن أن السؤال ليس إلا تعبيرا عن رغبة فى التفكير بصوت عال فقرر ألا يتدخل فيه حتى يتركه يمضى يحفر مجراه دون مؤثر خارجى .

استمر شوقى دون أن ينتظر إجابته :

- هل يمكن أن تتخيل أن يكون أستاذك معهم فى خندق واحد ؟

برغم حرص شكرى لم يتمالك نفسه فتساءل بدهشة :

- ضد من ؟

لماذا نظر أستاذه إليه لائما ، هل أخطأ حتى يُعرض عنه كأنما مسته بالسؤال إهانة ، تلك عادته مع محبيه من تلاميذه ، لكنه - كعادته أيضا - لابد أن يُتبع غضبه بمحاولة غير مباشرة للشرح :

- إنك لم تستبعد الاحتمال .

رد شكرى بحذر من لا يرغب فى الوقوع فى خطأ :

- أعرف آراءك ومواقفك جيدا ، لكننى أظن - مجرد الظن - أن ظروفا موضوعية معينة قد ...

لم يمهله حتى يكمل عبارته وقاطعه بغضب حقيقى :

- لن يستطيع أى ظرف ، حتى لو كان تهديدهم لابنتى ، أن يحملنى على أن أتعاون مع عملاء عصر العمالة .

بادر شكرى كأنما يفسر :

- أنا لم أقصد طبعا ، ولكنى تصورت السؤال من قبيل الافتراضات ، من باب الاحتمالات العقلية ليس إلا ، فقلت لو أن ...

من جديد قاطعه شوقى :

- وحتى من هذا الباب يصبح التفكير فيه خطيئة .

لم يملك شكرى إلا أن يقول بصدق :

- آسف ، آسف جدا .

ولما لم يلق استجابة لأسفه أضاف محاولا تهدئته :

- ماذا أقول ، إنك أنت الذى علمتنا التفكير فى الاحتمالات .

فردّ أستاذه بأسى :

- الثوابت لا تقبل الاحتمال بحال ، ذلك ما كنت أقوله دائما ، لكنك نسيت .

صمت شكرى كأنما يخشى أن يعقّب ، فأضاف أستاذه :

- تذكّر أن الاختبار الحقيقى للانسان حين يمتحن فى ثوابته .

مضت السيارة بهما دون غاية محددة وقد شملهما صمت أحس له كل منهما فى أعماقه بضجيج ، صمت شكرى حائرا وصمت أستاذه ثائرا ، لم يعرف شكرى كيف يعيده إلى الحديث وأخذ يستكشف المسالك ويختبر الدروب حتى لا يسلمه أحدها إلى خطأ آخر ، وعجز أستاذه عن أن يفسر لنفسه كيف لم تتضح ثوابته حتى الآن لدرجة أن أقرب تلاميذه إليه فى لحظة الاختبار الحقيقى اختلطت عليه الأمور ، هل كان للسخط الذى أثمرته المقابلة أثر فى غرس بذرة رفض للذات ؟ من قبل كان ينظر إلى ما لا يفعل معتزا بموقفه الرافض فى المشاركة ، فلماذا فى هذه الأيام لا يرضيه ما لا يفعل وينظر إلى ما كان يجب أن يفعل ؟ « *كان ينبغى أن تصل رسالتك إليهم فورية فى اللحظة نفسها التى يلازمهم فيها الزهو بأنفسهم وسلطتهم دون أن تغمرك غيبوبة الإحساس بالهزيمة ، لكنك فوّتّ اللحظة المناسبة لإعطائهم درسا كما فوّتّ لحظات كثيرة مناسبة من قبل ، صمتك وحده ليس كافيا أيها المحارب القديم ، فقد أغرى صمتك من يعرفك أفلا يكون أقدر على إغراء من لا يعرفك ، آن لك أن تعترف بأنه ليس بالصمت وحده يكون الصمود* » .

فجأة قطع شوقى الصمت متسائلا :

- ماذا تعرف عن المتطرفين ؟

ظل شكرى صامتا وكأنه لم يسمع السؤال ، فأعاده شوقى بصوت أعلى مردفا وكأنه يحذره :

- لا تقل إنك لا تعرف عنهم شيئا .

اضطر شكرى أن يقول :

- بل أعرف القليل .

- مثل ؟

- أنهم مجموعات متناحرة من المغلقين فكريا ولكنهم يجتمعون على هدف واحد هو إقامة دولة دينية .

- ما داموا يتفقون على الهدف يكون اختلافهم محصورا فى الوسائل .

- ربما .

تابع شوقى :

- أى نمط سلوكى يمثلون ؟

رد شكرى بتلقائية :

- إنهم شديدو التعصب سيئو الظن بكل شيئ .

استدرك شوقى :

- تقصد سلوكهم الجماعى . على أى حال هذا موقف طبيعى فى ظل الظروف المعادية التى تحيط بهم .

وصمت برهة قبل أن يتابع أسئلته :

- وعلى المستوى الفردى ؟

أوشك شكرى أن يقول : « *سل ابنتك* » ولكنه آثر الصمت لحظات لم يجد بعدها بدا من أن يقول :

- أظن أننى سبق أن قلت لك إنهم فى اللحظة التى سيطروا فيها على الاتحاد أوقفوا

النشاط الفنى ، ومنعوا أيضا كل نشاط ثقافى معاد لا تجاههم ، إنهم لا ينتمون بالقطع إلى عصرنا بل تحكمهم تطلعات غير مفهومة إلى عصور الظلمات .

هل استمع شوقى إلى ما قاله تلميذه أم لم يستوعبه حين قال باستهانة :

- هذه هى المعلومات الرسمية التى تروجها أجهزة الاعلام ، أريد المعلومات المباشرة والشخصية .

من جديد صمت شكرى ثم قال وكأنه يعتذر :

- ليس لى بهم اتصال مباشر .

هل كان شوقى يتساءل أم يستنكر عندما عقب :

- ولماذا لا يكون ؟

✍ ✍ ✍

- ٤٨ -

مد ماهر يده فتناول زجاجة (الجن) التى ما زال فيها أكثر من نصفها ليصب لنفسه كأسا جديدة ولكنه عدل ، وقربها مباشرة إلى فمه فرشف منها رشفة صغيرة أتبعها بجرعة مشبعة ضم على أثرها شفتيه بين أسنانه وأخذ يمتصّهما قبل أن يضع الزجاجة على المنضدة الصغيرة إلى جوار التليفون ، ثم أخذ من جديد يتابع حركته التى يتواصل فيها الجلوس والقيام بعد أن أحس بأن مكانه المفضل على الشيزلونج قد نبا به فلم يعد يمنحه الراحة التى ألفها منه ، وهكذا ظل ينتقل من مقعد إلى آخر ، لا يكاد يستقر على أحدها دقائق حتى يحس بقلق يحمله على أن يتركه إلى غيره ، كيف بقى هذا الإحساس ساعات طويلة دون أن يضمحل ؟ لماذا لم يتبخر مع تجاهله لأسبابه كما تعود أن يحدث حين يصرف نفسه قسرا عن التفكير فيما لا يحب ؟ حاول مرة أخرى أن يشغل نفسه بمتابعة أخبار المعركة بعد أن بلغت مرحلة متقدمة على الطريق المرسوم ، وكانت الأخبار جديرة بأن تغمره فى الظروف العادية بالرضا ، بعد أن أصبح الكتّاب المشهود لهم بالاعتدال والتحفظ طرفا أصيلا فيها ويمضون فى نفس الاتجاه ، وبعد أن أخذ علماء الاجتماع والتاريخ والفلسفة وعلم النفس يعرضون بالتحليل لجوانب العبقرية فى البرغوتى ، كلٌ من زاوية تخصصه ، وقد أجمعوا – برغم اختلاف منطلقاتهم – على

أن الجائزة تعبير محدود لرجل متنوع بغير حدود ، لقد كان هذا كله كفيلا بأن يملأه بالسعادة ، ولكنه – للعجب – حفزه إلى السخرية حتى قال :

– لماذا تتعجب ؟! ، من المؤكد أن هؤلاء العلماء الأفاضل أحفاد كهنة عجل أبيس .

ورفع الزجاجة إلى فمه من جديد .

« لا فائدة ، أنت فى حاجة إلى صحبة تخفف عنك بعض ما تعانيه ، صحبة تجهدك جسديا لتنأى بك عن التفكير » هل واتته الفكرة فجأة أم كانت بحكم العادة محاولة للانتقال تلقائيا من مرحلة أحس فيها ببوادر نوبان سيطرة عقله على لا شعوره ، وهو فى مثل هذه اللحظات لا يحب الانفراد بنفسه ، ويهرب من الصحبة التى تثير فكره ، إذ إن الانفراد يحمله دائما على التفكير غير العملى ، التفكير فى اختياراته واتجاهاته ، ومثل هذا التفكير يحمل إليه حين يكون وحده ملامح قنوط يشارف حافة الإحباط ، إذ يحس – لا يدرى كيف – أن كل ما يحققه هباء ، وأن بعض رفاقه القدامى الذين خلفّهم مغمورين فى بيداء الماضى السحيق وطواهم النسيان ينهضون من جديد ليبعثوا فى الذاكرة وميضا يملأ القلب دفء الاعتزاز بهم وشرف الانتماء اليهم ، وفى هذه اللحظات تكون الصحبة المثيرة فكريا مثار خطر ، لأنها تستطيع أن تستل منه ما لا يريد الاعتراف به .

« فتش فى ذاكرتك عمن تعرف الشلة فلست فى حالة تسمح لك بالخروج » .

أمسكت يده بالتليفون وأخذ يطلب أرقاما قريبة العهد ما زالت حية فى الذاكرة ، واجهه بعضها بالصمت ورد بعضها الآخر بفتور مغلّف بدهشة من جاء الاتصال فى وقت غير مناسب وشرع بعضها الأخير فى حديث من ترغب في التمهيد للقاءات قريبة مما يعنى عدم الاستعداد لاستجابة فورية ، فكان يختزل الكلمات فى تحية سريعة لا يعقبها طلب مباشر ، فإنه ليس فى حاجة إلى ترتيب لما سيأتى بقدر حاجته الملحة إلى صحبة آنية .

إلى أن جاءه صوت أميمة بلهجتها الحازمة تسأل عن الطالب فأجاب بمرح مصطنع :

- قبل أن تستخدمي لسانك الطويل ، ماهر الجندى يقدم التحية .

حمل إليه التليفون صرخة مفاجأة أتبعتها بلهفة :

- تعرف ؟ كنت أفكر فيك .

- ولماذا لم تتصلى ؟

- قلت فى نفسى لابد أنك مشغول .

- حتى لو كنت ، أنت لا تعرفين مكانتك عندى .

- لا يا شيخ .

هل كانت تلومه بعبارتها على ما كان أم تحثه على المزيد ؟

- حقيقى اشتقت اليك ، وأريد أن أراك .

ما الذى خطر ببالها حتى تسأله :

- هل تريد شيئا ؟

وهل أدرك ما وراء سؤالها حين أجاب :

- أريدك أنت

تساءلت ضاحكة :

- أنا ؟

فرد مؤكدا :

- الآن ، فورا .

هل قصدت أن تثيره أم أن تستثير الذكريات القديمة لما قالت :

- بعينك .

وهل نجحت حيلته لما رد مهددا :

- إن لم تحضرى الآن فسأحضر أنا إليك لأرى ماذا تفعلين .

قالت بذعر مصطنع :

- أعرف أنك مجنون ويمكنك أن تفعلها .

ثم أضافت متسائلة :

- ألا تستطيع الانتظار ؟

فرد بعجلة من حسم الأمر :

- ولا دقيقة واحدة .

رنت فى السماعة ضحكة مترنمة قبل أن تقول :

- مسافة السكة على الأقل .

- بل قولى على الأكثر ، فلست مستعدا لأن يطول انتظارى .

تابعت ضحكتها وهى تضع السماعة وتقول :

- مجنون .. مجنون حقيقى .

* * *

هل أيقظ أميمة صوت غطيط ماهر الذى راح يصك بانتظام أذنها أم ثقل ذراعه التى تسترخى فوق صدرها ، فتحت عينيها ببطء فتسلل إليها اللون الوردى المنتشر حولها فجعلت تغمضهما وتفتحهما مرات قبل أن تشرع فى التمطى وهى تتثاءب لتسترد وعيها ، ثم أخذت تتفحص ما حولها لتكتشف أنها غارقة بين ذراعيه الممدودتين حتى آخرهما ، إحداهما تحت خاصرتها والأخرى من فوقها ، التفتت برأسها إليه وراحت

تتأمل الوجه الوسيم وقد مسته الغفوة فبدا شديد الجاذبية فأدركتها رغبة بالغة فى أن توقظه ، امتدت تلقائيا أصابعها لتلمس بحنان دافق ساعده وعضده وارتفعت ببطء فلامست كتفه ، ثم انحدرت إلى صدره ، بعثت فيها لمساتها تيارا جارفا من النشوة حتى أخذت تقضم دون أن تشعر باطن شفتها ، ولكن حين أدركت أنه لا يستجيب حل بها شيئ من التكدر ، فسحبت نفسها قليلا إلى أعلى لتسند ظهرها إلى الساتان الذى يبطن الفراش وأخذت تنظر إليه بإمعان ، وهمت أن تنحنى لتداعب أذنه بشفتيها ، فمالت عليه وقد ضمت رأسه إلى صدرها ، ولكنه ظل مستغرقا لا يحس ، فتصاعدت رغبتها فى إيقاظه ولكنها فى نفس اللحظة وأدت كارهة رغبتها إذ خطر لها خاطر « *لو استيقظ دون أن يأخذ كفايته نوما سيصيبه الكدر ، دعيه حتى يستيقظ وحده ، فمن حقه أن يستريح ، ومن واجبك ألا تشقى عليه ، حذار ... وإلا طار ثانية* » . مدت يدها برفق فنحت ذراعه التى سقطت على جذعها وتسللت من الفراش ومضت إلى الحمام ، وحين عادت دارت عيناها فى الحجرة بحثا عن حقيبتها إلى أن تذكرت أنها لابد أن تكون فى الأنتريه ، فسارت إليه وهى ما زالت تجفف جسدها فأخذتها وأخرجت منها زجاجة العطر الباريسى ومست به أذنيها وعنقها وصدرها ، ثم شرعت ترتدى بأناة ملابسها ، وحين انتهت التفتت إليه وتأملت باعتزاز وجهه وقد عزمت على أن تتركه عائدة إلى بيتها ، ولكنها – لفرط دهشتها – وجدت نفسها تصعد مرة أخرى إلى الفراش لتستلقى بين ذراعيه وتشدهما بإحكام حولها وقد أولته ظهرها ، ومن جديد أغمضت عينيها .

« *لماذا لا يتوقف الزمن الآن ، فى هذه اللحظة ، وأنت فى مكانك هذا ، بمشاعرك هذه ، لماذا لا توجد لدينا القدرة على أن نحكمه بدلا من أن يحكمنا ، أن نفعل به ما نريد بدلا من أن يفعل بنا ، لماذا يعاندنا ، لماذا تنقضى اللحظات التى نحب لها أن تمتد وتمتد اللحظات التى نريد منها أن تنقضى ، لماذا تعود إلى الذهن أحداث تلك الساعات الكئيبة وكأنها لم تبرحه ، إنك تدفعين كل ما تملكين لكى*

تُطوى صفحتُها ويُلقىَ بها فى بئر بغير قرار » .

هل تحرك مبتعدا عنها أم كان ذلك وهما ، أهى تزداد عنه بعدا ، ما هذه القشعريرة التى تحس بها تخترق عظامها وكأنها قطع من الثلج تشع فيها ألم الاختناق ، إنها تعانى إحساس من يجثم على صدره جبل بغير حدود ، إنها تتفتت تحته تنصهر وتذوب ، إنها تتحول شعاعا يخترق طبقات الفضاء حتى يتلاشى ، ولكنه يرتد ثانية فيتكثف ويتجمع ويعود كما كان شعاعا ينعكس على الأرض فيخترقها طبقة بعد طبقة حتى تتلقاه بحيرة من حمأ مسنون فإذا بها تعيده جسدا حيا يملأه روحها ، لكنها فى البحيرة تغوص فيملأ الرعب كل ذرة فيها ، هل تصرخ طالبة النجدة ولكن أنى لها أن تجد من يسمعها ، إنها برغم ذلك تصرخ وتصرخ حتى تتخلّق صرخاتها أشباحا تتحرك ، لكنها لا تكاد تستمر فى صراخها المفزوع حتى تفر لهول صراخها أشباحُها ، ترفع يدا تحاول استبقاءها ولكن يدها تسقط إلى جوارها قطعة حجر صماء ، تفتح ذاهلة عينيها فإذا به أمامها ، تمد يدها إليه فلا يراها ، فقد كانت هى الأخرى جزءا من ركام حجرى أخذ يتفتت تحت وطء قدميه ، لماذا لا ينظر تحت قدميه ؟ لو نظر تحت قدميه لرآها ، أمَا من وسيلة لحثّه على أن ينظر ليراها .

– ماذا أصابك ؟! كفّى عن الحركة .

جاءها صوتُه المتكدر طوق نجاة شدها من غفوتها ففتحت عينيها دهشة ، برغم ما رأته من تجهمه وانفعاله أدركتها سعادة من اكتشف أن كل ما كان يعانيه مجرد كابوس سخيف مزعج ، التصقت به وقد تفجر فيها الامتنان صادقا وحاولت تقبيله عرفانا ولكنه نحّاها بضيق ، فقالت مفسرة :

– حلم فظيع .

فرد بجفاء :

– لو كنت أعلم أن أحلامك هكذا لوضعتك تحت السرير .

ابتسمت وكأنه قال نكتة وأضافت لائمة :

- أنت السبب ، لماذا لم تكن تريد أن تساعدنى .

فنظر إليها مستغربا وهو يقول باستنكار :

- نعم ؟!

فاستمرت :

- كنت أريد أن ألفت نظرك وأنت مصمم على تجاهلى .

قال بهدوء من بدأ يطيب له الحديث ولكنه يتظاهر بالدهشة :

- تلفتين نظرى أكثر من هذا ؟

هل كان ما أصابها خجل حقيقى أو مصطنع وهى تقول :

- لا تكن سخيفا ، إننى أتكلم عن الحلم .

وهل كان ما أصابه جدٌ حقيقى أو مصطنع وهو يحدث صوتاً أنفياً قبل أن يرد :

- وأنا أتكلم عن الواقع .

ما الذى حمله على أن يقذف بالغطاء بعيدا ؟ هل كان مفاجأة له أن يراها مرتدية ملابسها حتى يسألها فى دهشة حقيقية :

- متى ارتديت ملابسك ؟!

وهل قصدت أن تستثيره وهى ترد متسائلة بدهشة مصنوعة :

- ومتى خلعتها حتى تسألنى ؟

هل كان يتجاهل دلالة عبارتها أم يؤكدها حين قال بغبطة من أدركته ذكرى غير عادية :

- أعرف واحدة لم تكن تنام إلا وهى ترتدى ملابس السهرة .

رنت ضحكتها بعذوبة وقالت وهى تشرع فى النهوض من الفراش يتكاسل :

- لابد أنها من النوع الذى يأخذ راحته على الفوتيهات فى الصالونات وفوق المكاتب .

فجلجلت ضحكته وهو يمسك بمعصمها معقبا :

- من النوع الذى لا يفضل النوم إلا على الأرض .

* * *

هل كان قد أفاق تماما لما سألها وهو يراها تقف أمام المرآة لتضع لمساتها الأخيرة استعدادا لعودتها إلى بيتها :

- متى أراك ثانية ؟

وهل كانت ما زالت تهوّم مع أطيافها حين ردت مبتسمة وقد أسعدتها دلالة السؤال:

- وهل أستطيع أن أعصى لك أمرا .

كيف أرضته الكلمات ومع ذلك لم ينبس مكتفيا بابتسامة غامضة حملت إليها مشاعر متباينة فعقبت باستكانة وقد طارت ابتسامتها :

- سأنتظر اتصالك .

وبدأت تخطو فى اتجاه باب الحجرة ، ولكنها ما كادت تصل إليه حتى توقفت ، هل كان خاطرا قديما ذلك الذى داعب رأسها أم قرارا جديدا ، التفتت اليه واقتنصت عينيه قائلة بدلال :

- كدت أنسى ، عندى لك مفاجأة .

هل كان يحدّس دوافعها الحقيقية حين رد باستهانة :

- لا أحب المفاجآت .

وهل كانت تغريه أم تؤكد إذ اتسم صوتها بالجد :

- لا تتسرع ، فرصة لترى أشياء مهمة .

بدا صمته لها رفضا وكأنه يقول : وهل لديك ما لا أعرفه ، فاضطرت أن تفسر :

- إنها مجموعة الوثائق الخاصة ، البالغة السرية .

هل أراد باستهانته الظاهرة أن يحرضها على المضى إلى نهاية الشوط بالرغم من أنه قد أخذته المفاجأة :

- ليس فى البلد سر ، كل شيئ معروف .

ما الذى حملها على أن ترد بتحد :

- أنا متأكدة أنك إذا رأيتها ستعرف أسرارا كثيرة .

تمتم ساخرا ليدفعها حتى تخطو خطواتها الأخيرة بإصرار لا تراجع معه :

- هل تظنين أن وزيرك يعرف ما لا أعرف .

اكتفت بأن فتحت حقيبتها وأخرجت من جيب داخلى فيها بضعة أوراق مصورة ، لوحت بها أمامه قائله بثقة :

- لو اطلعت عليها لعرفت صدق كلامى .

وعادت لتجلس إلى جواره على الفراش وقدمتها إليه بدلال كأنها تتعطف وهى تضيف :

- عدنى أولا أن تعترف ولا تعاند .

مد يده متثاقلا وأخذ ينظر فى الأوراق ، فى حين أخذت تتابع بدقة انفعاله فلما وجدته جامدا قالت كأنما خاب أملها :

- إنها مجرد نماذج قليلة ، هناك الكثير .

سألها دون أن يظهر عليه أى أثر لما يقرأ :

- ولماذا إذن هذه الأوراق بالذات .

هل كانت تتحداه لتستثيره حين ردت :

- لأنها الأوراق الأقل أهمية فى الملف السرى .

ألقى بالأوراق على الكومودينو باستهانة مصنوعة وهو يعقب :

- قد أقرؤها بعد أن أستريح ، وإن كان واضحا أنه لا قيمة لها .

هل أرادت بإظهارها التردد أن تنفى أو تؤكد ما أرادته من البداية :

- هل ساتركها ؟

وهل أراد بإجابته بالفعل أن يخيّرها :

- يمكنك أن تأخذيها وأن تتركيها ، كما تريدين .

ثم أضاف بهدوء من يرغب فى تبديد قلق ظهرت مقدماته واضحة :

- على كل حين تعودين ستجدينها فى مكانها ، لن تطير طبعا .

قالت مفتعلة ضحكة وصوتها يشى بقلق حقيقى :

- تذكر أنك لم تعرف هذه الأشياء عن طريقى .

رد متصنعا الجد وهو ينظر بعمق فى عينيها :

- أنت نسيت درسنا الأول .

صمتت وقد أصابتها مفاجأة ، فتابع وهو لا يزال يحدق فيها :

- إن الصحفى لا يكشف مصدر معلوماته أبدا .

ظلت صامتة ، ربما كانت فى حاجة إلى تأكيد ، فأضاف :

- وإن كانت هذه الأشياء لا تعتبر معلومات ، إنها منذ النظرة الأولى فيها لا تتضمن شيئا له قيمة ، كلها أمور معروفة .

هل اقتنعت حتى تعقب :

- يمكنك أن ترى ما هم أهم منها .

هل أراد بتلقائيته ألا يظهر اهتماما قد يجعلها تحس بخطورة ما تقدم عليه مكتفيا أن يقول بهدوء مقصود أقرب إلى اللامبالاة :

- يمكنك أن تحضر يها معك إذا أحببت .

- متى ؟

- غدا .

- متى :

- فى نفس الميعاد .

واستدرك كأنه يتمنى :

- لو أنك كنت تستطيعين الحضور فى الصباح قبل أن أذهب إلى الجورنال .

هل فاجأته لما ردت بعفوية :

- ولم لا ؟

فتساءل كأنما يتثبت مما سمع :

- والوزارة ؟

فأجابت بنغمة تجمع بين الحزن والسخرية :

- لا تحمل هما ، لقد أخذت إجازة طويلة .

رد بدهشة :

- الآن ؟! فى هذه الظروف ؟!

لماذا اكتفت بأن تكرر عبارته وكأنها تخاطب نفسها :

– الآن ، فى هذه الظروف .

وهل تستطيع أن تصارحه بأنها طردت دون أن تدرى سببا من عملها المرموق فى الديوان العام ولم تستطيع أن تتسلم العمل فى أى هيئة من الهيئات التى نقلت إليها ، إذ أخذ المسئولون عنها يتبادلون التخلص منها كثمرة معطوبة ، فلما تمكنت بعد عنت من رفع أمرها إلى معالي الباشا أبلغها بحسم وبدون حياء أن تلزم بيتها حتى يصدر قرار جديد بشأنها .

نهضت ببطء وقد انتابتها مشاعر مبهمة تاركة الأوراق حيث ألقاها ، هل كان هذا ما أرادته منذ البداية ؟ وهل كان ذلك صوابا ؟ لماذا إذن تدركها فى اللحظة نفسها مشاعر يختلط فيها الانقباض والإصرار والحزن والراحة واليأس والأمل جميعا .

* * *

ما كاد ماهر يسمع صوت إغلاقها الباب وراءها حتى مد يده بعجلة فالتقط الأوراق الملقاة على الكومودينو وشرع يقرأ بأناة وقد استبدت به رغبة طاغية فى أن يعرف بدقة محتوياتها ، لقد كانت النظرة الأولى إليها كفيلة باستثارة اهتمامه ولكنه حمل نفسه على التظاهر أمامها بعدم أهميتها حتى يحصل على المزيد ، أما وقد حقق هدفه بذكاء يحمده لنفسه فقد انطلقت رغبته دون عائق بعد أن لم يعد ما يبرر تأخره عن استيعاب ما لديه ، لكنه بعد أن أخذ يقرأ باهتمام أدركه إحساس مؤلم بأنها ليست أقل منه ذكاء ، فلم تكن الأوراق سوى أشتات متفرقات من تقارير مختلفة ناقصة ، كل بضعة أوراق منها جزء من تقرير يفتقد ما يكمله ، لقد قصدت أميمة ألا تقدم إليه موضوعا واحد كاملا ، بل أن تلهب شوقه إلى موضوعات متعددة كل منها شديد الحساسية حتى يظل فى حاجة إلى ما عندها . ألقى بالأوراق مرة أخرى ساخطا وهو يتمتم حانقا ، « *إنها شديدة الخبث* » ، وحاول أن يسترخى فى الفراش وجذب الغطاء إلى رأسه كما تعود حين

يكون مأزوما ، لكن ... أنّى له الاسترخاء ؟ لقد كانت آثارها تحيط به من كل جانب ، وتقتحمه بإصرار حتى وهو مغمض العينين ، لكنه لم يلبث أن وجد نفسه يأخذ اتجاها آخر فى التفكير ، إنها تلعب معه لعبة ذكاء ، وكأنها تقول له : إنك لن تفهم إلا ما أريد لك أن تفهمه ، حاول أن تفهم مما لديك شيئا إن استطعت ، فانتابته نوبة تحدّ : « ***الذكاء خصيصتك المعترف بها لك ، ولا ينبغى لأحد أن ينتصر فيها عليك*** » وهكذا وجد نفسه يفكر : ما الذى يمنع من أن يحاول من خلال ما بين يديه أن يقف على الأقل على عدد التقارير وموضوع كل تقرير .

وشرع يقرأ من جديد وقد تسلح بكل ما لديه من فطنة وتركيز .

كانت الأوراق الأولى أقرب إلى أن تكون جزءا من تقرير أو من محضر اجتماع لهيئة ما ، ربما كانت للتخطيط أو للمتابعة ، فقد كانت الصفحات الأولى والأخيرة غير موجودة ، والصفحات الموجودة تتضمن طرفا من آراء قالتها بعض العناصر المشاركة فى الاجتماع ، وقد لفت نظره أول ما لفت أسماء الشخصيات ، كان منها من يعرفه معرفة مباشرة ، ومنها من يعرفه معرفة غير مباشرة ، ومنها من يجهله تماما ، ولكنه مع توالى القراءة لفت نظره شيئ آخر ، لقد كانت الآراء المنسوبة إلى هذه الشخصيات مخالفة إلى حد كبير عما هو معروف عنها حتى أنها أوشكت أن تكون مناقضة لها . وما كاد ينتهى من الصفحات المحدودة التى لديه حتى استغرقه الاستغراب تماما لتلك الآراء التى تداولتها اللجنة المجهولة ، لتكون - كما ورد على لسان بعض أفرادها - إطارا واضحا للنشاط الثقافى فى مواجهة التيارات الفكرية المتطرفة ، وفجأة قفز إلى رأسه سؤال لم يستطع تجاوزه : ما الذى يمكن أن يجمع بين كل تلك الشخصيات التى كان من بينها الشيخ الوقور اللزج الابتسامة الذى يشغل مركزا مرموقا فى دار الإفتاء ، والضابط العابس المتجهم دائما الذى يرأس الجهاز الخاص فى الداخلية ، ووكيل الوزارة المختص بالدعوة الدينية ، وآخر مختص بنشاط المعارضة ، ووزير سابق يشغل منصبا كبيرا فى بنك استثمارى ، ومسئول السى آى إيه فى المنطقة الذى يشغل الوظيفة الرفيعة المستوى فى الجامعة الأمريكية ، ورئيس إحدى الجامعات متخصص فى علم

النفس ، وصحفى فاشل مهنيا يستمد أهميته من قيامه بدور ضابط اتصال محترف وهى التغطية الرسمية لدوره كعميل مزدوج ، ودكتور فى الانثروبولوجيا يعمل ملحقا بسفارة أجنبية ، وأستاذ البيداجوجيا المعار من جامعة بن جوريون لهيئة المعونة الأمريكية . « *لحساب من تعملون* » ؟ ألح السؤال عليه بشدة فأخذ يطرق جميع الاحتمالات الممكنة ، فلو أنهم كانوا يعملون لحساب جهاز أمنى لما كان من بينهم عناصر أجنبية كان واضحا من خلال ما نسب إليها من أقوال أنها هى المهيمنة على توجيه اللجنة ، وأنها أيضا الحكَم فيما ينشب بين أعضائها من خلاف ، إنه فى حاجة بالفعل إلى ما لديها ، فلم يعد الأمر يقف عند مجرد المعرفة ، بل يتصل اتصالا جوهريا بسلامة الاتجاه .

انتقل إلى المجموعة الثانية من الأوراق وقد أصابه غيظ فجّر فى أعماقه الضيق ، ولكنه ما لبث أن لانت ملامحه وخفّت حدتها ، فقد كانت الأوراق أكثر وضوحا ، إنها صور بضع صفحات من تقرير عنوانه : « الأسس العلمية الموضوعية للقيادة فى الدول النامية ، مع نظرة خاصة إلى دول الشرق الأوسط » وقد ذكر « *صاحبه الدكتور جورج كتل* » ، أستاذ النظريات السياسية بجامعة أيوا ، أنه يقدم تقريره بناء على التكليف الصادر إليه بتقديم دراسة للأسلوب العلمى فى اتخاذ القرار السياسى ، وحيا الرغبة التى أبدتها القيادة السياسية فى الأخذ بالمنهج العلمى ، وأشار مترجم التقرير ، الدكتور كمال البرغوتى ، فى الكلمة التى مهد بها لترجمته ، أن الدكتور كتل ليس أستاذا عظيماً فقط ، بل إنه صاحب نظريات معروفة فى الفكر السياسى هى محل التقدير والاعتراف ، وأنه قد بذل جهدا ضخما ليس فقط فى العودة إلى المصادر والمراجع ، وإنما فى معايشة الواقع فى بلدان العالم الثالث ، وأنه بذلك يقدم رؤية علمية واقعية ، ولم ينس البرغوتى أن يشير إلى دوره شخصيا فى تفسير المشكلات التى لم يستطع الدكتور كتل فهمها وذلك خلال ما جرى بينهما من مناقشات عند زيارته للقاهرة أثناء جمع مادته العلمية .

وأشار التقرير فى أوله إلى حقيقتين : الأولى ضرورة تقييد الأسس العلمية بالموضوعية ، وذلك لأن الظروف الموضوعية تحكم كل تفكير علمى ، والرأى العلمى الذى يتجاهل الظروف الموضوعية مجرد أحلام واهمة لا اعتبار لها فى التفكير السياسى . والثانية : أنه بالرغم مما يبدو من أن الدول المتقدمة تتمتع باستقرار سياسى فإن الدول النامية أكثر قدرة ومرونة على اتخاذ القرارات المختلفة ، ولهذا فإن قيادة الدول النامية أكثر أهمية من قيادة الدول المتقدمة ، إن القيادة فى الدول المتقدمة بطيئة فى اتخاذ القرارات والإجراءات المناسبة لها ، وهى مقيدة باعتبارات مختلفة وعوامل كثيرة ، ولكن القائد فى الدول النامية أوفر حظا ، وأكثر سلطة فى اتخاذ القرار ، ولهذا يجب أن يكون أكثر شجاعة ، ببساطة يجب أن يكون القائد فى الدول النامية زعيما ، ولكى يؤكد زعامته يجب أن يحرص دائما على أمرين ، الأول : التأكد باستمرار داخليا من أن شيئا ما لا يستطيع أن يعوق حركته فى أى اتجاه ، والثانى : أن يراعى خارجيا الظروف التى تقيد غيره من قادة الدول المتقدمة فلا يطلب منهم المعاملة بالمثل .

تضمنت الأوراق بعد ذلك بضع صفحات نص البرغوتى على أنها « ترجمة أدبية التزمت التزاما كاملا بالمعنى » مع بعض إضافات ضرورية للتوضيح وضعت بين قوسين « وقد بدأت بالأسس الموضوعية لممارسة السلطة الداخلية ، وانتهت بالأسس العملية للممارسة السياسية فى العلاقات الدولية » .

أعد ماهر لنفسه كأسا تجرعها مرة واحدة وأخذ يقرأ بشغف نهم أسس السياسة الداخلية :

- أنت الحاكم ، (إنك اختيار القدر ، ولهذا الاختيار بالضرورة كل الحقوق) .
- أنت تحكم ، أنت ترى ما لا يراه الآخرون ، (فلك الحق فى أن تفعل ما لا يستطيعون ، وما عن فهمه يعجزون) .
- أنت بحكمتك لا تخطئ قط فى فعل أو فى قول ، ولكن قد لا تظهر حكمة ما تقول أو تفعل ، وإظهارها مهمة المخلصين وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، (الحكمة فيك قائمة وإن خفيت ، وإنها لا تخفى إلا على المعاندين ، أما المؤمنون ففى دربها

يهتدون ، وأما الأبرار فمن أجلها يجتهدون ، وأما المقربون فلإلهامك يسجدون وعلى ضوئك يسبّحون) .

- لا تقيدك قيم صنعها غيرك واصنع قيمك بنفسك ، (فليست القيم سوى شعارات يصنعها القادرون ليحكموا الذين عن صنعها يعجزون) .
- من يسيطر على الحاضر يتحكم فى الماضى ويتسلط على المستقبل ، (فكن حاضرا أبدا ، ولا يلهك عن الحضور ماض مات أو مستقبل آت).
- السيطرة المطلقة وليدة اليقظة المطلقة ، (واليقظة بنت سوء الظن الدائم) .
- ربما كان الوصول الى السلطة بالنسبة لك ذات يوم مجرد حلم ، لكن بقاءك فى السلطة الآن حقك المطلق (واستمرارك فيها حق شعبك الثابت للإفادة من خبرتك) .
- الشعب قطيع جائع ، (كلما زدته جوعا كلما ازداد لك خضوعا) ، وصفوته شراذم من ثعالب ، (يكفيها فتات مائدتك) .
- أمسك (دائما) بسوطك ، أما فى حالات الضرورة فيمكنك أن تخفيه خلف ظهرك ، (ولا تدعه أبدا يسقط من يدك) .
- الدفاع عن الحاكم دفاع عن استقرار الحكم ، (والدفاع عن الحكم ضرورة شرعية وعقلية وإنسانية حتى وإن تطلب التبعية) .
- ليس مهمًا ما تفعل مما يخالف كل القيم ، (ما دام لديك – بحمد الله – الأجهزة القادرة على تجميل صورتك) .
- لا أحد يستعصى على الإفساد ، (اعرف فقط الوسيلة المناسبة) .
- لا تصادق أحدا (إلا نفسك) ، ولا تعارض أحدا (إلا معارضيك) .
- كل ذنب مغفور إلا ذنبا فيه (شبهة) مساس بك ، وكل خطيئة منسية إلا خطيئة فيها (شبهة) معارضة لك .

- واجه معارضيك (بالاتهام ، شوّه أفكارهم وحرّف أهدافهم) يظلوا دائما فى موقف الدفاع عن أنفسهم .

- من لم يزجره السوط تكفّل السيف بإسكاته .

- لا تحقق قط مطلبا إلا إذا عبّر عن رغبتك (ولتكن رغبتك وحدها إرادة الجماهير ونبضها وهتافها ، فإنه لا يعارض رغبتك إلا معاد للاستقرار ، وكل معاد للاستقرار عدو للشعب والوطن حاضرا ومستقبلا) .

- مطالب معارضيك مجرد شعارات سوقية ، واتساق مواقفهم السياسية يصدر عن سذاجة فكرية ، (أما شعاراتك فمبادئ إنسانية حتى لو لم تكن واقعية ، والدعوة إليها ضرورة حتمية ووطنية وأخلاقية) .

- أسئ الظن برجالك ، (أما أعداؤك فرجالك كفيلون بهم) .

- معاونوك ليسوا أكثر من فوط صحية (لإجراء التجارب الضرورية وإزالة الأقذار الطبيعية) .

وتوقف : لقد انتهت الصفحات التى لديه من التقرير ، وبالرغم من أنه كان أقل ضجرا مما كان عندما انتهى من قراءة المجموعة الأولى فإن شغفه بالوقوف على الباقى كان أكثر شدة ، تمتم باستلام المقهور : « *هذه الأوراق كسابقتها فى حاجة ملحة إلى ما عندها* » وتأهب - تلقائيا - للنظر فى المجموعة الثالثة من الأوراق ، ولكنه ما كاد يبدأ حتى أخذ جرس التليفون يدق فتوقف دون القراءة ، ولم يشأ أن يمد يده إليه ليلتقط السماعة ، وقرر أن ينتظر ما سيسجل على جهاز الرد الآلى ، وسرعان ما هزته كلمات الصوت المعهود :

- عندى لك مفاجأة حقيقية ، خبر يساوى مليون جنيه ، فاتصل بى فور عودتك .

« ماذا يريد فى مثل هذه الساعة ؟! » خطر بباله خاطر أصابه بالتقزز فلعنه بصوت مسموع مطلقا عليه وصفا فاحشا وإن لم يتجاوز

فيه الحقيقة لكنه كان كافيا لإثارة خواطره بصورة حالت بينه وبين استمرار القراءة ولكنه سرعان ما استدرك : « إنه - بالرغم من تفاهته - جعبة تحتوى على الكثير ، والتقارير المبتورة التى لديك تؤكد ذلك ، إنك لست غبيا وعليك أن تتحمل المزيد فلم تصل بعد إلى كل ما تريد » .

رفع السماعة وبدأ الاتصال معتزما ألا يتيح له فرصة لدعوته :

- أسف معالى الباشا للاتصال فى هذا الوقت المتأخر ، إننى عائد لتوى من عند الطبيب .

- خيرا ؟

- انفلونزا ، لكنها من النوع المزعج الذى يهد العظام .

هل كان يختبر صدقه حين قال متظاهرا بالحزن .

- أمر مؤسف ، خصوصا فى هذه الظروف .

وهل أراد ماهر أن يفتح الباب لتراجعه عندما عقب :

- الانفلونزا مزعجة فى كل الظروف . لكنها لا تحول دون استمرار العمل .

وهل كان الباشا يحثه على التراجع صراحة حين قاطعه :

- وأى عمل ؟ إنه عمل تاريخى يفتح الباب للاتصال الشخصى بالقيادة السياسية .

لماذا التزم ماهر بالصمت ؟ ولماذا أخذ الصوت فى السماعة طابع الجد الخالص :

- لقد كلفت باختيار كاتب لكتابة الكلمة الرسمية التى ستلقى فى احتفال منح الجائزة، وكنت أفكر فيك .

هل كان العرض أكبر من كل الأحلام التى عاشها وعاش لها ماهر فى يقظته ونومه حتى أوشك أن يصرخ فى السماعة :

- رأيى أنك نافذ البصيرة دائما معالى الباشا .
- لكن هل تسمح ظروفك الصحية .
- مهما كانت هذه الظروف فإنها لا تحول دون قيامى بواجبى .
- هل أنت متأكد ؟
- أرجو أن تأذن لى بالحضور لأقدم شكرى القلبى .

لعلعت فى السماعة ضحكة خبيثة قبل أن يقول صاحبها :

- سبق أن قلت لك إنك لست فى حاجة إلى إذن ، وإن كان حضورك الآن مهما لأتأكد بنفسى من أن حالتك جيدة حتى لا تضعنى فى موقف حرج .

✍ ✍ ✍

- ٤٩ -

« ماذا يريد الدكتور شوقى ؟ لقد كان يتجاهلك ويتحاشاك دائما فلماذا يرغب الآن فى لقائك ؟ وفى هذا الوقت بالذات ؟ » .

منذ تلقى أحمد الدعوة فى اتصال هاتفى مع بشرى والسؤال يلح عليه دون أن يصل إلى احتمال بعينه يرجحه دافعاً ، لقد كانت جميع الاحتمالات – على تضاربها – متقاربة ، تتساوى أو تكاد قربا وبعدا ، إمكانا واستحالة ، حتى أزف الوقت المحدد واستعد للذهاب إلى مطعم الأمم المطل على النيل عند كوبرى الجامعة ليقابله فى المكان الذى اختاره من غير أن يكون قد وصل إلى تصور واضح يعتبره أكثر احتمالا ، وظل يفكر حتى وهو فى سيارة الأتوبيس التى أقلته من الأزهر إلى السيدة زينب فالمنيل ، وشغله التفكير لدرجة أنه نزل حين شارف النيل قبل أن تعبر السيارة الكوبرى بدلا من أن ينتظر حتى تعبره ، وحين اكتشف خطأه آثر أن يكمل مشواره على قدميه فذلك أيسر من أن يحاول أن ينحشر فى أتوبيس آخر ينقله إلى الجانب المقابل من النهر ، سار ثقيل الخطا ينوء بما يضطرب فيه تفكيره وتختلط له مشاعره وقد زاده توترا إحساس كثيف ببعد المكان ، أيعود ذلك إلى عدم معرفته به ؟ ، أم إلى عدم استعداده للقاء غير متوقع مع رجل كالدكتور شوقى ؟ ، وكيف يستعد له وهو الذى لا يستطيع أن يحدد –

ولو على سبيل الحدس – دوافعه ، لكنه ما لبث أن رفّت بين جوانحه ابتسامة حانية حين صدحت فى أذنه من جديد كلمات بشرى :

– ألا تحب أن تكتشف موقعا جديدا ؟ أليس من المنطقى أن يقابلك ؟ وأليس من المنطقى أن تكون المقابلة على أرض محايدة بدلا من أن يصر على أن تكون فى سوق الحميدية ؟ إنها فى حدود معلوماتى خطوة تاريخية لأنه لم يتعود أن يقدم من قبل تنازلات .

– ليس اللقاء فى ذاته هدفا ، المهم نتائجه ودوافعه ، بل دوافعه أكثر أهمية لأنها التى ستتحكم فى نتائجه .

– أعرفك مفتوح القلب .

– والعقل أيضا .

– أنا واثقة أنه مهما كانت النتائج فهو خطوة إلى الأمام .

– أرجو هذا .

« *هل يمكن أن يكون خطوة إلى الأمام وهو الذى استأثر بتحديد المكان والزمان ، ومن يدرى ... ربما يحاول تحديد الموضوعات المثارة بأسلوب تحكمى متعنت ، ويقود مناقشتها بمقولات صارت عنده لفرط ألفته لها حقائق ثابتة* » . أحست أعماقه بتحد حقيقى فهتف لنفسه بحسم : « *كلا ، لن تدع له الفرصة ليحقق ما يريد ، لن يقود الحديث عبر الدروب التى يعرفها ، عليك أن تتسلح باليقظة الكاملة لتقول له أيضا ما عندك . وانتبه جيدا ، فلا ينبغى أن يأخذك على غرة* » وما لبث أن تنهد متمتما : « *آه لو تم اللقاء فى ظروف أخرى* » أحس بسحابة من همّ تمطر فى وجدانه كدرا ، فاللقاء يأتى فى وقت غير مناسب ، فذهنه ليس فى الدرجة المأمولة صفاء ومقدرة ، إنه مهدد دون سبب واضح فى مستقبله ، وملاحق بصورة موحية بالخطر ، إنه فى أسوأ الظروف لعقد مثل هذا اللقاء ، وكان عليه أن يعدل عنه ، ولكنها

بشرى ... شعت النفس من جديد ببهجة خفية أنس لها وأخذ مرة أخرى يستعيد بعض كلماتها على الهاتف ، وفجأة خطر له خاطر : « نورها واضح فى اختيار المكان الذى كثيرا ما تحدثت عنه باعتباره مكانا محترما كانت تذهب إليه الأسرة فى الأيام الخوالى ، ومن المعقول أن يكون لها نور فى تحديد الزمان وبلورة الواقع أيضاً » .

مسته نفحة هواء رطب فأدركه شئ من النشاط وهو يسير فوق الكوبرى وعيناه لا تفتآن تردادن النظر إلى الماء الجارى من تحته ، وما كاد يسير بضع خطوات حتى سمع صوت المؤذن ينادى لصلاة العشاء فوجد نفسه يرجع تلقائيا إلى مسجد صلاح الدين ليؤدى الصلاة حتى لا يتجاوز بها وقت الفضيلة ، فعاد لينضم إلى المصلين الذين كانوا يستمعون إلى الإمام وهو يقرأ ، كان صوته عذبا نديا آسرا مفعما بخشوع وجلال وكأنه مبتهل يستغفر من خطيئته ويناجى منفردا فى جوف الليل ربه خجلا ، فينسكب فى قلوب المصلين خلفه صمت واجف يسلمهم إلى التأمل ، ويحملهم بأجنحة شفيفة فيستغرقون فيما يتلو من آيات :

- « لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شئ قدير آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

كان أحمد على استعداد لأن يندمج فيهم حتى قبل أن يكبر تكبيرة الإحرام ، وذاب فى القراءة فمسته الرجفة رهبة وهو يتابع حركاته ودعواته مغمض العينين راكعا وساجدا ، ومن جديد حمله صوت الإمام رفيقا حتى توحّد مع الكلمات وهى تنبت تلقائياً فى الحنايا المستسرة الخفية رغبة قاهرة فى عمل عظيم يقربه من رضوان الله :

- « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ،

ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما » .

أنهى صلاته وخرج من المسجد ليأخذ طريقه فوق الكوبرى وقد حلت به سكينة من يعرف طريقه جيدا ، راحت عيناه تجوبان الفضاء المرصع بالأضواء الممتدة من سطح النهر إلى الآفاق العليا التى انتشرت فيها النجوم ثم تعودان ثانية فى رحلتهما المستمرة إلى الماء الغارق فى الصمت . ولكن عينيه ما لبثتا أن التقطتا صورة العلم اللعين يرفرف وقد سلط عليه الضوء حتى يخفق متألقا يملأ الأبصار . كيف انمحت السكينة فى لحظة واحدة وأحس فى قلبه بغصة كالحريق ، « حتى فى الليل يبقونه فى موقعه رمزا للغلبة لا تغيب عن العين لحظة ، هكذا يريدونه دائما ، وهكذا تعايش معه الناس متجاهلين رمزا للاستكانة ، لكن التجاهل لا ينفى الحقيقة ، والاستكانة ليست سوى مزيج من العجز الذليل والقهر » ودّ أن لو تستطيع عيناه أن تطفر الدموع ولكن عبثا ، فالنار الكامنة المنصهرة فى الروح قد تأججت فجففت كل قطرة حتى صارت العين حدقة جامدة لا ترى حتى أشباحا ، « ما من مرة تمر عليه إلا يصيبك هذا الإحساس ، وما من مرة إلا وأنت تعاهد نفسك ألا تنظر إليه مرة أخرى ، ولكن ... هيهات » مد يده فمسح بأصابعه عينيه الجافتين فازدادتا لهيبا ، وأحس لطعم الغصة فى حلقة مرارة العلقم فتوقف ليخرج منديلا يتفل فيه ، ولكن الضابط اليقظ الذى يقود موقع الحراسة المتقدم فوق الكوبرى أمره بصلف بعدم الوقوف وهو يسأله مستنكرا :

– لماذا تقف هنا ؟ .

فاشتد فى القلب الوجيب ، واستمر فى سيره وهو يتمتم لنفسه أسيان بالكلمات :

– « العار إكليل غار فوق الرءوس الزاهية

واللاهية

كيف السبيل وأنت مشدود الوثاق

كيف السبيل والساعد لا يمسك إلا بالقلم ؟

تحلم باليوم العظيم

حيث لا ذل قط ولا مهانة

لكن الحقيقة فاجعة !

فاجعة !!!... » .

* * *

– أى دور ؟ .

بدا السؤال للدكتور شوقى غريبا ، فقد كان السائل من الأناقة بحيث يستبعد من يراه أن يكون عـامـلا للمـصـعـد ويظنه أحـد رواد المطعم المطل على النيل من الطـابق العاشر ، همّ شوقى أن يجيبه :

– وما شأنك ؟ .

ولكنه وجد نفسه يرد بتلقائية :

– الدور العاشر .

فحدقه الشاب بنظرة غير مريحة وقد تجمدت أصابعه على لوحة الأزرار ، فاضطر شوقى أن يردف مفسرا :

– مطعم الأمم .

فرد الشاب باستهانة وهو يضغط بإصبعه زرار الطابق المطلوب :

– تحت أمرك .

« *كيف وصل المصعد بهذه السرعة* » فى اللحظة التى انفتح فيها بابه والشاب يقول له بعفوية :

– تفضل .

أمامت متشككة قدم الدكتور شوقي ليغادره فانتابه إحساس بأن تغيرا ما أصاب المكان ، وأنه ربما لا يكون في الطابق المقصود ، لقد تغير الممر الطويل الذى كثيرا ما وقف فيه مع بشرى ينتظران المصعد العجوز ليحملهما إلى الطابق الأرضي وهى تعلق على بطئه ساخرة مقترحة أن تحضر معها في المرة القادمة فراشا حتى تأخذ كفايتها من النوم في انتظاره فأصبح بهوا فاخرا مفروشا بالموكيت الأحمر ومرصعا بالثريات في سقفه وعلى جوانبه ، والإضاءة الكثيفة الممتدة على مسافات متقاربة تشع حرارة غير عادية يزيدها شدة انعكاسها المتواتر على المرايا الجانبية التى غطيت بها الجدران حتى السقف ، فاستحال المكان الذى كان الإنسان يحس منذ اللحظة الأولى فيه بنسمات النيل إلى فرن يوشك أن يصيب من يعبره بالاختناق ، خطا الدكتور شوقي خطوات قليلة قبل أن يتوقف ليعيد استطلاع ما حوله وقد نما الشك في داخله فتمتم لنفسه :

– بالقطع هناك خطأ .

ولكن شابا لا يقل أناقة عن الذى قابله في المصعد اقترب منه وسأله بوجه جامد :

– أي خدمة ؟ .

فرد الدكتور شوقي وهو غارق في عرقه وحيرته :

– المطعم ؟ .

أشار الشاب بيده إلى نهاية الممر قائلا باقتضاب :

– هناك .

مضى شوقي بساقين كليلتين إلى حيث أشار ، وذهنه – لفرط حيرته – غير قادر على استيعاب ما حوله ، حتى انه لم يفطن إلى صورته المتعاقبة المتوالية في المرايا المتوازية فقد بذلك إحدى متع الابتكارات الجديدة التى أضافتها للمطعم ، إذ تقدم المرايا الأشكال التى أمامها في صورة شائهة تبعث في نفوس من ينظر إليها الضحك وتثير السخرية .

ولم يكن التغير الذى أصاب المدخل سوى مؤشر صغير إلى انقلاب شامل تم فى الداخل ، فلم يكد شوقى يعبر الباب الزجاجى المزدوج الذى حل محل الباب الخشبى العتيق المحلى بزخارف من النحاس الذى علاه الصدأ حتى أصابته قشعريرة هواء التكييف الشديد البرودة فتجمد العرق الذى سالت به المسام واستحال إلى سطح بارد يشع ألما ، اتسعت حدقتا عينيه حتى يرى بوضوح فقد كانت القاعة برغم الإضاءة الكثيفة توحى بالعتمة إذ تمتصها الستائر السميكة المصنوعة من الجرسيه الرمادى المبقعة بنقوش متعددة الألوان فتجعلها أشبه بلوحة سريالية كبيرة تتخللها مجموعات متناثرة من اللوحات الانطباعية ، وبدت القاعة الفسيحة شبه خالية من الرواد حتى ان دخوله أثار انتباه العاملين من فتيان وفتيات ، أخذ يتفحص ما حوله يتخير مكانا مناسبا فحانت منه التفاتة إلى مدخل الشرفة المطلة على النهر فمضى تجاهه متصنعا التؤدة وقد نبضت أعماقه بفرحة صغيرة ، « *أخيراً ... ها هو ذا مكانك المفضل ، برغمك ما زالت تحكمك الألفة* » ولكنه فوجئ مفاجأة قاسية ، لقد كان الشرفة بدورها محاطة بسياج محكم من الألومنيوم والزجاج غير القابل للفتح ، وأسدلت عليها الستائر فأصبحت معزولة عن الخارج تماما ، تخير مكانا قصيا إلى جوار السور المغلق وجلس مغيظا محبطا كأنما سقط من شاهق على غير توقع فى جب « *لماذا يهدرون أفضل ما يملكون ؟ وراء هذا السياج الموصد أجمل بقعة فى الأرض ، الإطلالة الهائلة على نبض الحياة وسرها : النيل ، التاريخ والأرض والنجوم ، الماء والهواء والليل ، لو فتح لأطللت منه كما كنت تطل على أطول جزء من مجرى النهر العظيم يراه إنسان فى لحظة واحدة ، بدءا من انحناءته الحانية ليلد المنيل إلى انطلاقته الفارعة مخلفا وراءه الزمالك ، كنت فى هذا الموقع الفريد الذى يفيض جمالا وجلالا وروعة وسحرا فى بؤرة الحياة ، تستمتع بالاقتراب حتى الالتحام وبالبعد حتى العزلة ، تقرأ أنفاس الشطآن اللاهثة وتستوعب حلم الأمواج الصامتة وتحس بمرح الزوارق المنطلقة وتشعر بهمهمة المحبين وتسمع*

وتستمتع بلغو الصحاب » .

– العشاء يا فندم ؟ .

أخرجه من تهويماته الصوت الأنثوى الرقيق فنظر إلى صاحبته نظرة عجلى أتبعها بأخرى متفحصة ، كانت المضيفة الصبوح الممشوقة القد ترتدى بسمة عمل جامدة بغير روح ، وقد أسدلت خصلة كبيرة من شعرها على جبينها وجيدها العارى فامتدت حتى احتوت أطرافه ثنايا الصدر المشدود . رد بتلقائية :

– ما زال الوقت مبكرا .

قالت الفتاة وكأنها تعتذر :

– أمرك يا فندم .

وهمت أن تمضى لكنه استوقفها بإشارة من يده قبل أن يقول :

– أظن أنه يمكن أن أشرب شيئاً .

اكتفت الفتاة بالانتظار فأضاف :

– براندى لو سمحت .

هزت رأسها وهى تتمتم :

– تحت أمرك .

واستدارت لتعود إلى القاعة ، فأخذ تلقائيا يرقبها وهى تمضى ، هل هى فى حاجة إلى مشيتها الموقّعة وليس ثمة رواد ، أم ذلك ما فرضته الجوب القصيرة الضيقة برغم ما حاولت أن تقدمه الفتحة الخلفية الطويلة من اتساع ؟ .

انزلق بصره جانبا فوقع على البقع اللونية فى المساحات الداكنة ، هل كانت تتحرك ؟ أغمض عينه ولكنه رأى حركتها ، أتمتح العين من الذاكرة أم تمنحها ؟ ظل مغمض العينين يرقب ما يجرى ولكنه اضطر أن يفتحهما على صوت مضيفة أخرى حملت

إليه الشراب وقدمته إليه وهى تحييه بحرارة ، فاكتشف أنها كانت إحدى تلميذاته قبل تخرجها من بضعة أعوام ، وعلم منها أن لها زملاء فى المطعم وزميلات ، وأنها عينت فيه بفضل خطيبها الذى يشغل وظيفة مسئول الأمن فيه بعد أن أنهى خدمته العسكرية فى سيناء .

هل خففت عنه حين ذكرت له أنها برغم ما تكسبه ليست مستريحة ولكنها مضطرة إلى الاستمرار حتى تعجل بزواجها ؟ وهل سمعها وهو يرشف كأسه بأناة حين أشارت برأسها إشارة خفية إلى بعض الرجال الأشداء الموزعين فى جوانب المطعم هامسة :

– إنهم من رجال أمن السفارة يساعدون فى حماية سياحهم الذين يأتون ليأكلوا ويمرحوا .

من جديد انغمس فى التحديق فى البقع الملونة ، ومن جديد تحركت المشاهد متعاقبة متداخلة متقاطعة ، فيها لمسات دالى وضربات بيكاسو : مشية الغراب ورقصة القنفذ ، مصارعة الثيران وحمام دنشواى ، بحيرة البجع وزحف الأفعى ، خطوة البطريق وموكب الامبراطورة ، تحية الفوهرر وصليب سبارتاكوس ، صندوق سالازار والطاووس المشوى على المائدة الملكية ، كنيسة القيامة وقصر اليمامة ، ابتسامة الحيزبون وعيون أطفال بحر البقر ، حذاء الجنرال وجماجم شهداء بحر التيه ، السيف الموشح بالنجوم المغروس حتى مقبضه فى القلب والبقرة الضاحكة تخور ، هل كان ما يراه هذيان سكير لعبت برأسه خمر رديئة أم نفثات محموم أغرقه العرق ، تتميز صورة من بين سائر الصور فينصرف إليها يناجيها مستغرقا فيها فلا يحس بإيقاعات الموسيقى الصاخبة التى راحت تقذفها السماعات المنتشرة فى كل مكان :

– *تلك الصورة ..... إننا قارئوها :*

الابتسامة البلهاء ... والضرع الهزيل

والجسم المضمخ بالعرق

والرأس يملؤه الغواء

والعين جامدة الحدق .

- تلك الصورة .... إننا ذاكروها

حين كانت في القطيع .

تأكل العشب اليابس ... وتطيع

ويمتطي الظهر الذلول

أي ثور أو حمار .

- تلك الصورة .... إننا عارفوها

تملأ الجلسة متعة .

يخوار يمنح (القعدة) بهجة .

إذ اصطفاها ذلك القهد الأثول .

وارتضاها أن تكون ... مسخا

يمنحه الابتسام

في وقت الكآبة

- تلك الصورة .... إننا فاهموها

حين صاحت بالبقر .

تملأ الحقل وعودا صالحات

بعشب لا ينقصه الشظف

وأحلام لا تدمرها الهواجس

ورأس لا تمزقه النصال اليابسات

في الضلوع وفي الحناجر .

- تلك الصورة .... إننا سامعوها

صار خوارها المأثور خطبة
لا تخلو من خوار .
تمنح وعدا إثر وعد ثم وعدا من جديد
والوعد مصحوب بقيد من حديد
لكل فرد فى القطيع
والقيد يفتك بالصدور وبالشفاه
والسوط ينشر فى الظهور وفى الجباه
لوحات يجللها العذاب
بالدماء وبالعفن .

- تلك الصورة .... إنا شارحوها :
البسمة لم تعد بلهاء والضرع جف
من ذلك العهد القديم .
والجسم صار مضمخا
بآخر أنواع العطور .
وأخفى الذيل الطويل
بثوب من فراء .
وتلألأت من جديد
أنياب دب .

- تلك الصورة..... إنا ناظروها .
لم يعد فى قوس الصبر منزع
من يا ترى ينزع منها المخالب

والثياب .

من يشعل الآن الحريق

كي يوسدها التراب .

– أهلا يا دكتور .

كيف سمع الصوت فى خضم هذا الضجيج ؟ رفع عينيه فوقعتا فى محيط دام تعربد فيه العواصف : ألما ، ندما ، لوما ، غضبا ، استنكارا ، تساؤلا ، هل أراد شوقى أن يوقف سيل العواصف المتواترة حين قال بسعادة غريق ألقى إليه طوق نجاة :

– أهلا يا أحمد .

وأشار إليه أن يجلس ، لكنه ظل واقفا ، فأضاف شوقى برقة من يغرى صاحبه برحلة مشتركة :

– ماذا تحب أن تشرب ؟ .

رد أحمد وهو ما زال واقفا وعيناه تحيطان بالمكان فى ومضة :

– منيت نفسي بجلسة على ضفاف النيل الخالد .

هل كان شوقى يسترضيه أم يعتذر لما قال بأسى :

– لم يعد المكان كما كان .

وهل كان أحمد يعلنه بقبول اعتذاره لما أضاف :

– نغيره إذن إلى مكان آخر .

وسبقه ، فنهض ليتبعه ، ومضيا تصحبهما نظرات من بعيد .

✍ ✍ ✍

- ٥٠ -

التفت الدكتور شوقى إلى أحمد وهما فى طريقهما إلى السيارة بعد أن اجتازا موقع الحراسة تحت الكوبرى وقال :

- لقد اخترتُ مرة ومن العدل أن تختار أنت هذه المرة .

رد أحمد بهدوء من يرسل إشارة مهمة :

- المسألة تتوقف على الوقت المطلوب .

وصمت برهة ، هل كان ينتظر ردا على إشارته فلما لم يتلق شيئاً أضاف كأنما يفسر :

- والوقت مرتبط بالموضوعات .

هل كان شوقى فى حاجة إلى تفسير آخر أم آثر أن يبقيه فى حيرته حين قال :

- لا قيود عندى ، الوقت مفتوح والموضوعات أيضا .

قال أحمد بهدوء الواثق :

- إذن إلى الأزهر .

قال شوقى مترددا :

- أظن أنه لا يمكن أن نجد مكانا هناك فى مثل هذا الوقت .

هل أراد أحمد أن يغريه أم أن يداعبه حين قال مبتسما :

- بعض الظن اثم .

وهل كانت العبارة سببا فى حسم شوقى لما قال بغير تردد :

- وبعض الظن ليس بإثم ، دعنا من الأزهر .

صمت أحمد لحظات ، فليتجاوز رفضه وليقترح بديلا :

- ما رأيك فى الجبل الأخضر ، هناك كافتيريا ممتازة نستطيع أن نستمتع فيها بالقهوة ونحن نتحدث بهدوء .

قال شوقى وهو يفتح باب السيارة .

- ما رأيك أنت في رستوران النجم الأحمر ، يقدم وجبات شهية ملائمة ، والأهم أنك تشرف منه على القاهرة فتجد الدنيا كلها أمامك ، ترى ماضيها وحاضرها ، وتستطيع أن تتخيل مستقبلها ، إنه موقع يلهمك الكثير .

هل أراد أحمد أن يعلن رفضه أم أن يداعبه لما قال وقد افتر ثغره عن ابتسامة عذبة :

- إلهام الأماكن متناقض ، فهو يمنحك فكرة فى لحظة ونقيضها فى لحظة أخرى ، إنه إلهام مشوّش .

وهل كان شوقى يرد على مداعبته حين عقب :

- التشويش رهن بطريقة التفكير ، إذا استخدمت الأسلوب الصحيح لابد أن تصل إلى نتائج صحيحة .

تمتم أحمد فى نفسه : « *بدأنا ، إنه يستخدم كلمات محكمة لينتهى إلى نتائج باطلة* » ، وقال وهو يلخذ مكانه فى السيارة :

- الصحة أمر نسبى .

قال شوقى وهو يدير المحرك .

- بما أنك غير مقتنع سنتجول بالسيارة إلى أن نستقر على رأى .

هل أراد أحمد أن يسخر حين عقب :

- هذا هو العدل حقا .

وهل أراد شوقى من جانبه أن يرد على سخريته لما قال :

- أنت إذن ممن يرن أن العدل أمر نسبى أيضاً .

جلسا كتفا لكتف وقد طغى ضجيجهما الداخلى على صوت المحرك العالى ، يرقب أحمد إشارة بدء تحدد سببا أو تبين غاية ، ويوازن شوقى بين مدخلين هو على ثقة من أن أحدهما لابد أن يسلم إلى الآخر ، لكن من أيهما ينطلق : الخاص أو العام ، إن البداية يمكن أن تحدد لون الحوار بما تعنيه من الأهمية ، طال الصمت وتسارعت مؤشرات قلق أحمد ، الكحة المصطنعة ، اللفتات المتوالية ، المنديل الذى لا يكف عن التجول بين الوجه والجبهة ، حتى تأكد شوقى أنه لا مفر من أن يبدأ على الفور ، هل قصد بكلماته أن يؤكد أولا الأرض المشتركة بينهما لما قطع الصمت قائلا :

- أنا من عشاق النيل .

فرد أحمد بتلقائية :

- وأنا أيضاً .

استمر شوقى وكأنه لم يسمعه :

- إنه عندى أجمل أنهار الدنيا .

عقب أحمد :

- وكذلك عندى .

تابع شوقي :

- إننا نسيئ إليه كثيرا بإهمالنا له وتركه على هذا النحو البدائي ، لابد من تطويره بشكل علمي .

قال أحمد ساخراً :

- الذين يبنون على ضفافه الشاليهات والملاهي يقولون إنهم يطورون .

قاطعه شوقي بغضب :

- هؤلاء مجرمون ، نحن نتكلم عن تطوير علمي .

تابع أحمد سخريته :

- هكذا أيضا يدّعون .

- وهل كل ادعاء مقبول ؟! .

تجاهل أحمد نغمة السخرية الواضحة وعقب بجد :

- السؤال في حاجة إلى تحديد ، مقبول عند من ؟ .

- عند الجماهير ، صاحبة المصلحة الحقيقية .

- ومن الذي يحدد مصلحة الجماهير ؟ أليس من الممكن أن تكون غائبة الوعي .

- تنويرهم مهمة المثقفين الحقيقيين .

- أنت تعرف أن المثقفين أيضا قد يغيب وعيهم ، فما الأساس الذي يحتكمون إليه عند الضرورة .

- لا شئ غير العلم ، إنه قانون الوجود .

- العلم اكتشاف لا خلق ، إدراك لا إيجاد .

- العلم وعي بأسرار الوجود في الطبيعة والمجتمع والإنسان ، وبلورة لها في قوانين .

- النسبية قانون من قوانين العلم ، والنتائج محكومة بإمكانيات العصر والمجتمع والإنسان.
- كأنك ترفض العلم .
- بل أعرف دوره ، لكن لا أتجاوزه إلى مالا يستطيع .
- وما الذى لا يستطيعه العلم ؟ .
- الخلق ، خلق الظاهرات والكائنات .
- كأنك تنكر الابتكار .
- الابتكار خطوة بعد اكتشاف القوانين ، إنه توظيف لها ، وأنا أتحدث عن مرحلة سابقة ومستمرة معا ، عمن أوجد هذه القوانين .
- تتحدث إذن عن الأسباب ، أما أنا فأتحدث عن الغايات .
- لا تكون الغاية بمعزل عن أسبابها .
- الموضوعية لو سمحت ، قيِّد الأسباب بالموضوعية ، أما الأسباب الأخرى فمجرد إطار تاريخى .
- قد لا يمكن الفصل علميا بين الذاتى والموضوعى ، وإلا فلماذا يتوصل عالم إلى مالا يتوصل إليه آخر إذا لم تكن هناك عوامل ذاتية .

التفت إليه شوقى وقال باستفزاز :

- هل أنت فى حاجة إلى أن أشرح لك الفرق بينهما .

ابتسم أحمد وكأنه سمع طرفة وهو يعقب :

- إنك أذكى من أن تجعل التفرقة بينهما مطلقة .

تساءل شوقى وهو يحاول أن يسترد هدوءه :

- ولماذا لا يكون ؟ .

واصل أحمد ابتسامته وهو يقول :

- يسعدنى أن تقرر ذلك ، لأن الإطلاق سلسلة فابدأ من أي حلقة منها شئت .

هل أدرك شوقى المزلق الذى أوشك أن يقوده إليه أحمد فقال وهو يبتسم :

- لا تتوقع أن أسلم بمقولاتك أبدا .

فانفجر أحمد ضاحكا وهو يقول بسعادة :

- رائع ، ها أنت ذا قد بدأت الخطوة الأولى .

استمر الحوار بينهما يتراوح بين الجد والسخرية ، ويبعث فيهما الرضا والغضب ، يتناول كل ما فكرا فيه من قبل وما خطر ببالهما أثناء الحوار مما أوحته اللحظة أو اللفظة : الحياة والموت ، الحاضر والمستقبل ، السلطة والشعب ، الثقافة والفن ، الرجل والمرأة ، الجامعة والمجتمع ، وفى غمرة الحديث تخلى كل منهما عن تحفظه وحذره وحساسيته فى التعبير ، واستعملا ما كان يخطر لهما من عبارات حتى ما اتسم منها بالحدة ، ولم يبال كلاهما أن يغمز الآخر تصريحا حينا وتلميحا حينا آخر ، لقد كان الغمز - عجبا - نوعا من المزاح الثقيل الذى أدركا ضرورته لاستمرار الحوار حتى يكل الذهن ويصيبه الإجهاد .

فجأة التفت الدكتور شوقى إلى أحمد وقال :

- ألم تحس بالجوع ؟ .

لكنه لم ينتظر رده وتابع :

- نحن الآن على مقربة من المعادى ، ما رأيك فى أن نأخذ وجبة جاهزة من ويمبى ؟ .

هل كان أحمد عازفا عن الطعام بالفعل أم أدركه الخجل لما قال :

- لا داعى لذلك .

فرد شوقى بسخرية :

– طبعا ، فهو من عمل الكفرة .

علت وجه أحمد ابتسامة صغيرة وهو يقول :

– نحن لا نحرّم طعام الكفار .

وصمت لحظة قبل أن يضيف مشاكسا :

– غيرنا هو الذى يحرّم التطلع إلى الرأسماليين .

وما أن وصل شوقى إلى الإشارة حتى مال عن الكورنيش ليخترق الشوارع الداخلية متوجها إلى المطعم ، لكنه حين اقترب من الشارع الذى يقع فيه لم يستطع دخوله ، فقد كان السير فيه متعذرا إلا لمن يسير على قدميه ، إذ سدت السيارات الواقفة جانبى الشارع ، وتكفل موقع حراسة بإعاقة السير فى نهر الطريق . تمتم شوقى مغيظا وهو يواصل سيره ليعود من حيث أتى :

– نسيت .

تساءل أحمد بدهشة :

– يحرسون المطعم ؟ ! .

فرد شوقى بأسى :

– يحرسون المطعم أو يحرسون سكن الدبلوماسيين القريب ، النتيجة واحدة .

وأخذ يزفر غيظا ، هل كان ما أجهده الزحام واضطراب حركة السير أم أرهقته خيبة أمل غير متوقعة ، بلغ ضيقه حدا أخذ يلعن فيه المارة والطرق والحىّ ، حتى أحس أحمد تجاهه بإشفاق وود أن لو يستطيع التخفيف عنه ، فلم يجد غير أن يشاكسه .

قال أحمد معرِّضا بأسلوب قيادته وهو يتظاهر بالبهجة :

– من الأمثال الشعبية : الجوع كافر ، وهذا واضح .

هل غاظت العبارة شوقي وأفزعته دلالتها المركبة حتى يقول بصرامة :

- أنتم لا تحسنون غير إصدار الأحكام مستندين إلى الأوهام ، ماذا تعرف أنت عن الجوع .

قاطعه أحمد بسخرية :

- منكم نستفيد .

فعقب شوقي باستفزاز :

- لن تستطيع الاستفادة .

تمتم أحمد في نفسه : « *لم يعد الرجل قادرا على التحكم في عباراته ، لقد اختل توازنه ، عليك بالحذر مجددا* » ، وقال محاولا التظاهر بالهدوء:

- سأحاول .

هل أدرك شوقي إساءته فأراد أن يخفف من تأثيرها حين قال :

- غضبت ؟ .

صمت أحمد فتابع كأنما يفسر :

- تغيظني دائما المقولات الشائعة ، إنها تعني فكريا ونفسيا ثبات الواقع ، والتغير لا الثبات هو الحقيقة الوحيدة التي يمكن قبولها .

هزت العبارة أحمد فقال متحفزا لجولة جديدة من المناقشة :

- لاحظ أنك بدأت الآن بإطلاق الأحكام .

هل أراد شوقي أن يداعبه أم أن يشاكسه أم أن يهدئ من سرعة الدخول في المناقشة الجديدة فقال :

– وما المانع ؟ بيننا خلافات كثيرة لكنها لا تمنع من وجود بعض نقاط التشابه ، هذا أمر طبعى جدا فلا تعوّل عليه كثيرا .

وتابع – حتى لا يعطيه فرصة للرد :

– أظن أنه لا مفر من أن نذهب إلى كوفى شوب سميراميس لنشرب شيئاً .

واستمر فى طريقه . وهل كان فى مقدوره أن يعدل عما اعتزمه وقد تملكه مع الجوع الظمأ .

* * *

« *الجو خانق* » .

قالها أحمد فى نفسه وهو يتبع الدكتور شوقى إلى داخل المقهى فى الدور الثانى من الفندق المتعدد النجوم ، كان صخب الأضواء وكثافة الرواد وصدى الإيقاعات المزعجة المنطلقة من قاعة الأفراح الملاصقة تتآزر على أن تشعره بالغربة حتى أوشكت قدمه أن تتعثر ، لكنه تماسك ليتبع صاحبه وهو يخترق بثبات طريقه ، لقد بدا له خبيرا بالمكان فلم يفطن فى غمرة إحساسه بالانقباض إلى أنه يسير على غير هدى وأنه فى الحقيقة يبحث عن مائدة خالية ، وهكذا بعد جولة شبه كاملة فى المقهى عادا ثانية إلى موقع قريب مما بدآ وجلسا إلى مائدة مجاورة للمدخل . وفى اللحظة التى كانت عينا أحمد تتفحصان المكان كانت عينا شوقى تحاولان البحث عن إحدى المضيفات المنتشرات فى القاعة بزيهن الجديد ، الذى صممه خصيصا لهن بيير كاردان ، والذى يحمل اسم « *ليلة مرحة* » بدلا من زيهن السابق الذى كان من تصميم إيف سان لوران وكان يحمل اسم « *همسة علنية* » .

قال شوقى قبل أن تحضر المضيفة :

– ماذا تشرب ؟ .

رد أحمد بتحفظ من يخشى العواقب :

- لا أعرف ماذا يمكن أن يُشرب هنا .

قال شوقى ضاحكا :

- كل شئ ، ابتداء من الكابوتشينوا حتى .

وضحك دون أن يكمل عبارته ثم أضاف :

- عليك فقط أن تختار .

قال أحمد مستسلما :

- كابوتشينو إذن .

من مكانهما فى المدخل كانا يرسلان تلقائيا نظرات متقطعة إلى ما يدور فى الممر الموصل إلى قاعة الأفراح المجاورة متبادلين النظرات فى تعليق صامت على ما يريان ، لكن شوقى لم يتمالك نفسه حين رأى العروس ترتدى ثياب جارية وتحف بها الراقصات تتقدم حاملة الأبريق والكئوس لتمثل دورها ضمن طقوس الزواج التى ابتكرها الفندق ، وكان عليها طبقا لهذه الطقوس أن تتجه إلى حيث تجلس تحت قدمى عريسها لتقدم إليه الكأس فيشربه مستمتعا بدور السلطان الذى يمثله لحظات ، فقال بضيق حقيقى :

- هل هذا ما تريدونه ؟ .

رد أحمد وقد اربد وجهه وكأنما فاجأه السؤال :

- بعد كل ما دار بيننا تسألنى ، وهل يريد عاقل أن تكون أم أبنائه جارية ؟!

عقب شوقى وقد تسلل إليه شئ من الرضا :

- كلام جيد ، لكن الأهم أن يكون الاعتبار الإنسانى وحده هو أساس العلاقة بين الرجل والمرأة ، وليس مجرد الأمومة .

قال أحمد وقد استرد هدوءه :

- الاعتبارات الإنسانية عندنا هى الأرضية التى نقف عليها ، الأساس الذى يحكم علاقاتنا مع البشر جميعاً فى داخل مجتمعنا وخارجه معا ، ربما لم تعرف أنه من كلام النبى عبارة تقول : « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

هل أراد شوقى أن يثيره ثانيه حين قال بهدوء :

- إذا كان ما تقوله صحيحا فلماذا إذن كانت معاناة الأقليات .

وعلى عكس ما توقع شوقى لم يغضب أحمد ، بل شرع يتكلم بأناة وكأنما كان السؤال فى ذهنه طول الوقت :

- أولا أرجو أن تلاحظ أن هذه المعاناة لم تكن إلا فى بعض المراحل التاريخية ، وهى مراحل ابتعدت فيها أنظمة الحكم عن الأسس الشرعية التى تحكم العلاقات الاجتماعية ، فكما عانت الأقليات فيها عانت الأغلبية أيضا .

- وثانياً ؟ .

- وثانياً أن فكرة الأقليات فى أساسها فكرة معادية للنسيج الإنسانى لأنها تضع اعتبارات غير إنسانية فى التعامل مع الناس ، اعتبارات مثل الإقليم أو العنصر أو اللون الخ ، الناس فى مجتمعنا طبقا لما تقرره القواعد الدينية نسيج واحد ، شركاء فى الواجبات والحقوق ، وهناك قاعدة واضحة عندنا تقول : لهم مالنا وعليهم ما علينا .

قاطعه شوقى بإشارة من يده قبل أن يقول غاضبا :

- إنك تبالغ مستغلا ما تتصوره جهلى بالتفاصيل الدقيقة فى التاريخ الإسلامى ، وعلى أى حال فإن الحكم فى مثل هذه القضايا ليس النظريات ولا المبادئ ، وإنما التطبيق العملى .

عقب أحمد بأناة كأنه يسترضيه :

- معنى هذا أننى أخدعك ، ولست من الغباء بحيث أفعل ، إنك مفكر حقيقى وقدرتك على اكتشاف الحقائق لا شك فيها ، ومعنى خداعى لك أننى أعرّض بنائى كلها للانهيار فى لحظة اكتشاف الحقيقة وهى آتية لا ريب فيها ، فجميع مصادرنا علنية ومنتشرة فى كل مكان ، وفى استطاعه أى إنسان أن يقرأها .

عقب شوقى وقد مسّه شئ من الهدوء :

- أظن أنه يحسن فعلا أن أعيد قراءة التاريخ .

ابتسم أحمد وهزته فرحة حقيقية بينما واصل شوقى :

- من الواجب علميا أن ندرس موضوعاتنا الشائكة دون حساسية ، وأظن أنه ينبغى أن أبدأ بدراسة المؤثرات الطبقية التى حكمت سياسة الدول الإسلامية فى علاقتها بالأقليات الدينية والعرقية .

تمتم أحمد بهدوء :

- لن أقول إننى واثق من النتيجة بالرغم من أن هذه هى قناعتى ، فنحن فى حاجة بالفعل إلى بحوث علمية حقيقية لا موجّهة ، لكنى أتساءل : لماذا الأقليات وحدها ، ألا يمكن أن تتناول تلك المؤثرات البناء الإجتماعى كله .

لكن شوقى لم يعقب وظل صامتا ، هل أجهده الحوار فأخذ يسلى نفسه بمتابعة ما يدور فى المقهى ؟ ، وهل أغرى صمته أحمد أن يعيد مرة أخرى استكشاف ما حوله ؟ أتاح لهما صمتهما معا أن يسمعا عبارات متقطعة ترتفع أحيانا ، وأن يرقبا الفتيات فى زيهن المثير وإيقاعاتهن الجسدية والصوتية ردا على مشاكسات خفيفة من بعض الرواد حينا ومتجاوزة اللياقة من بعضهم حينا ، لكنهن كن من اللياقة واللباقة بحيث لم يثرن مشكلات مع أحد ، كان واضحا أنهن خبيرات تماما بطبيعة العمل ومدركات للأسلوب الأمثل فى التعامل .

علق شوقى بإعجاب على حركة انسحاب بارعة مغلفة ببسمة واسعة لمضيفة همَّ أحد الرواد أن يعترضها بقدمه :

– فتاة رائعة ، قدرتها على التحكم فى رد فعلها غير عادية .

تجهم أحمد وكأنما لم ير ولم يسمع فأثار موقفه شوقى فقال مهاجما :

– طبعاً لو توليت السلطة يوما لو ضعت هؤلاء الفتيات خلف القضبان .

رد أحمد بثقة مستفزة :

– حين نتولى السلطة وستتولاها قطعا ، سنوجد لهن مجالات عمل حقيقية ، فلا تضطر إحداهن إلى أن تعرض لحمها لتعيش .

قاطعه شوقى بغيظ :

– أنت إما حالم أو واهم .

رد بهدوء :

– لست بواهم ، ربما أكون حالما ، لكن ، أليس الحلم هو نقطة البدء لإعادة تشكيل الواقع .

تساءل شوقى ساخرا :

– أى واقع يا بنى ، إنك تجهل الواقع تماما ، أخبرنى عن مكان واحد حدث أو يحدث فيه ما تتخيله عن الدولة الدينية .

هل كان أحمد يجيبه فعلا حين قال :

– هل قرأت التاريخ ؟ .

فقاطعه شوقى محتدا :

– لا تحدثنى عن التاريخ فتفسيرنا له مختلف ، إنك لا ترى فيه إلا جانبا واحدا ،

حدثنى عن الواقع الحى ، عن الأنظمة التى ترفع شعارات الدولة الدينية هنالك ، عبر البحر ، قل لى فى أى بلد منها تتحقق أحلامك ؟ .

هل كان أحمد يجيب أم يحاول أن يراوغ حين قال :

– ليس العيب فى الشعار إذا لم يلتزم به من يرفعه .

تابع شوقى وكأنه لم يسمع تعقيبه :

– الشعارات فى تلك الدول تعبر عن أنماط فاسدة من السلوك المتخلف ، إذا احتجت إلى أمثلة أذكر لك منها ما يملأ مجلدات .

رد أحمد بحسم مضطر :

– لست فى حاجة إلى أمثلتك ولا مجلداتك ، إننى أعرف عنها أكثر مما يعرف كثيرون .

وصمت لحظة قبل أن يتابع :

– بوضوح شديد أقول لك إن ما يحدث هناك ليس ترجمة صحيحة للشعارات المرفوعة ، واستخدام الشعارات فيها مجرد وسيلة لخداع المؤمنين البسطاء الظامئين إلى العدل والحرية .

قاطعه شوقى مستنكرا :

– لا داعى للتضليل ، إن علماء الدين لا يكفون ليل نهار عن تقرير أن ما يحدث هنالك هو التطبيق الصحيح للدين .

رد أحمد بصوت امتزج فيه الحزن والحزم .

– من فضلك أنا لا ألجا إلى التضليل ، أنت الذى لا يستطيع التفرقة بين الدين فى مفهومه الحق واستخدامه غطاء لسلطة باغية فاجرة .

من جديد قاطعه شوقى :

- علماؤكم يقررون عكس ما تقول .

بادره أحمد وهو يضغط على الكلمات :

- إنهم ليسوا إلا عملاء ، مجرد جماعات من المنتفعين الذين يؤثرون العاجلة .

تساءل شوقى ساخرا :

- من الذى يقدم التفسير الصحيح للدين إذن ؟ أنت ؟ ! .

فرد أحمد بهدوء :

- ليس أنا ولا غيرى ، من الثابت عندنا أن الدين فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهو لذلك يعبِّر عن التطلعات الفطرية للفرد والجماعة والمجتمع ، فكل ما خالف الفطرة ليس من الدين فى شئ .

وصمت برهة ثم أضاف :

- وفضلا عن ذلك فإن هناك تجربة رائعة وقعت قديما تؤكد إمكان تطبيق هذه التطلعات .

اكتفى شوقى بأن هز كتفيه وهو يقول بأسى حقيقى :

- خسارة أن تظل أسير الماضى .

قال أحمد بثقة وهو ينهض لمغادرة القاعة :

- بل أنا واحد من دعاة المستقبل .

فصاح به شوقى يستوقفه .

- انتظر ، انتظر ، سنمضى معا .

✍ ✍ ✍

- ٥١ -

- الماكيت جاهز ؟ .

لم تكن المرة الأولى التي يصل فيها صوت رئيس التحرير مستفسرا بعصبية عبر جهاز الاتصال الداخلي الخاص إلى مجموعة العمل المجتمعة في مكتب مدير التحرير ، ولكن صوته كان في هذه المرة أعلى قليلا وكأنه يؤنبهم على التأخير ، تبادلوا نظرة سريعة مع مدير التحرير فتمتم كأنما يسترضيهم :

- إنه متوتر قليلا ، بحكم العادة .

وضغط زرار الرد في الجهاز الموضوع على مكتبه ليقول بهدوء حذر :

- انتهينا تقريبا ، دقائق .

ورفع إصبعه بأناة ، ولما لم يسمع تعقيبا انضم من جديد إلى مجموعة العمل .

ولم يكن في إمكان الجهاز أن ينقل زفرة رئيس التحرير وهو يتلقى الرد إذ كان قد شرع من جديد يتحرك في الحجرة حركة عشوائية لعله يخفف من توتره ، فهو يحس دائما في الليالي التي يعد فيها الصحيفة لنشر أنباء تتصل بالقيادة السياسية مباشرة بقدر غير عادي من القلق ، يزداد إذا كانت تلك الأنباء تتضمن كلمات قيلت في مناسبة

ما ، ويتصاعد إذا كانت الكلمات خطبة معدة ، لأن اختيار العناصر ذات الأهمية الخاصة التى يجب إبرازها يقتضى معرفة دقيقة لا تقبل الخطأ بالأهداف الحقيقية ، فربما تكون الخطبة كلها مجرد إطار لفظى أو تاريخي يخفى الغرض الحقيقي الذي قد يساق في جملة لا تستغرق لحظة ، يمكن أن تتخطاها العين وتغفلها الأذن ، وعلى رئيس التحرير أن يوازن بخبرته ومعرفته ببواطن الأمور بين الإطار والهدف ، وهى مسئولية بالغة الصعوبة تزيدها مشقة وعسرا المنافسة الرهيبة بين رؤساء تحرير الصحف القومية بعد أن أصبح معروفا لديهم - من معلومات متواترة أكدتها مؤشرات كثيرة - أن القيادة لا تطلع على الصحف إلا فى مثل هذه المناسبات ، الأمر الذى جعل كل واحد منهم يحرص على أن يكون فيها أقرب من غيره إلى الصورة التى تريدها القيادة لنفسها ، وإلا دفع مضطرا ثمنا باهظا قد يكلفه منصبه .

تمتم رئيس التحرير لنفسه وهو يزفر من جديد وقد ولّد فيه الانتظار إحساسا متفجرا بالغضب :

- لعنة الله عليهم وعلى حرية الصحافة معا ، حين كنا نتلقى تعليمات مباشرة كان الوضع أفضل ، على الأقل لم تكن أعصابنا تحترق بهذه الصورة .

ومد من جديد يده ليتعجل المجتمعين .

لماذا يحس فى هذه الليلة بالقلق يتصاعد إلى مدى غير مسبوق ؟ هل لذلك صلة بما عرفه من مصادر مختلفة من أن ماهر الجندى أحد المحررين البارزين في الصحيفة والمسئول عن القسم الثقافي فيها هو الذي كتب الخطاب الرسمي الذي ألقى فى الاحتفال ، لقد كان انطباعه الأول حين عرف بذلك الإحساس بالراحة ، إذ توقع أن يتيح له ذلك معرفة أكبر بما بين السطور ، ولكنه بعد أن فكر بروية أصابه القلق ، لأن وجود شخص فى داخل الصحيفة على اتصال شخصي بالقيادة مدعاة إلى الانزعاج ، فهو فى أبسط الأحوال سيصبح مركز قوة حتى لو لم يرد هو نفسه ذلك ، وعلى رئيس التحرير مهما كانت الظروف أن يراعي في كل لحظة وتصرُّف وجوده إذا أراد أن يتجنب

التهديد من الداخل ، لقد فرض نفسه بصلته وعليه أن يتعامل مع هذه الحقيقة .

تمتم من جديد لنفسه بضيق وهو يمد يده ليطلب سكرتيرته :

« *أما كان يكفي ما نواجهه حتى نضطر إلى مجاملة انتهازي سيئ السلوك* » .

– أفندم ؟ .

– بلغى الأستاذ ماهر الجندى برغبتى فى رؤيته .

– أمرك يافندم .

ما الذي جال فى خاطره حتى يستدرك بسرعة :

– لا داعي لأن تبلغيه أنت ، أعطنى إياه على التليفون .

* * *

هل كانت مفاجأة لماهر الجندي أن تستقبله فور دخوله مكتب رئيس التحرير كلمات المجاملة وهو ينهض ليسلم عليه :

– العرس عرسك ، هل يعقل أن نوافق على الماكيت بدون أن يشاركنا العريس ؟ ! .

نهض المجتمعون بدورهم ليسلموا عليه بحرارة ، وأفسحوا له مكانا بينهم ، ولكن رئيس التحرير أمسك بساعده ليجلسه إلى جواره وهو يقول :

– كان الحفل رائعا ، كان عرسا حقيقياً للثقافة والفكر .

قال مدير التحرير مؤكدا :

– وكان الرئيس أيضاً متألقا جدا ، واضح أنه راض تماما عن المثقفين .

أغرى الحديث سكرتير التحرير فأراد أن يشارك فيه :

- حتى نقده لصعاليك الثقافة كان ممتعا ، لقد ضحكت من أعماقى عليهم وهو يشبههم بفئران السفينة .

كان مدير التحرير يوشك أن يستأنف حديثه حين قاطعهم رئيس التحرير ليوقف مداخلاتهم قائلا وهو يوجه حديثه إلى ماهر :

- لقد خصصنا الصفحة الأولى بالكامل لمانشتات الحفل ، ونحن ندرس الآن الماكيت لينزل إلى المطبعة .

وتوقف لحظات ثم أضاف مبتسما :

- طبعاً أنت رجل الثقافة الأول ، ولذلك فإن مشاركتك مهمة جدا .

أخذ ماهر يتأمل الماكيت بإعجاب ، لقد كان مبتكرا بالفعل ، خصصت أربعة أعمدة فى أيسر الصفحة لتوضع فيها صورة للرئيس اختيرت بعناية من بين مئات الصور التى التقطت فى الحفل ، وخصصت الأعمدة اليمنى لمجموعة المانشتات التى تتناول كلمة الرئيس ، وكانت تمزج بذكاء رائع بين الخبر والاقتباس والتقييم فى أسلوب فريد يجمع بين الإعلام والإعلان . فالعنوان الأساسى من كلمتين فقط : (كلمات مضيئة) وتحته عنوان أساسى آخر من أربع كلمات : (العالم يصغى والتاريخ يسجل) ، تحته بدوره عنوان ثالث : (القائد العظيم يضع دستورا للثقافة الوطنية) وأخيرا بعض المقتبسات المباشرة مما ورد فى الكلمة الرسمية : (نار على الرجعية دفاعا عن التقدم) و (حرب على الفوضوية حفاظاً على القيم) و (البرغوتى مثال للمثقف الوطنى الملتزم) .

كان ماهر يتأمل الماكيت وعيون رئيس التحرير ترقبه تنتظر رد فعله ، فلما قال :

- جميل ، جميل جدا .

تركت الكلمات صداها فى نفس رئيس التحرير راحة ورضا ، ولكن ماهر ما لبث أن أضاف مترددا :

- ألا يمكن إحداث تعديل ؟ .

تبادل أعضاء لجنة العمل النظرات فيما بينهم ، لقد قدموا أفضل ما عندهم لأنهم يعلمون أنه بعد ساعات محدودة سيحظى عملهم بشرف اطلاع القيادة السياسية عليه ، وها هوذا ماهر الجندى الذى لا يعرف إلا السهرات الماجنة يأتى ليقترح !! . ولكن رئيس التحرير تجاوز نظراتهم وقال مشجعاً :

- قل ما تحب ، لقد تعودنا أن ندرس كل المقترحات لننتهى إلى أفضل الآراء ؟ .

هل كانت العبارة أدنى مما يريد رئيس التحرير إشعار ماهر به من تقدير حتى يضيف ببهجة :

- لا شك أن المجال مجالك ، ولذلك سيكون لمقترحاتك وزن خاص .

قال ماهر بثقة :

- أرى أولا حذف العبارة التى تتكلم عن البرغوتى .

هل أحس أنهم ينتظرون تفسيرا فأضاف :

- لا داعى لأن تكون ما نشيت ، ألا يكفى أنها واردة ضمن نص الخطاب .

عقب رئيس التحرير مؤيدا :

- أتعرف ؟ لقد كان إحساسى فعلا أن العبارة مقحمة . إنها تعبير عن التقدير الشخصى فى الوقت الذي تركزت المانشتات حول الجانب الموضوعي .

أضاف ماهر :

- أقترح أيضاً كتابة عبارة فى مانشيت ، عبارة مهمة جدا .

تساءل رئيس التحرير باهتمام :

- أي عبارة ؟ .

- العبارة التي تقول : رءوسنا عالية لا تعرف الانحناء ، وأفكارنا حرة لا تقبل القيود .

قال رئيس التحرير بصوت امتزج فيه الرضا والتعجب :

– إنها بالفعل عبارة مهمة ، كيف فاتنا أن نفطن إليها .

والتفت إلى سكرتير التحرير ليقول آمرا :

– نفذ .

تساءل الرجل موجها حديثه إلى رئيسه :

– هل نضعها مكان العبارة التى حذفناها .

فبادر ماهر إلى الإجابة مخاطبا رئيس التحرير :

– أقترح أن توضع تحت الصورة كأنها القاعدة التى ترتكز عليها .

* * *

فى الوقت الذي كان كبار المسئولين فى الصحيفة مجتمعين كان محرر الحوادث غارقا فيما بين يديه من أوراق وهو يتفحص حصيلة اليوم من أخبار الحوداث التى قدمها المندوبون ، إذ ضمت خليطا كبيرا عليه أن يختار منه عددا قليلا لينشره فى المساحة المحدودة المتبقية من الصفحة بعد أن طغت أخبار الاحتفال وصوره على مساحة الجريدة واحتلت أجزاء كبيرة من صفحاتها . أي الحوادث يختار ؟ أكثرها إثارة أو أكثرها أهمية ؟ ظل مترددا إلى أن حضر مسئول الصفحة من الاجتماع المسائي المحدود وسأله بلهفة :

– انتهيت ؟ .

فهز رأسه نفيا . هل أحس بأن رئيسه استاء فقال مفسرا كأنما يعتذر :

– الحوادث كثيرة ، وعدد كبير منها مهم .

قال رئيسه كأنما نفد صبره :

- قلت لك إنه ليس كل ما يصلح للنشر فى الأيام العادية يصلح للنشر اليوم . الأخبار التي تنشر اليوم يجب أن تكون ذات طابع خاص .

أمسك المحرر بورقة صغيرة فى يده وقال بتردد :

- أظن أن هذا الخبر يصلح .

تساءل رئيسه دون أن يمد يده إلى الورقة :

- ما موضوعه ؟ .

فشرع المحرر يقرأ :

- إصابة جامعيين فى حادث تصادم ، أصيب أمس الدكتور شوقى فخرى الأستاذ بكلية الآداب إصابة خطيرة عندما اصطدمت سيارته التي كان يقودها بإحدى سيارات الأمن المركزي فوق كوبري الأزهر ، أصيب معه فى الحادث مدرس مساعد بالكلية اسمه أحمد ... .

فقاطعه رئيسه بغضب :

- وما قيمة هذا الخبر ، ألأنه أستاذك تتصور أن أخباره مهمة .

قال المحرر معتذراً :

- أسف نسيت تعديل الخبر ، فقد علمت من لحظات أن الحادث أسفر عن الوفاة ، سيكون العنوان : (مصرع) بدلا من (إصابة) .

من جديد قاطعه رئيسه :

- وحتى لو مات ، ما قيمة هذا الخبر ، مجرد حادثة مرور عادية يقع مثلها يوميا مئات .

هل كان المحرر يعترض أم يفسر حين قال :

- الدكتور شوقى واحد من أكبر المثقفين فى الجامعة ، إنه زميل البرغوتى .

فرد رئيسه بضجر :

– شتان بينهما ، إنه ليس البرغوتي ، لو مات معه نصف أساتذة الجامعة ما أحس بهم أحد . عليك أن تتخلص من أوهامك الرومانسية . أنت الآن محرر فى أكبر الصحف اليومية فى الشرق الأوسط .

وسكت لحظة قبل أن يضيف :

– هات .

ومد يده فأخذ مجموعة القصاصات التي تتضمن الحوادث وراح يتأملها خبرا خبرا ، إلى أن أختار أحدها فألقى به إليه قائلا :

– هذا خبر مناسب ، لكن عليك أن تعيد صياغته لتعطيه البعد المطلوب .

أمسك المحرر بالقصاصة وراح يقرأ ، ثم نظر إلى رئيسه كأنما يتساءل : بماذا يتميز هذا الخبر ؟ فقال رئيسه بثقة من يعطى تلميذا صغيرا فى المرحلة الأولى درسا فى كيفية القراءة الصحيحة :

– إيقاف مسئول كبير فى هيئة الآثار وإحالته للمحاكمة لاتهامه بملاحقه موظفة صغيرة بعد إعداد كمين له معناه بوضوح عدم حماية الفساد ، هذا هو الجانب الذي يجب إبرازه فى الخبر . لأنه التطبيق العملى لشعار العهد .

– أي شعار ؟ .

– طهارة الحكم .

تمت

رقم الايداع بدار الكتب ٥٥٠٧ / ١٩٩٢

رقم دولى 2 - 3607 - 00 - 977

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET